

لابن أبي الحديد

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد



بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

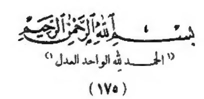
الجزء العاشر

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٣٨٦هـ — ١٩٦٧م)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ.ق



(١ الحمد لله الواحد العدل ١)

(١٧٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى معنى طلحة بن عبيد الله :

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ ؛ وَأَنَا عَلَى مَاوَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ ؛ وَاللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ ؛ لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ [٢] الْأَمْرُ ، وَيَقَعَ الشَّكُّ .

وَوَاللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ :

لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِماً ــ كَمَا كَانَ يَزْعُمُ ــ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ .

وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ .

وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ ؛ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ ، وَيَرْكُدَ جَانِباً ، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ .

فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ ؛ وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ .

* * *

(١ ــ ١) ساقط من ب .

(٢) مخطوطة النهج : « ليلبس » .

الشرح :

كان هاهنا تامّة ، والواو واو الحال ؛ أى خُلِقتُ ووجدتُ وأنا بهذه الصفة ، كما تقول: خلقنى الله وأنا شجاع .

ويجوز أن تكون الواو زائدة ، وتكون « كان » ناقصة ، وخبرها « ما أهدّد»، كما فى المثل : « لقد كنت وما أُخَشَّى بالذّئب[1] » .

فإن قلت : إذا كانت ناقصة ، لزم أن تكون الآن بخلاف ما مضى ؛ فيكون الآن يهدَّد ويُرَهَّب .

قلت : لا يلزم ذلك ، لأنّ « كان » الناقصة للماضى من حيث هو ماضٍ ؛ وليس يشترط فى ذلك أن يكون منقطعا ؛ بل قد يكون دائما ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[2] .

ثم ذكر عليه السلام أنه على ما وعده ربّه من النصر ، وأنه واثق بالظّفَر والغَلَبة الآن، كما كانت عادتُه فيما سبق .

ثم شرح حال طلحة ، وقال : إنّه تجرّد[3] للطّلب بدم عثمان ، مغالطةً للنّاس ، وإيهاماً لهم أنّه برىء من دمه ، فيلتبِسُ الأمرُ، ويقع الشكّ .

وقد كان طلحةُ أجهَد نفسَه فى أمرِ عثمان والإجلاب[4] عليه ، والحصرِ له ، والإغراء به ، ومنّتهُ نفسه الخلافة ؛ بل تلبّس بها ، وتسلّم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها ، وقاتل النّاس ، وأحدقوا به ، ولم يبقَ إلا أن يَصْفِق[5] بالخلافة على يده .

---

(١) بقية المثل : « فاليوم قيل الذّئب الذّئب » ، وأول من قاله قباث بن أشيم الكنانى ، وانظر مجمع الأمثال ٢ : ١٨٠ .

(٢) سورة النساء ١٧ .

(٣) يقال : تجرد للأمر ؛ إذا جد فيه وتفرغ له .

(٤) أجلب عليه ، أى حاول أن يجمع الناس له من كل مكان .

(٥) صفق على يديه بالبيعة صفقاً وصفقة ، أى ضرب يده على يده .

[ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان]

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب "التاريخ"، قال :

حدثني عمر بن شبّة ، عن عليّ بن محمد ، عن عبد ربّه ، عن نافع ، عن إسماعيل بن أبي خالد[1] ، عن حَكِيم[2] بن جابر ، قال : قال عليّ عليه السلام لطلحة وعثمان محصور : أنشُدك الله إلّا رددتَ الناس عن عثمان ! قال : لا والله حتى تُعطِيَ بنو أميّة الحقّ من أنفسها .

وروى الطبريّ أنّ عثمان كان له عَلَى طلحة خمسون ألفا ، فخرج عثمان يوما إلى المسجد، فقال له طلحة : قد تهيّأ مالك فاقبِضْه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك[3] .

قال : فكان عثمان يقولُ وهو محصور : جزاء سِنِمّار !

وروى الطبريّ أيضا أنّ طلحة باع أرضاً له من عثمان بسبعمائة ألف ، فحملها إليه ، فقال طلحة : إنّ رجلا يبيت[4] وهذه عنده وفي بيته ، لا يدري مايطرُقه من أمر الله لغريرٌ بالله ! فبات ورسله تختلف بها في سِكَكِ المدينة يقسِمُها حتى أصبح وما عنده منها درهم واحد .

قال الطبريّ : روى ذلك الحسن البصريّ ، وكان إذا روى ذلك يقول: ثم جاء إلينا يطلب الدينار والدرهم ـ أو قال : والصفراء والبيضاء[5] .

---

(١) في الأصول : « أبو طالب » ، تحريف وصوابه من تاريخ الطبري .
(٢) حكيم بفتحة وكسر الكاف ؛ كذا ضبط في التقريب .
(٣) تاريخ الطبري ٤ : ٤٠٤ .
(٤) في الطبري : « تسق » .
(٥) تاريخ الطبري ٤ : ٤٠٥

وروى الطّبري أيضا ، قال : قال ابنُ عباس رحمه الله : لما حَججتُ بالنّاس نيابة عن عثمان وهو محصور ، مررت بعائشة بالصُّلْصُل (١) ، فقالت : يابنَ عباس، أنشدك الله، فإنك قد أعطيتَ لسانا وعقلا ، أن تُخذّل الناسَ عن طلحة ؛ فقد بانت لهم بصائرهم في عثمان وأنهجَت (٢) ، ورفعت لهم المنار ، وتحلّبوا من البلدان لأمر قد حُمّ ؛ وإنّ طلحة — فيما بلغني — قد اتّخذ رجالا على بيوت الأموال، وأخذ مفاتيحَ الخزائن وأظنّه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمّه أبي بكر ، فقال : يا أمّه ، لو حدث بالرّجل حدثٌ مافزع الناس إلّا إلى صاحبنا ، فقالت : إيهاً عنك يابن عباس ؛ إني لستُ أريد مكابرتك ولا مجادلتك (٣) .

وروى المدائنيّ في كتاب " مقتل عثمان "، أنّ طلحة منع من دفنه ثلاثة أيام ، وأنّ عليا عليه السلام لم يبايع الناس إلّا بعد قتل عثمان بخمسة أيام ، وأن حَكيم بن حزام أحدَ بني أسد بن عبد العزّى ، وجُبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجدَا بعليّ عليه السلام على دفنه ، فأقعد طلحةُ لهم في الطريق ناسا بالحجارة ، فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطا بالمدينة يعرف بحَشّ كَوْكب (٤) كانت اليهود تَدْفِنُ فيه موتاهم ، فلما صار هناك رُجِم سريره ، وهمّوا بطرحه ؛ فأرسل عليّ عليه السلام إلى النّاس يعزم عليهم ليكفّوا عنه فكفّوا ، فانطلقوا به حتى دفنوه في حَشّ كوكب .

---

(١) صلصل : موضع بنواحي المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل به صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح ؛ قال عبدالله بن مصعب الزبيري :

أَشْرِفْ عَلَى ظَهْرِ الْقُدَيْمَةِ هَلْ تَرَى ... بَرْقاً سَرَى فِي عَارِضٍ مُتَهَلِّلِ
نَضَحَ الْعَقِيقَ فَبَطْنَ طَيْبَةَ مَوْهِناً ... ثُمَّ اسْتَمَرَّ يَؤُمُّ قَصْدَ الصُّلْصُلِ

(٢) أنهج الطريق : وضح .

(٣) تاريخ الطبري ٤ : ٤٠٧ .

(٤) حش كوكب : موضع عند بقيع الغرقد ، ذكره ياقوت ، وقال : اشتراه عثمان بن عفان ، وزاده في البقيع ، ولما قتل ألقي فيه ، ثم دفن في جنبه .

وروى الطبرىّ نحو ذلك ؛ إلّا أنه لم يذكر طلحة بعينه ؛ وزاد فيه أنّ معاوية لما ظَهَرَ على النّاس ؛ أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البَقيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبرِه حتى اتّصل [ذلك][1] بمقابر المسلمين .

وروى المدائنىّ فى هذا الكتاب ، قال : دفن عثمان بين المغرب والعَتَمة ، ولم يشهد جنازته إلّا مَرْوان بن الحكَم وابنه عثمان وثلاثةٌ من مواليه ، فرفعت ابنتُه صوتَها تندُبه ؛ وقد جعل طلحة ناساً هناك أ كَمَنهم كمينا ، فأخذتْهم الحجارة ، وصاحوا : نعثل نعثل[2] ! فقالوا : الحائط الحائط ! فدفن فى حائطٍ هناك .

وروى الواقدىّ ، قال : لما قتِل عُثمان ، تكلّموا فى دفنه ، فقال طلحة : يُدفن بدير سَلْع – يعنى مقابر اليهود .

وذكر الطبرىّ فى تاريخه هذا ؛ إلّا أنه روى عن طلحة فقال : قال رجل : يدفن بدير سلْع – فقال حكيم بن حزام : والله لا يكون هذا أبدا وأحد من ولد قصىّ [حىّ][1] حتى كاد الشرُّ يلتحم ؛ فقال ابن عُدَيْس البَلَوِىّ : أيها الشيخ ؛ وما يضرّك أين دفن ! قال : لا يدفن إلا ببقيع الغَرْقد[3] ؛ حيث دفن سَلَفُه ورهطه ؛ فخرج به حكيم بن حزام فى اثنى عشر رجلا ، منهم الزّبير بن العوام ، فمنعهم النّاس عن البقيع ، فدفنوه بحَشّ كَوْكب[4] .

• • •

---

(١) من تاريخ الطبرى .

(٢) نعثل : رجل من أهل مصر ؛ كان طويل اللحية ؛ وكان شانئو عثمان رضى الله عنه يسمونه بذلك . اللسان .

(٣) أصل البقيع فى اللغة ، الموضع الذى فيه أروم الشجر ؛ والغرقد كبار الشجر المسمى بالعوسج . وهو مقبرة أهل المدينة (ياقوت) .

(٤) تاريخ الطبرى ٤ : ٤١٢ ، ٤١٧ .

وروى الطبرىّ فى التاريخ أنّ عثمان لما حُصِر ، كان علىّ عليه السلام بخَيْبر فى أمواله ؛ فلما قدم أرسل إليه يدعوه ، فلما دخل عليه قال له : إنّ لى عليك حقوقاً : حقّ الإسلام ، وحقّ النسب ، وحقّ مالى عليك من العهد والميثاق ؛ ووالله أن لو لم يكنْ من هذا كلّه شىء وكنّا فى جاهلية ؛ لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتزّهم أخو تَيْم مُلْكهم — يعنى طلحة — فقال له عليه السلام : سيأتيك الخبر ، ثم قام فدخل المسجد ، فرأى أسامة بن زيد جالساً ، فدعاه فاعتمد على يده ، وخرج يمشى إلى طلحة ، فدخل داره ؛ وهى رِجَاسٌ[1] من الناس ؛ فقام عليه السلام ، فقال : يا طلحة ، ما هذا الأمر الذى وقعتَ فيه ؟ فقال : يا أبا حسن ، أبعدَ ما مسّ الحِزام الطُّبيين ! فانصرف علىّ عليه السلام ولم يُحِرْ إليه شيئاً حتى أتى بيت المال ، فنادى : افتحوا هذا الباب ، فلم يقدروا على فتحه ، فقال : اكسِروه ، فكُسِر فقال : أخرجوا هذا المال ، فجعلوا يخرجونه وهو يعطى الناس ؛ وبلغ الذين فى دار طلحة ما صنع علىّ عليه السلام ، فجعلوا يتسلّلون إليه حتى بقى طلحة وحده ؛ وبلغ الخبرُ عثمان ، فسُرّ بذلك ، ثم أقبل طلحة يمشى عامداً إلى دار عثمان ، فاستأذن عليه ؛ فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ؛ أستغفر الله وأتوبُ إليه ؛ لقد رمت أمراً حال الله بينى وبينه . فقال عثمان : إنّك والله ما جئت تائباً ؛ ولكن جئت مغلوباً ؛ والله حسيبك يا طلحة[2] !

ثم قسم عليه السلام مالَ طلحة ، فقال : لا يخلو إمّا أن يكون معتقداً حلّ دم عثمان ، أو حرمته ؛ أو يكون شاكّاً فى الأمرين ؛ فإن كان يعتقد حلّه لم يجُزْ له أن ينقُضَ البيْعة لنصرة إنسان حلال الدم ، وإن كان يعتقد حرمته ، فقد كان يجب عليه أن ينهنِهَ عنه الناس ، أىْ يكفّهم .

(١) رجاس من الناس ؛ أى ممتلئة .
(٢) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٣١

وأن يعذّر فيه ؛ بالتشديد أي يقصّر ولم يفعل ذلك ؛ وإنْ كان شاكاً ؛ فقد كان يجب عليه أنْ يعتزل الأمر ، ويركد جانبا ؛ ولم يعتزل وإنما صَلِيَ بنار الفتنة ، وأصلاها غيرَه .

فإن قلت : يمكن أن يكون طلحةُ اعتقد إباحة دم عثمان أوّلاً ، ثم تبدّل ذلك الاعتقاد بعد قتله ؛ فاعتقد أنّ قتله حرام ، وأنه يجب أن يقتصّ من قاتليه !

قلت : لو اعترف بذلك لم يقسّم عليٌّ عليه السلام هذا التقسيم ؛ وإنما قسّمه ليقانه على اعتقاد واحد ؛ وهذا التقسيم مع فرض بقائه على اعتقاد واحدٍ صحيح لا مطعن فيه ؛ وكذا كان حال طلحة فإنّه لم ينقل عنه أنه قال : ندمت على ما فعلت بعثمان .

فإن قلت : كيف قال أمير المؤمنين عليه السلام : « فما فعل واحدة من الثلاث » ؛ وقد فعل واحدة منها ، لأنّه وازر قاتليه حيث كان محصورا !

قلت : مراده عليه السلام أنّه إن كان عثمان ظالما ، وجب أن يوازر قاتليه بعد قتله ؛ يحامي عنهم ، ويمنعهم ممّن يروم دماءهم ؛ ومعلوم أنّه لم يفعل ذلك ، وإنما وازرهم وعثمان حيّ ؛ وذلك غير داخل في التقسيم .

(١٧٦)

الأصل :

من خطبة له عليه السلام :

أيها الناس غير المغفول عنهم ، والتاركون ، والمأخوذ (١) منهم .

مالي أراكم عن الله ذاهبين ، وإلى غيره راغبين ! كأنكم نعم أراح بها سائم إلى مرعى وبي ، ومشرب دوي ؛ وإنما هي كالمعلوفة للمدى ؛ لا تعرف ماذا يراد بها ! إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها ، وشبعها أمرها .

والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت ؛ ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله صلى الله عليه وسلم . ألا وإني مفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه . والذي بعثه بالحق ، واصطفاه على الخلق ، ما أنطق إلا صادقا ؛ ولقد عهد إلي بذلك كله وبمهلك من يهلك ، ومنجى من ينجو ، ومآل هذا الأمر ؛ وما أبقى شيئا يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني ، وأفضى به إلي .

أيها الناس ؛ إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها .

* * *

الشرح :

خاطب المكلفين كافة ؛ وقال : إنهم غافلون عما يراد بهم ومنهم ؛ وليسوا بمغفول عنهم ؛ بل أعمالهم محفوظة مكتوبة .

(١) ب : « المأخوذ » ، من غير واو .

ثم قال : والتاركون : أي يتركون الواجبات .

ثم قابل ذلك بقوله : « والمأخوذ منهم » ، لأنّ الأخذ في مقابلة التّرك ؛ ومعنى الأخذ منهم انتقاصُ أعمارهم ، وانتقاض قوامهم ، واستلاب أحبابهم وأموالهم .

ثم شبههم بالنّعم التي تتبع نعماً أخرى .

سائمة ، أي راعية ؛ وإنّما قال ذلك لأنّها إذا اتبعت أمثالها كان أبلغ في ضرب المثل بجهلها من الإبل التي يُسِيمُها راعيها . والمرعى الوبيّ : ذو الوَباء والمرض . والمشرب الدّويّ ذو الداء ، وأصل « الوبي » الوبيء المهموز ؛ ولكنه ليّنه ؛ يقال : أرض وبيئة على « فعيلة » ، ووبئة على « فَعِلة » ؛ ويجوز أوبأت فهي موبئة .

والأصل في الدويّ « دَوٍ » بالتخفيف ؛ ولكنه شدّده للازدواج .

ثم ذكر أن هذه النّعم الجاهلة التي أوقعت أنفسها في هذا المرتع والمشرب المذمومين كالغنم وغيرها من النّعم المعلوفة .

المُدَى : جمع مُدْيَة ؛ وهي السّكين ، لا تعرف ماذا يراد بها ، وتظن أن ذلك العلف إحسان إليها على الحقيقة .

ومعنى قوله : « تحسب يومها دهرها » ؛ أي تظن أنّ ذلك العلف والإطعام كما هو حاصلٌ لها ذلك اليوم ، يكون حاصلا لها أبداً .

و « شبعها أمرَها » ، مثل ذلك ، أي تظن أنه ليس أمرُها وشأنُها إلا أن يطعمها أربابُها لتشبع وتحسُن وتسمن ؛ ليس يريدون بها غير ذلك .

ثم خرج عليه السلام من هذا الفنّ إلى فنّ آخر ، فأقسم أنّه لو شاء أن يخبر كلّ واحد منهم من أين خرج ، وكيفية خروجه من منزله ، وأين يلج ، وكيفيّة ولوجه ، وجميع شأنه من مطعمه ومشربه ، وما عزم عليه من أفعاله ، وما أكله ، وما ادّخره في بيته ، وغير ذلك من شئونه وأحواله ، لفعل .

وهـذا كقول المسيح عليـه السلام : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾[١] .

قال : إلّا أنى أخاف أن تـكفروا فىّ برسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ أىْ أخاف عليـكم الغلوّ فى أمرى ، وأن تُفضّلونى على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ بل أخاف عليـكم أن تدّعوا فىّ الإلٰهيـة ، كما ادّعت النصارى ذلك فى المسيح لمّا أخبرهم بالأمور الغائبة .

ثم قال : « ألا وإنّى مُفْضيه إلى الخاصّة » أى مفض به ومودعٌ إياه خواصَّ أصحابى وثقاتى الذين آمَنُ منهم الغلوّ ، وأعلم أنهم لا يـكفرون فىّ بالرسول صلى الله عليه وسلم لعلمهم أنّ ذلك من إعلام نبوّته ، إذ يكون تابع من أتباعه ، وصاحب من أصحابه بلغ إلى هذه المنزلة الجليلة .

ثم أقسم قسماً ثانياً أنّه ما ينطق إلّا صادقاً ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهد بذلك كلّه إليه ، وأخبره بمهلِكَ مَنْ يهلِك من الصحابة وغيرهم من الناس ؛ ومنجاة[٢] مَنْ ينجو ، وبمآل هذا الأمر — يعنى ما يفضى إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة — وأنّه ما ترك شيئاً يمرّ على رأسه عليه السلام إلا وأخبره به وأسرّه إليه .

* * *

[فصل فى ذكر بعض أقوال الغلاة فى علىّ]

واعلم أنه غيرُ مستحيل أن تكون بعض الأنفُس مختصّةً بخاصيّة تدرك بها المغيّبات ؛ وقد تقدّم من الكلام فى ذلك ما فيه كفاية ، ولـكنْ لا يمكنُ أن تكون نفس تدرك كلّ المغيّبات ؛ لأنّ القوة المتناهية لا تحيط بأمور غير متناهية ؛ وكلّ قوة فى نفس حادثة فهى متناهية ؛ فوجب أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ، لا على أن يريد به عموم العالمية

(١) سورة آل عمران ٤٩ .

(٢) ا : « منجاة » .

بل يعلم أموراً محدودة من المغيّبات ؛ مما اقتضت حكمة البارئ سبحانه أن يؤهّله لعلمه ؛ وكـذلك القول فى رسول الله صلى الله عليه وآله إنّه إنّما كان يعلم أموراً محدودة لا أموراً غير متناهية ؛ ومع أنّه عليه السلام قد كتم ما عليه حذرا من أن يكفروا فيه برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كفر كثير منهم ، وادّعوا فيه النبوّة ، وادّعوا فيه أنه شريك الرسول فى الرسالة ، وادعوا فيه أنّه هو كان الرسول ؛ ولـكنّ الملَك غلط فيه ؛ وادّعوا أنه هو الذى بعث محمدا صلى الله عليه وآله إلى الناس ، وادّعوا فيه الحلول ، وادّعوا فيه الاتحاد ، ولم يتركوا نوعا من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه ؛ وقال شاعرهم فيه من أبيات :

وَمَنْ أهلَكَ عادا و ثَمودا بدواهيـــــــه
وَمَنْ كَلَّمَ مُوسَى فَوْ قَ طُورٍ إذْ يُنــــادِيه
ومن قال على المنـ بر يوما وهو راقيــــه :
سَلُونى أيّهـــــا الناس فحاروا فى معانيــــه

وقال بعض شعرائهم :

إنّما خالقُ الخــلائقِ مَنْ زَعْـ ـزَعَ أركان حصن خيــبرَ جَذْبا
قَدْ رضينـــــا به إماماً ومولى وسجدنا له إلهـــــا وربّا

* * *

[جملة من إخبار علىّ بالأمور الغيبية]

وقد ذكرنا فيما تقدّم من إخباره عليه السلام عن الغيوب طرفا صالحا ، ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قوله فى الخطبة التى يذكر فيها الملاحم ، وهو يشير إلى القرامطة[1] :

(١) يرجع مذهب القرامطة إلى كبيرهم الحسن بن بهرام الجنابى أبو سعيد ؛ كان دقاقاً من أهل جنابة بفارس ، ونفى منها ، فأقام فى البحرين تاجراً ، وجعل يدعو العرب إلى نحلته ، فعظم أمره ؛ فحاربه الخليفة مقر الحسن وساداه للمقتدر العباسى ؛ وكان أصحابه يسمونه السيد . استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ؛ وكان شجاعا ؛ داهية ، قتله خادم له صقلبى فى الحمام بهجر ، مات سنة ٣٠١ . وانظر تاريخ ابن الأثير .

« ينتحلون لنا الحبّ والهوى ، ويضمرون لنا البغضَ والقِلى ؛ وآية ذلك قتلهم ورّاثنا ، وهجرهم أحداثنا » .

وصحّ ما أخبر به ؛ لأن القرامطة قتلت من آل أبى طالب عليه السلام خلقاً كثيراً ؛ وأسماؤهم مذكورة فى كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبى الفرج الأصفهانى .

ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابىّ فى جيشه بالغَرِىّ[1] وبالحاير[2] ؛ فلم يعرّج على واحد منهما ولا دخل ولا وقف

وفى هذه الخطبة قال وهو يشير إلى السارية التى كان يستند إليها فى مسجد الكوفة : كأنى بالحجر الأسود منصوبا هاهنا . ويحهم . إن فضيلته ليست فى نفسه ، بل فى موضعه وأسِّه ، يمكث هاهنا برهة ، ثم هاهنا برهة ـ وأشار إلى البحرين ـ ثم يعود إلى مأواه ، وأمّ مثواه .

ووقع الأمر فى الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام .

وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم ، فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه ، ووجدت فى كثير منها اختلالاً ظاهراً ؛ وهذه المواضع التى أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة ، بل من كلام له وجدته متفرقاً فى كتب مختلفة ؛ ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التيمى اعترضه ؛ وهو يخطب على المنبر ويقول : « سلونى قبل أن تفقدونى ؛ فوالله لا تسألونى عن فئة تضل مائة أو تهدى مائة إلا نبأتكم بناعقها وسائقها ، ولو شئت لأخبرت كلّ واحد منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه » . فقال : فكم فى رأسى طاقة شعر ؟ فقال له : أما والله إنى لأعلم ذلك ؛ ولكن أين برهانه لو أخبرتك به ! ولقد أخبرتك بقيامك ومقالك . وقيل لى إن على كلّ

---

(١) الغرى ، واحد الغريين ؛ وهما بناءان كالصومعتين ؛ كانا بظهر الكوفة ؛ قرب قبر على عليه السلام (مراصد الاطلاع) .

(٢) الحاير ، بعد الألف ياء مكسورة ؛ موضع قبر الحسين عليه السلام . ذكره ياقوت .

شعرة من شعر رأسك ملكا يلعنك وشيطانا يستفزّك ، وآيةُ ذلك أنّ فى بيتك سخلا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ويحضّ على قتله[١] .

فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام ، كان ابنه حصين ـ بالصاد المهملة ـ يومئذ طفلًا صغيرا يرضع اللّبن ، ثم عاش إلى أن صار على شُرْطة عبيد الله بن زياد ، وأخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعّده على لسانه إن أرجأ ذلك ، فقتِل عليه السلام صَبيحة اليوم الذى ورد فيه الحصين بالرسالة فى ليلته .

ومن ذلك قوله عليه السلام للبرّاء بن عازب يوما : يابراء ، أيقتَل الحسين وأنت حىّ فلا تنصره ! فقال البرّاء : لا كان ذلك يأمير المؤمنين !

فلما قتِل الحسين عليه السلام كان البَرّاء يذكر ذلك ؛ ويقول : أعظِمْ بها حَسْرة ! إذْ لم أشهده وأقتل دونه !

وسنذكر من هذا النّمط ـ فيا بعد ـ إذا مررنا بما يقتضى ذكره ـ ما يحضرنا إن شاء الله.

---

(١) ب : « قتله » .

(١٧٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

انتفعوا ببيان الله ، واتَّعظوا بمواعظ الله ، واقبلوا نصيحة الله ؛ فإنَّ الله قد أعذرَ إليكم بالجليّة ، وأخذ[1] عليكم الحجة ، وبيَّن لكم محابّه من الأعمال ، ومكارهه منها ؛ لتتّبعوا هذه وتجتنبوا هذه ، فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقول : إنّ الجنّة حُفّت بالمكاره ، وإنّ النار حُفّت بالشهوات .

واعلموا أنّه ما من طاعة الله شيء إلّا يأتي في كُرْه ، وما من معصية الله شيء إلّا يأتي في شهوة ، فرحم الله امرأً نزع عن شهوته ، وقمع هوى نفسه ، فإنّ هذه النفس أبعد شيء منزعاً ، وإنّها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى .

واعلموا عباد الله أنّ المؤمن لا يُمسي ولا يُصبح إلّا ونفسه ظنون عنده ، فلا يزال زارياً عليها ، ومستزيداً لها . فكونوا كالسابقين قبلكم ، والماضين أمامكم ؛ قوّضوا من الدنيا تقويض الراحل ، وطووها طيّ المنازل .

***

الشرح :

أعذر إليكم : أوضح عذره في عقابكم إذا خالفتم أوامره . والجليّة : اليقين ؛ وإنّما أعذر إليهم بذلك ، لأنه مكّنهم من العلم اليقيني بتوحيده وعدله ، وأوجب عليهم ذلك في

(١) مخطوطة النهج : « وأخذ » .

عقولهم ؛ فإذا تركوه ساغ في الحكمة تعذيبُهم وعقوبتهم ؛ فكأنَّهُ قد أبان لهم عذره أنْ لو قالوا : لِمَ تعاقبنا ؟

ومحابّه من الأعمال ، هي الطاعات التي يحبّها . وحبّه لها إرادة وقوعها من المكلّفين. ومكارهه من الأعمال : القبائح التي يكرهها منهم ؛ وهذا الكلام حجّة لأصحابنا على المجبّرة . والخبر الذي رواه عليه السّلام مرويّ في كتب المحدّثين ؛ وهو قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «حُجبت الجنّة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات » ، ومن المحدّثين من يرويه : « حفّت » فيهما ، وليس منهم من يرويه : «حُجبت » في النار ؛ وذلك لأنّ لفظ « الحجاب » إنما يُستعمَلُ فيما يرام دخوله وولوجه لمكان النفع فيه ؛ ويقال : حُجِب زيد عن مأدُبة الأمير ، ولا يقال : حُجِب زيد عن الحبْس .

ثم ذكر عليه السّلام أنه لا طاعة إلّا في أمرٍ تكرهه النفس ، ولا معصيةَ إلّا بموافقة أمرٍ تحبّه النفس ؛ وهذا حقّ ، لأنّ الإنسانَ ما لم يكن متردّد الدواعي لا يصحّ التكليف؛ وإنما تتردّد الدواعي إذا أمر بما فيه مشقّة ، أو نُهِيَ عمّا فيه لذّة ومنفعة .

فإن قلت : أليس قد أُمِر الإنسان بالنّكاح وهو لذة ؟ قلت : ما فيه من ضرر الإنفاق ومعالجة أخلاق النساء يُرْبى على اللّذة الحاصلة فيه[1] مرارا .

ثم قال عليه السلام : « رحم الله امرأ نزع عن شهوته » ، أي أقلع .

وقمع هوَى نفسِه ، أي قهره .

ثم قال : فإنّ هذه النفس أبعدُ شيء منزَعاً ، أي مذهبا ، قال أبو ذؤيب :

والنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إذا رغّبْتَهَا وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ[2]

---

(١) ب : « منه » .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٣ .

ومن الكلام المرويّ عنه عليه السلام ـ ويروى أيضا عن غيره : « أيّها الناس، إنّ هذه النفوس طُلَعَة [١] فإلّا تقدعوها [٢] تنزعْ بكم إلى شرّ غاية » [٣].

وقال الشاعر :

وَمَا النَّفسُ إلّا حيثُ يجعلُها الفَتَى   فإن أُطمِعَتْ تاقَتْ وإلاّ تَسَلَّتِ

ثم قال عليه السلام : « نَفْس المؤمن ظَنُون عنده »؛ الظَّنُون : البئر [٤] التي لا يدرى أفيها ماء أم لا ، فالمؤمن لا يصبح ولا يمسى إلّا وهو على حَذَرٍ من نفسه ، معتقدا فيها التقصير والتضجيع [٥] في الطاعة ، غير قاطع على صلاحها وسلامة عاقبتها .

وزاريا عليها : عائبا ؛ زريْتُ عليه : عبت .

ثم أمرهم بالتأسى بمن كان قبلهم، وهم الذين قوّضُوا من الدنيا خيامَهم، أى نقضوها ، وطووْا أيّام العمر كما يطوى المسافر منازلَ طريقه .

* * *

الأصْـلُ :

وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ ، وَمَا جَالَسَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ؛ زِيَادَةٍ فِي هُدًى ؛ أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ

---

(١) الطلعة : الكثيرة التطلع .

(٢) القدع : المنع والكف .

(٣) المحرر الفائق ١ : ٢٤٦ منسوب إلى الحسن البصري بهذه الرواية : « حدثوا هذه القلوب بذكر الله ؛ فإنها سريعة الدثور ، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة » . وانظر نهاية ابن الأثير ٣ : ٤٧ ، ٢٣٤ .

(٤) في اللسان عن المحكم : « بئر ظنون : قليلة الماء لا يوثق بمائها » .

(٥) التضجيع في الأمر : التقصير فيه .

غِشَّ ؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ ، فَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ ؛ إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ ؛ وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ .

فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ ؛ وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ .

• • •

الشَّرْحُ :

غشّه يغشّه ، بالضم ، غِشًّا ، خلاف نصحه . واللأواء : الشدّة .

وشَفَع له القرآن شَفاعة ، بالفتح ؛ وهو مما [1] يغلط فيه العامة فيكسرونه ، وكذلك مت كذا بكذا ، أتبعته ، مفتوح أيضا .

ومَحَلَ به إلى السلطان ، قال عنه ما يضرّه ؛ كأنّه جعلَ القرآن يَمْحَلُ يوم القيامة عند الله بقوم ؛ أيْ يقول عنهم شرًّا ، ويشفع عند الله لقوم ، أى يُثْنِي عليهم خيرا .

والحارث : المكتسب ، والحرْث : الكسب . وحَرَثَة القرآن : المتاجرون به لله .

واستنصحوه على أنفسكم ، أى إذا أشار عليكم أمر وأشارتْ عليكم أنفسكم بأمر يخالفه ،

(١) ب « والغلط » .

فاقبلُوا مشورة القرآن دون مشورة أنفسكم؛ وكذلك معنى قوله : « واتّهموا عليه آراءكم ، واستغشّوا فيه أهواءكم » .

***

[فصل في القرآن وذكر الآثار التي وردت بفضله]

واعلم أنّ هذا الفصل من أحسن ما ورد في تعظيم القرآن وإجلاله ؛ وقد قال النّاس في هذا الباب فأكثروا .

ومن الكلام المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذِكر القرآن أيضاً ما رواه ابن قتيبة في كتاب "عيون الأخبار" ، عنه عليه السلام أيضاً ، وهو : «مثل المؤمن الّذي يقرأ القرآن كمثل الأترُجّة ؛ ريحها طيّب ، وطعمها طيّب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التّمرة طعمها طيّب ولا ريح لها . ومثل الفاجر الّذي يقرأ القرآن كمثل الرّيحانة . ريحها طيّب، وطعمها مرّ . ومثل الفاجر الّذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مرّ ، وريحُها منتنة » .

وقال الحسن رحمه الله : قرّاء القرآن ثلاثة : رجل اتّخذه بضاعة فنقله من مِصْر إلى مِصْر ؛ يطلب به ما عند الناس ، ورجل حفظ حروفه ، وضيّع حدوده ، واستدرّ به الولاة واستطال به على أهل بلاده ، وقد كثر الله هذا الضّرب من حملة القرآن ـ لا كثّرهم الله ـ ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن ، فوضعه على داء قلبه ، فسهر ليله ، وانهملت عيناه ، وتسربل بالخشوع ، وارتدى بالحزن ؛ فبذلك وأمثاله يُسْقَى الناس الغيث ، ويَنزل النّصْر ، ويُدْفع البلاء . والله لَهذا الضّرب من حملة القرآن أعزّ وأقلّ من الكبريت الأحمر .

وفى الحديث المرفوع : « إنّ من تعظيم جلال الله إكرامَ ذى الشّيبة فى الإسلام ، وإكرام الإمام العادل ، وإكرام حَمَلة القرآن »

وفى الخبر المرفوع أيضا : « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو ؛ فإنى أخاف أن يناله العدوّ » .

وكانت الصّحابة تكرهُ بيعَ المصاحف وتراه عظيما ، وكانوا يكرهون أن يأخُذَ المعلّم على تعليم القرآن أجرا .

وكان ابنُ عبّاس يقول : إذا وقعتُ فى آل حم ؛ وقعتُ فى روضات دمِثات أتأنّق فيهنّ .

وقال ابنُ مسعود : لكلّ شىء ديباجة ، وديباجة القرآن آل حم .

قيل لابن عباس : أيجوز أن يُحلّى المصحف بالذهب والفضة ؟ فقال : حِلْيته فى جوفه .

وقال النبى صلى الله عليه وآله : « أصفر البيوت جوف صفر من كتاب الله » .

وقال الشعبىّ : « إياكم وتفسيرَ القرآن ؛ فإنّ الذى يفسّره إنما يحدّث عن الله » .

الحسن رحمه الله : رحِم الله امرأً عرَض نفسه وعمله على كتاب الله ؛ فإنْ وافق ، حمِد الله وسأله الزيادة ، وإن خالف ، أعتب وراجع من قريب .

حفظ عمر بن الخطاب سورة البقرة ، فنحر وأطعم .

وفدَ غالبُ بن صعصعة على علىّ عليه السلام ومعه ابنه الفرزدق ، فقال له : مَنْ أنت ؟ فقال غالب بن صعصعة المجاشعىّ ، قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال : نعم ، قال : ما فعلت إبلُكَ ؟ قال : أذهبتْها النوائب ، وذَعْذَعَتْها الحقوق . قال : ذاك خير سبلها .

(١) أى فرقتها وبددتها .

ثم قال : يا أبا الأخطل ، مَنْ هذا الغلام معك؟ قال : ابني وهو شاعر ، قال : علّمه القرآن فهو خير له من الشّعر؛ فكان ذلك في نفس الفرزدق؛ حتى قيّد نفسه ، وآلى ألا يحلّ قيْدَه حتى يحفظ القرآن؛ فما حلّه حتى حفظه؛ وذلك قوله :

وما صَبّ رجلي في حديد مجاشع مع القدّ إلا حاجةٌ لي أريدها[1]

قلت : تحت قوله عليه السلام : « يا أبا الأخطل » ، قبل أن يعلم أنّ ذلك الغلام ولده وأنه شاعر ، سرّ غامض؛ ويكاد يكون إخبارا عن غيب؛ فليلمح.

الفُضيل بن عِياض : بلغني أنّ صاحب القرآن إذا وقف على معصية ، خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية وقال : ألهذا حلتني!

قلت : وهذا القول على سبيل المثل والتخويف من مواقعة المعاصي لمن يحفظ القرآن.

أنس : قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يابن أم سليم ، لا تغفل عن قراءة القرآن صباحاً ومساء؛ فإنّ القرآن يحيي القلب الميت ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ».

كان سفيان الثوريّ إذا دخل شهرُ رمضان ترك جميع العبادة ، وأقبلَ على قراءة القرآن من المصحف.

كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : مَثَل كتاب محمد في الكتب مثل سِقَاء فيه لبن ، كلّما مخضته استخرجت منه زُبْدا.

أسلم الخواص : كنتُ أقرأ القرآن؛ فلا أجد له حلاوة ، فقلت لنفسي : يا أسلم ، اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه ، فجاءت حلاوة قليلة ، فقلت : اقرأه كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام ، فازدادت الحلاوة ، فقلت : اقرأه كأنك تسمعه من الله عزّ وجلّ حين تكلم به ، فجاءت الحلاوة كلها.

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٥ ؛ وهو أيضاً في اللسان ٥ : ٢ ؛ ويقال : صب رجلا فلان في القيد ؛ أي قيد.

بعضُ أرباب القلوب : إن الناس يجْمِزون[1] في قراءة القرآن ما خلا المحبّين ؛ فإن لهم خاناتِ إشارات، إذا مرُّوا به نزلوا . يريد آيات من القرآن يقفون عندها فيتفكّرون فيها .

في الحديث المرفوع : « ما مِنْ شفيع ؛ من ملَكٍ ولا نبي ولا غيرها ، أفضــل من القرآن » .

وفي الحديث المرفوع أيضاً : « مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتيَ أفضلَ مما أوتي فقد استصغر عظمةَ الله » .

وجاء في بعض الآثار : إنّ الله تعالى خلَق بعض القرآن قبل أن يخلُقَ آدم ، وقرأه على الملائكة ، فقالوا : طوبى لأمّةٍ ينزل عليها هذا ! وطوبى لأجوافٍ تحمل هذا ! وطوبى لألسنة تنطق بهذا !

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن القلوبَ تصدأ كما يصدأ الحديد » ، قيل : يا رسول الله ، وما جلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن وذكر الموت » .

وعنه عليه السلام . « ما أذن الله لشيء أذَنَه لنبيٍّ حَسَنِ الترنم بالقرآن »[2] .

وعنه عليه السلام : « إن ربكم لأشدُّ أذَناً إلى قارئ القرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنَتِه » .

وعنه عليه السلام : « أنت تقرأ القرآن ما نهاك ؛ فإذا لم ينهك فلست تقرؤه » .

ابن مسعود رحمه الله : ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ النّاس مفطرُون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون ، وبخشوعه إذ الناس يختالون . وينبغي لحامل القرآن أن يكون سِكّيتاً زمّيتاً ليّناً[3] ، ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا مارياً ، ولا صيّاحاً ولا حديداً ولا صخّاباً[4] .

---

(١) يجمزون : يسرعون .　(٢) الأذن : الاستماع مع الإعجاب .

(٣) السكيت : الكثير السكوت ، والزميت : الحليم الساكن القليل الكلام .

(٤) الحديد : السريع الغضب .

بعض السلف . إنّ العبد ليفتتح سورة فتصلّي عليه حتى يفرغ منها . وإنّ العبدَ ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، قيل : كيف ذلك ؟ قال : إذا أحلّ حلالها ، وحرّم حرامها ؛ صلّت عليه وإلّا لعنته .

ابن مسعود : أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به،فاتخذوا دراسته عملاً؛إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته مايسقط منه حرفا ، وقد أسقط العمل به .

ابن عباس : لأنْ أقرأ البقرة وآل عمران أرتّلهما وأتدبّرهما أحبُّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه هذرَمة [1] .

ثابت البنانيّ : كابدت فى القرآن عشرين سنة ، وتنعّمت به عشرين سنة.

•••

الأمثال :

ٱلْعَمَلَ ٱلْعَمَلَ ، ثُمَّ ٱلنِّهَايَةَ ٱلنِّهَايَةَ ، وَٱلِاسْتِقَامَةَ ٱلِاسْتِقَامَةَ ، ثُمَّ ٱلصَّبْرَ ٱلصَّبْرَ وَٱلْوَرَعَ ٱلْوَرَعَ !

إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَٱنْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَمًا فَٱهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَٱنْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ ،وَٱخْرُجُوا إِلَى ٱللهِ مِمَّا ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ .

أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْكُمْ .أَلَا وَإِنَّ ٱلْقَدَرَ ٱلسَّابِقَ قَدْ وَقَعَ ، وَٱلْقَضَاءَ ٱلْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ .

وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ ٱللهِ وَحُجَّتِهِ ؛ قَالَ ٱللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ

(١) الهذرمة : السرعة فى القراءة .

الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾؛ وَقَدْ قُلْتُمْ: ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ؛ ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا، فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

* * *

الشَّرْحُ:

النصب على الإغراء؛ وحقيقته فعل مقدّر، أي الزموا العمل، وكرّر الاسم لينوب أحدُ اللفظين عن الفعل المقدّر؛ والأشبه أن يكون اللفظ الأول هو القائم مقام الفعل؛ لأنه في رتبته. أمرهم بلزوم العمل ثم أمرهم بمراعاة العاقبة والخاتمة، وعبّر عنها بالنهاية؛ وهي آخر أحوال المكلّف التي يفارق الدنيا عليها؛ إمّا مؤمنا أو كافرا، أو فاسقا، والفعل المقدّر هاهنا: راعوا وأحسنوا وأصلحوا، ونحو ذلك.

ثم أمرهم بالاستقامة وأنْ يلزموها؛ وهي أداء الفرائض.

ثم أمرهم بالصبر عليها وملازمته، وبملازمة الورَع.

ثم شرع بعد هذا الكلام المجمَل في تفصيله فقال: « إنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم »، وهذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله: « أيها الناس، إنّ لكم معالِمَ فانتهوا إلى معالمكم، وإنّ لكم غايةً فانتهُوا إلى غايتكم »، والمراد بالنهاية والغاية أن يموتَ الإنسان على توبة من فعل القبيح والإخلال بالواجب.

ثم أمرهم بالاهتداء بالعَلَم المنصوب لهم؛ وإنما يعني نفسه عليه السلام.

ثم ذكر أنّ للإسلام غاية، وأمرَهم بالانتهاء إليها؛ وهي أداء الواجبات، واجتناب المقبّحات.

ثم أوضح ذلك بقوله: واخرجوا إلى الله ممّا افترض عليكم من حقّه، وبيّن لكم

من وظائفه » ؛ فكشف بهذا الكلام معنى الغاية التي أجملها أولا . ثم ذكر أنه شاهد لهم ومحاجّ يوم القيامة عنهم ؛ وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[1] .

وحجيج : فعيل بمعنى « فاعل » ، وإنما سمّى نفسه حجيجاً عنهم ؛ وإن لم يكن ذلك الموقف موقف مخاصمة[2] ؛ لأنه إذا شهد لهم ، فكأنه أثبت لهم الحجّة ، فصار محاجًّا عنهم .

قوله عليه السلام : « ألا وإنّ القدَر السابق قد وقع » ، يشير به إلى خلافته .

وهذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويع بعد قتل عثمان ؛ وفي هذا إشارة إلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبره أنّ الأمر سيُفضي إليه منتهى عمره، وعند انقضاء أجله .

ثم أخبرهم أنه سيتكلّم بوعد الله تعالى وبحجّته على عباده في قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ... »[3] الآية ، ومعنى الآية أنّ الله تعالى وعد الذين أقرّوا بالربوبية ولم يقتصروا على الإقرار ، بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزّل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى ، ولفظة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي ، والاستقامة مفضّلة على الإقرار باللسان ، لأنّ الشأن كله في الاستقامة ، ونحوها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾[4]، أي ثمّ ثبتوا على الإقرار ومقتضياته ، والاستقامة هاهنا هي الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية . وقد اختلف فيه قول أمير المؤمنين عليه السلام وأبي بكر ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أدّوا الفرائض ، وقال أبو بكر : استمرّوا على التوحيد .

---

(١) سورة الإسراء ٧١
(٢) د : « محاجة » .
(٣) سورة فصلت ٣٠
(٤) سورة الحجرات ١٥ .

وروى أن أبا بكر تلاها، وقال: ما تقولون فيها؟ فقالوا: لم يذنبوا، فقال: حلتم الأمرَ على أشدّه، فقالوا: قل، قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. ورأيُ أبي بكر في هذا الموضع - إن ثبت عنه - يؤكد مذهب الارجاء، وقول أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد مذهب أصحابنا.

وروى سفيان بن عبد الله الثقفيّ، قال: قلتُ يا رسول الله، أخبِرْني بأمْرٍ أعتصم به، فقال: قُلْ: لا إله إلا الله، ثم استقمْ، فقلت: ما أخوَفُ ما تخافُه عليّ؟ فقال: هذا، وأخذ بلسان نفسه صلى الله عليه وآله.

وتتنزّل عليهم الملائكة، عند الموت، أو في القبر، أو عند النشور.

وألا تخافوا «أن» بمعنى «أي»، أو تكون خفيفة من الثقيلة، وأصله «أنه لا تخافوا» والهاء ضمير الشأن.

وقد فسر أمير المؤمنين الاستقامة المشترطة في الآية، فقال: قد أقررتم بأنّ الله ربكم فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته.

لا تمرقوا منها، مرق السهمُ، إذا خرج من الرمية مروقاً.

ولا تبتدعوا: لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة.

ولا تخالفوا عنها، تقول: خالفت عن الطريق، أي عدلتُ عنها.

قال: فإنّ أهل المروق منقطع بهم، بفتح الطاء. انقُطِع بزيد بضم الهمزة، فهو منقطَعٌ به، إذا لم يجد بلاغاً ووصولاً إلى المقصد.

***

الأصل :

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا ، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً ، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ ، وَاللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْتَزِنَ لِسَانَهُ ؛ وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ ؛ وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ ، وَمَاذَا عَلَيْهِ . وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ .

فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللهَ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ ، فَلْيَفْعَلْ .

• • •

الشَّرْحُ :

تهزيعُ الأخلاق : تغييرها ؛ وأصل الهزْع : الكسر ، أسد مهزِّع : يكسِر الأعناق ويرض العظام ، ولمّا كانَ المتصرّف بخُلقه ، الناقل له من حال قد أعدم صفته الأولى كما يعدم الكاسر صورة المكسور ؛ اشتركا في مسمًّى شامل لهما ؛ فاستعمل التهزيع في الخُلق للتغيير والتبديل مجازاً .

قوله : « واجعلوا اللّسان واحداً » ، نهى عن النّفاق واستعمال الوجهين .

قال : « وليخزُن الرجل لسانه » ، أي ليحبسه ؛ فإنّ اللسان يجمح بصاحبه فيلقيه في الهلكة .

ثم ذكر أنه لا يرى التقوى نافعة إلا مع حبس اللسان ؛ قال : فإنّ لسان المؤمن وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه ؛ وشرّح ذلك وبيّنه .

فإن قلت : المسموع المعروف : « لسان العاقل من وراء قلبه ، وقلبُ الأحمق وراء لسانه » ؛ كيف نقله إلى المؤمن والمنافق ؟

قلت : لأنه قلّ أن يكون المنافق إلا أحمق ، وقلّ أن يكون العاقل إلا مؤمنا فلأ كثريّة ذلك ، استعمل لفظ « المؤمن » ؛ وأراد العاقل ، ولفظ « المنافق » وأراد الأحمق .

ثم روى الخبر المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله وهو مشهور .

ثم أمرهم بالاجتهاد في أن يلقوا الله تعالى وكلٌّ منهم نقيّ الراحة من دماء المسلمين وأموالهم ، سليم اللسان من أعراضهم ؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنما المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده » ، فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم ، وسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم ؛ وانتصاب « تهزيعَ » على التحذير ؛ وحقيقته تقدير فعل ، وصورته : جنّبوا أنفسكم تهزيعَ الأخلاق ؛ و « إياكم » قائم مقام أنفسكم ، والواو عوضٌ عن الفعل المقدّر ، وأكثر ما يجيء بالواو ؛ وقد جاء بغير واو في قول الشاعر :

إيّاكَ إيّاكَ المراء فإنّهُ إلى الشّرِّ دَعّاء وللشَّرِّ جالبُ

وكان يقال : ينبغي للعاقل أن يتمسّك بستّ خصال ، فإنها من المروءة : أن يحفظَ دينه ، ويصونَ عِرضَه ، ويَصِلَ رحمه ، ويحميَ جارَه ، ويرعى حقوقَ إخوانه ، ويخزُنَ عن البَذَاء لسانه[1] .

وفي الخبر المرفوع : « مَنْ كُفِيَ شرَّ قَبْقَبِه وذَبْذَبِه ، ولَقْلَقِه ، دخل الجنة » .

(١) البذاء : السفه والفحش في النطق .

فالقبقب البطن ، والذبذب : الفرج ، والقلق : اللسان .

وقال بعض الحكماء : مَنْ عَلِمَ أنّ لسانه جارحة من جوارحه أقلّ من اعمالها ، واستقبح تحريكها ؛ كما يستقبح تحريك رأسه أو منكبه دائماً .

***

الأصل :

وَاعْلَمُوا عِبَادَ ٱللهِ أَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ ٱلْعَامَ مَا ٱسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ ، وَيُحَرِّمُ ٱلْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ؛ وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ ٱلنَّاسُ لَا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ؛ وَلَكِنِ ٱلْحَلَالُ مَا أَحَلَّ ٱللهُ ، وَٱلْحَرَامُ مَا حَرَّمَ ٱللهُ ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ ٱلْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا ، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَضُرِبَتِ ٱلْأَمْثَالُ لَكُمْ ، وَدُعِيتُمْ إِلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْوَاضِحِ فَلَا يَصَمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ ، وَلَا يَعْمَى عَنْهُ إِلَّا أَعْمَى .

وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ ٱللهُ بِٱلْبَلَاءِ وَٱلتَّجَارِبِ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْعِظَةِ ؛ وَأَتَاهُ ٱلتَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ ؛ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ رَجُلَانِ : مُتَّبِعٌ شِرْعَةً ، وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً ؛ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ ، وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ .

***

الشرح :

يقول : إنّ الأحكام الشرعيّة لا يجوز بعد ثبوت الأدلّة عليها من طريق النصّ أن تُنقَض باجتهاد وقياس ؛ بل كلّ ماورد به النصّ تُتّبع مورد النصّ فيه ، فما استحللته عاماً أوّل ؛ فهو في هذا العام حلال لك ؛ وكذلك القول في التحريم؛ وهذا هو مذهب أكثر أصحابنا ؛ أنّ النصّ مقدّم على القياس ، وقد ذكرناه في كتبنا في أصول الفقه .

وأوّل هاهنا ، لاينصرف ، لأنّه صفة على وزن « أفعل » .

وقال : « إنّ ماأحدث الناسُ لايُحِلّ لكم شيئا مما حُرِّم عليكم » ؛ أى ماأحدثوه من القياس والاجتهاد ؛ وليس هذا بقادح فى القياس ، ولكنه مانعٌ من تقديمه على النصّ ؛ وهكذا يقول أصحابنا .

قوله : « وضرّستموها » بالتشديد أى أحكمتموها تجربةً وممارسة،يقال : قد ضرّسته الحرب ، ورجل مضرَّس .

قوله : « فلا يَعمَى عن ذلك إلّا أعمى » أى لا يَعمَى عنه إلّا من هو حقيق أن يقال عنه : إنه أعمى ، كما تقول : مايجهل هذا الأمر إلّا جاهل ؛ أى بالغ فى الجهل .

ثم قال : « مَنْ لم ينفعه الله بالبلاء » أى بالامتحان والتجربة ، لم تنفعه المواعظ ؛ وجاءه النقص من بين يديه حتى يتخيّل فيما أنكره أنه قد عرفه ، وينكِر ماقد كان عارفا به . وسمّى اعتقاد العرفان وتخيّله « عرفانا » على المجاز .

ثم قسم النّاس إلى رجلين : إما متّبع طريقةً ومنهاجا ، أو مبتدعٌ مالا يعرف؛ وليس بيده حجّة ، فالأوّل المحقّ والثانى المُبطِل .

والشِّرعة : المنهاج . والبرهان : الحجة .

* * *

الأصْـلُ :

فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ ؛ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ ، وَسَبَبُهُ الأَمِينُ ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ ؛ مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ الْمُتَنَاسُونَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : يَابْنَ آدَمَ ، اعْمَلِ الْخَيْرَ ، وَدَعِ الشَّرَّ ؛ فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ .

* * *

الشـرح :

إنما جعله حبل الله ؛ لأنّ الحبل ينجو من تعلّق به من هوّة ، والقرآن ينجو من الضلال مَنْ يعلّق به .

وجعله متينا ، أى قويًّا ، لأنه لا انقطاع له أبدا ، وهذه غاية المتانة والقوّة .

ومَتُن الشىء ، بالضم ، أى صلُب وقوِىَ . وسببه الأمين ، مثل حَبْله المتين ؛ وإنّما خالف بين اللفظين على قاعدة الخطابة .

وفيه ربيع القلب ؛ لأنّ القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برَعْى الربيع .

وينابيع العلم ؛ لأنّ العلم منه يتفرّع كما يخرج الماء من الينبوع ويتفرّع إلى الجداول . والجلاء ، بالكسر : مصدر جلوْتُ السيف ؛ يقول : لا جِلَاء لصدأ القلوب من الشُّبُهات والمغفلات إلا القرآن .

ثم قال : إنّ المتذكِّرين قد ذهبوا وماتوا ، وبَقِىَ النّاسون الّذين لا علومَ لهم ، أو المتناسون الذين عندهم العلوم ، ويتكلفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم وروى : « والمتناسون » بالواو .

ثم قال : أعينوا على الخير إذا رأيتموه ، بتحسينه عند فاعله ، وبدفع الأمور المانعة عنه ، وبتسهيل أسبابه وتسنية سبله ، وإذا رأيتم الشرّ فاذهبوا عنه ، ولا تقاربوه ولا تقيموا أنفسكم فى مقام الراضى به ، الموافق على فعله . ثم روى لهم الخبر .

والجواد القاصد : السهل السَّيْر ، لا سريع يتعب بشرعته ، ولا بطىء يفوتُ الغرض ببطئه .

* * *

الأصل:

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ.
فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ؛ فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ، فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ، فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً.

الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى، وَلَا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ؛ وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ.

فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ؛ فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ؛ وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ! وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

* * *

الشرح:

قسم عليه السلام الظلم ثلاثة أقسام:

أحدها: ظلمٌ لا يغفر، وهو الشِّرك بالله، أي أن يموت الإنسان مصرًّا على الشِّرك؛ ويجب عند أصحابنا أن يكون أراد الكبائر؛ وإنْ لم يذكرها، لأنَّ حكمها حكم الشِّرك عندهم.

وثانيها : : الكبائر المغفورة ، وهى صغائر الذنوب ؛ هكذا يفسّر أصحابنا كلامه عليه السلام .

وثالثها : ما يتعلق بحقوق البَشر بعضهم على بعض ؛ فإنّ ذلك لا يتركه الله تعالى ، بل لا بدّ من عقاب فاعله ؛ وإنما أفردَ هذا القِسم مع دخوله فى القِسم الأول لتميُّزه بكونه متعلقًا بحقوق بنى آدم بعضِهم على بعض ؛ وليس الأوّل كذلك .

فإن قلت : لفظه عليه السلام مطابقٌ للآية ؛ وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [1] والآية ولفظه عليه السلام صريحان فى مذهب المرجِئة ؛ لأنكم إذا فسرتم قوله : « لمن يشاء » بأنّ المراد به أرباب التوبة قيل لكم : فالمشركون هكذا حالهم يقبل الله توبتَهم ، ويسقط عقاب شِركهم بها ، فلأىّ معنى خصص المشيئة بالقسم الثانى وهو ما دون الشرك ! وهل هذا إلا تصريح بأنّ الشرك لا يُغفر لمن مات عليه ، وما دونه من المعاصى إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب ، ولا بغيره بل أمرُه إلى الله !

قلت : الأصوب فى هذا الموضع ألّا يحمل قوله : « لمن يشاء » معنيًّا به التائبون ؛ بل نقول : المراد أنّ الله لا يستر فى موقف القيامة مَنْ مات مشركا ، بل يفضحه على رءوس الأشهاد كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [2] .

وأمّا مَنْ مات على كبيرة من أهل الإسلام ، فإنّ الله تعالى يستره فى الموقف ، ولا يفضحه بين الخلائق ؛ وإن كان من أهل النار ؛ ويكون معنى المغفرة فى هذه الآية السّتر وتغطية حال العاصى فى موقف الحشر ؛ وقد يكون من أهل الكبائر ممن يقرّ بالإسلام

(١) سورة النساء ٤٨ .
(٢) سورة هود ١٨ .

لعظيم كبائره جدًّا ، فيفضحه الله تعالى فى الموقف كما يفضح المشرك ؛ فهذا معنى قوله : ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ .

فأمّا الكلامُ المطوّل فى تأويلات هذه الآية فمذكور فى كتبنا الكلاميّة .

واعلم أنه لا تعلّق للمرجئة ولا جدوى عليهم من عموم لفظ الآية ، لأنهم قد وافقونا على أن الفاسق غير مغفور له وليس بمشرك ؛ فإذا أراد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ومن جرى مجرى المشركين ، قيل لهم : ونحن نقول : إن الزانى والقاتل يجريان مجرى المشركين كما أجريتم الفلاسفة مجرى المشركين ، فلا تنكروا علينا مالم تنكروه على أنفسكم .

ثم ذكر عليه السلام أنّ القصاص فى الآخرة شديدٌ ؛ ليس كما يعهده الناس من عقاب الدّنيا الذى هو ضرب السوط ؛ وغايته أنْ يذوق الإنسان طعم الحديد ؛ وهو معنى قوله : « جرحاً بالمُدى » ، جمع مُدية وهى السكّين ؛ بل هو شىء آخر عظيم لا يعبّر النطق عن كُنْهه وشدّة نَكاله وألمه .

[فصل فى الآثار الواردة فى شديد عذاب جهنم]

قال الأوزاعىّ فى مواعظه المنصور : « روىَ لى عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم : لو أنّ ثوبا من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأحرق أهلَ الأرض قاطبة ؛ فكيف بمن يتقمصه ! ولو أنّ ذَنوبا من حميم جهنم صبّ على ماء الأرض كلّه لأجنّه حتى لا يستطيع مخلوق شربه ، فكيف بمن يتجرّعه ! ولو أن حلْقةً من سلاسل النار وضِعَتْ على جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، فكيف بمن يُسلَك فيها ، ويُرَدُّ فضلها على عاتقه ! »

وروى أبو هُريرة عن النبى صلى الله عليه وآله : « لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون ، وأخرج إليهم رجلٌ من النار فتنفّس وأصابهم نفَسُه لأحرق المسجد ومَنْ فيه » .

وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبريل : مالي لا أرى ميكائيل ضاحكاً؟ قال : إن ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النار ورآها .

وعنه صلى الله عليه وآله : « لمّا أسري بي سمعت هَدّة⁽¹⁾ » فسألت جبريل عنها، فقال : حَجر أرسله الله من شَفير جهنم ، فهو يهوي منذ سبعين خريفاً حتى بلغ الآن قعره »

وروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾⁽²⁾ . قال : « تتقلّص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السُّفْلَى حتى تضرب سرّته » .

وروى عُبيد بن عمير اللّيثي عنه عليه السلام : « لتزفرنّ جهنم زفرةً لا يبقى ملكٌ ولا نبيٌّ إلاّ خرّ مرتعدةً فرائصُه ؛ حتى إنّ إبراهيم الخليل ليجثو على ركبتيه ، فيقول : يارب إني لا أسألك إلاّ نفسي » .

أبو سعيد الخدري مرفوعاً : « لو ضربت جبال الدنيا بمقمع⁽³⁾ من تلك المقامع الحديد لصارت غُباراً » .

الحسن البصري : قال : الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الربّ ، ولكن إذا أصابهم اللهب أرسبتهم في النار — ثم خرّ الحسن صَعِقاً ، وقال — ودموعه تتحادر : يابن آدم ، نفسَك نفسَك ! فإنّما هي نفس واحدة إن نجت نجوتَ ، وإن هلكتْ لم ينفعك مَنْ نجا .

طاوس : أيها الناس ، إنّ النار لمّا خلقت طارت أفئدة الملائكة ، فلمّا خلقتم سكتت .

---

(1) الهدة : صوت وقع الحائط أو الصخر أو نحوها .
(2) سورة المؤمنين ٤ . ١ .
(3) المقمع و المقمعة : العمود من الحديد ؛ أو خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذل ويهان .

مطرّف بن الشِّخّير : إنكم لتذكرون الجنّة ، وإنّ ذكر النّار قد حال بينى و بين أن أسأل الله الجنة .

منصور بن عمّار : يامن البعوضة تقلقه ، والبقّة تسهره ، أمثلك يقوى على وَهَج السّعير ، أو تطيق صفحةُ خدّه لَفْحَ سَمومها ، ورقة أحشائه خشونة ضَريعها[1] ، ورطوبة كبده تجرُّع غسّاقها[2] !

قيل لعطاء السُّلمى : أيسرّك أن يقال لك : قَعْ فى جهنم فتحرق فتذهب فلا تبعث أبدا لا إليها ولا إلى غيرها ؟ فقال : والله الذى لا إله إلاّ هو ، لو سمعت أن يقال لى ؛ لظننت أنّى أموت فرحا قبل أن يقال لى ذلك .

الحسن : والله ما يقدر العباد قَدْر حرّها ؛ روينا : لو أنّ رجلا كان بالمشرق ، وجهنم بالمغرب ، ثم كشف عن غطاء واحد منها [مكتّ جمجمته] ؛ ولو أنّ دلوا من صديدها صبّ فى الأرض ما بقىَ على وجهها شىء فيه روح إلاّ مات .

كان الأحنف يصلى صلاةَ الليل ، ويضع المصباح قريبا منه ، فيضع إصبعه عليه ، ويقول : يا حُنَيف ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ حتى يُصبح .

• • •

[فصل فى العزلة والاجتماع وما قيل فيهما]

ثم نهاهم عليه السلام عن التفرّق فى دين الله ؛ وهو الاختلاف والفرقة ؛ ثم أمرهم باجتماع الكلمة ، وقال : إنّ الجماعة فى الحقّ المكروه إليكم ، خير لكم من الفرقة فى الباطل المحبوب عندكم ؛ فإنّ الله لم يعطِ أحداً خيراً بالفرقة ؛ لا ممّن مضى ، ولا ممّن بَقِىَ .

---

(١) الضريع : نبات يسمى رطبه سبرقا ، ويابسه ضريعا ؛ لا تقربه دابة لخبثه .
(٢) الغساق : ما يقطر من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه

وقد تقدم ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في الأمر بلزوم الجماعة ، والنهي عن الاختلاف والفرقة .

ثم أمر عليه السلام بالعزلة ، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة ، ومجانبة الناس ومتاركتهم واشتغال الإنسان بعيب نفسه عن عيوبهم .

وقد ورد في العزلة أخبار آثار كثيرة ؛ واختلف الناس قديماً وحديثاً فيها ، ففضّلها قوم على المخالطة ، وفضّل قوم المخالطة عليها .

فممّن فضّل العزلة سفيان الثوريّ ، وإبرهيم بن أدهم ، وداود الطائيّ ، والفُضيل ابن عياض ، وسليمان الخوّاص ، ويوسف بن أسباط ، وبشر الحافي ، وحُذيفة المرعشيّ ؛ وجمع كثير من الصوفية ، وهو مذهبُ أكثر العارفين ، وقول المتألّهين من الفلاسفة .

وممن فضّل المخالطة على العزلة ابن المسيّب ، والشعبيّ ، وابن أبي ليلى ، وهشام ابن عروة ، وابن شبرُمة ، والقاضي شُريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عُيَينة ، وابن المبارك .

فأمّا كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقتضي عند إمعان النظر فيه أنّ العزلة خيرٌ لقوم ، وأن المخالطةَ خيرٌ لقوم آخرين على حسب أحوال الناس واختلافهم .

وقد احتج أرباب المخالطة بقول الله تعالى : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (١) ، وبقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ (٢) ، وهذا ضعيف ، لأنّ المراد بالآية تفرّق الآراء واختلاف المذاهب في أصول الدين ، والمراد

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٥ .

بتأليف القلوب ، وبالأخوّة عدم الإحن والأحقاد بينهم ، بعد استعار نارها فى الجاهلية ؛ وهذا أمر خارج عن حديث العزلة .

واحتجُّوا بقول النبى صلى الله عليه وآله : « المؤمن إلْفٌ[1] مألوف ؛ ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلَف » ؛ وهذا أيضاً ضعيف ، لأنّ المراد منه ذمّ سوء الخلُق والأمر بالرفق والبِشْر ؛ فلا يدخل تحته الإنسان الحسَن الخلق الذى لو خولط لألِف وأُلِف ؛ وإنما يمنعه من المخالطة طلبُ السّلامة من الناس .

واحتجُّوا بقوله : « مَنْ شقّ عصا المسلمين فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام عن عنقه » ؛ وهــذا ضعيف أيضاً لأنه مختصّ بالبغاة والمارقين عن طاعة الإمام ، فلا يتناول أهلَ العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة ؛ إلاّ أنهم لا يخالطون الناس .

واحتجُّوا بنهيه صلى الله عليه وآله عن هجر الإنسان أخاه فوق ثلاث ؛ وهذا ضعيف لأن المراد منه النهى عن الغضب ، والتقاطع ، وقطع الكلام والسلام لثوران الغيظ ؛ فهذا أمر خارج عن الباب الذى نحن فيه .

واحتجُّوا بأنّ رجلا أتى جَبَلاً يتعبد فيه ؛ فجاء أهله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنهاه ، وقال له : « إنّ صَبْر المسلم فى بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خيرٌ له من عبادة أربعين سنة » .

وهذا ضعيف ، لأنه إنما كان ذلك فى ابتداء الإسلام والحثّ على جهاد المشركين .

واحتجُّوا بما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : «الشَّيطان ذئب ؛ والنّاس كالغنم يأخذ القاصية والشاذّة ، إياكم والشِّعاب وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد» . وهذا ضعيف ؛ لأنّ المراد به من اعتزل الجماعة وخالفها .

* * *

---

(١) الإلف : العشير المؤانس .

واحتجّ من رجح العزلة وآثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة فى ذلك ؛ نحو قول عمر : خذوا بحظكم من العُزلة .

وقول ابن سيرين : العزلة عبادة .

وقول الفُضيل : كفى بالله محبوباً ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً ؛ اتخذ الله صاحباً ، ودع الناس جانباً .

وقال ابن الربيع الزاهد لداود الطائىّ : عِظْنى ، فقال : صُمْ عن الدنيا واجعل فِطْرَك للآخرة ، وفرّ من الناس فرارك من الأسد .

وقال الحسن : كلمات أحفظهنّ من التوراة : قَنِع ابن آدم فاستغنى ، واعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حرًّا ، ترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلا فتمتع طويلا .

وقال وهب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ؛ تسعة منها الصمْت ، والعاشر فى العُزلة عن الناس .

وقال يوسف بن مسلم لعلى بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ! وكان قد لزم البيت ـ فقال : كنت وأنا شابٌّ أصبرُ على أشدّ من هذا ، كنت أجالس الناس ولا أكلّمهم .

وقال الثورىّ : هذا وقت السكوت وملازمة البيوت .

وقال بعضهم : كنت فى سفينة ، ومعنا شابٌّ عَلَوِىّ ؛ فمكث معنا سبعاً لا نسمع له كلاما ، فقلنا له : قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ، ولا نراك تخالطنا ولا تكلّمنا ! فأنشد :

قليلُ الهمِّ لا ولد يموتُ ... وليس بخائف أمراً يفوتُ
قضى وطَرَ الصِّبا وأفاد علْماً ... فغايتُه التفرّد والسكوتُ

وأكبر همّه مما عليه تناجز من ترى خلقٌ وقوتُ

قال النَّخَعي لصاحب له : تعلّمْ ثم اعتزل .

وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم ، ثم ترك واحداً واحداً من ذلك ؛ إلى أن ترك الجميع . وقال : ليس يتهيأ للإنسان أن يخبر بكل عذر له .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرّغت لنا ! فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلّا عند الله تعالى .

وقال الفُضيل بن عياض : إنى لأجد للرّجل عندى يداً ؛ إذا لقينى ألّا يسلّم علىّ ، وإذا مرضت ألّا يعودنى .

وقال الدارانىّ : بينا ابن خُثَيم جالسٌ على باب داره ؛ إذ جاء حجَر فصكّ وجهه ؛ فسجد ، وجعل يمسح الدم ، ويقول : لقد وُعظت ياربيع ! ثم قام فدخل الدّار ؛ فما جلس بعد ذلك على بابه حتى مات .

وكان سعدبن أبى وقّاص وسعيد بن زيد قد لزما بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لا لحاجة لهما ولا لغيرهما ؛ حتى ماتا بالعقيق .

قال بشر : أقلِلْ من معرفة الناس؛ فإنّك لاتدرى ماتكون يوم القيامة ! فإنْ تكن فضيحة كان مَنْ يعرفك أقلّ .

وأحضر بعضُ الأمراء حاتماً الأصمّ فكلّمه ، ثم قال له : ألكَ حاجة ؟ قال : نعم ، ألّا ترانى ولا أراك !

وقيل للفُضَيل : إنّ ابنَك يقول : لوددتُ أنى فى مكان أرَى الناس ولا يرونَنى ! فبكى الفُضَيل ، وقال : ياويْح علىّ[1] ، ألّا أتمّها فقال : ولا أراهم !

---

[1] على هو ابن الفضيل .

ومن كلام الفُضَيل أيضاً : من سخافة عَقْل الرجل كثرة معارفه .

وقد جاء فى الأحاديث المرفوعة ذِكْر العُزْلة وفضلها ، نحو قوله عليه السلام لعبد الله ابن عامر الجُهنى ، لمّا سأله عن طريق النجاة ، فقال له : « ليَسَعك بيتُك ، أمسِكْ عليك دينَك ، وابكِ على خطيئتك » .

وقيل له صلى الله عليه وآله : أىُّ الناس أفضل ؟ فقال : « رجل معتزل فى شِعْب من الشِّعاب ؛ يعبد ربّه ، ويدع الناس من شرّه » .

وقال عليه السلام : « إنّ الله يحب التَّقِىّ النَّقِىّ الخفِىّ » .

* * *

[ذِكْر فوائد العزلة]

وفى العزلة فوائد : منها الفراغ للعبادة ، والذِّكْر والاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخلْق ، فيتفرّغ لاستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدّنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض ؛ لأنّ ذلك لا يمكن إلّا بفراغ ، ولا فراغ مع المخالطة ؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله فى ابتداء أمره يتبتّل فى جبل حِراء ، ويعتزل فيه ، حتى أتته النبوّة .

وقيل لبعض الحكماء : ما الذى أرادوا بالخلْوة والعُزْلة ؟ فقال : دوام الفِكْر وثبات العلوم فى قلوبهم ، ليحيَوْا حياة طيّبة ، ويموتوا موتا طيّبا .

وقيل لبعضهم : ما أصبرك على الوَحْدة ؟ فقال : لست وحدى ، أنا جليس ربى ، إذا شئت أن يناجينى قرأت كتابه ، وإذا شئتُ أن أناجيَه صلّيت .

وقال سُفيان بن عيينة : لقيت إبراهيمَ بن أدهم فى بلاد الشام ، فقلت له : ياإبراهيم ،

تركتَ خراسان! فقال: ما تهنّأت بالعيش إلا هاهنا؛ أفرّ بديني من شاهق إلى شاهق؛ فمن رآني قال: موسوس أو حمّال.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد، هاهنا رجل لم نره قطّ جالسا إلا وحده خلف سارية، فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني، فنظروا إليه ذاتَ يوم، فقالوا للحسن — وأشاروا إليه — فمضى نحوه، وقال له: يا عبد الله، لقد حُبّبت إليك العزلة، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: أمرٌ شغلني عنهم، قال: فما يمنعك أن تأتيَ هذا الرّجل الذي يقال له الحسن، فتجلس إليه؟ قال: أمرٌ شغلني عن الناس وعن الحسن، قال: وما ذلك الشّغل يرحمك الله؟ قال: إني أمسي وأصبح بين نعمة وذنب، فأشغل نفسي بشكر الله على نِعَمِه، والاستغفار من الذنب؛ فقال الحسن: أنت أفقه عندي يا عبد الله من الحسن، فالزمْ ما أنت عليه.

وجاء هرِم بن حيّان إلى أُوَيْس، فقال له: ما حاجتُك؟ قال: جئت لآنس بك، قال: ما كنتُ أعرف أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره!

وقال الفُضَيل: إذا رأيتُ الليل مقبلا فرحتُ به، وقلت: أخلُو بربّي، وإذا رأيت الصبح أدركني، استرجعت كراهيةً لقاء الناس، وأن يجيء إليّ من يشغلني عن ربّي.

وقال مالك بن دينار: من لم يأنسْ بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد قلّ علمُه، وعمِيَ قلبُه، وضاع عمره.

وقال بعض الصالحين: بينا أنا أسيرُ في بعض بلاد الشام، إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال، فلما نظر إليّ تنحّى إلى أصل شجرة، وتستّر بها؛ فقلت: سبحان الله! أتبخل عليّ بالنظر إليك؟ فقال: ياهذا، إني أقمتُ في هذا الجبل دهراً طويلا، أعالج قلبي في الصبْر عن الدنيا وأهلها، فطال في ذلك تعبي، وفني عمري، ثم سألت الله تعالى

ألا يجعل حظّي من أيامي في مجاهدة قلبي فقط، فسكّنه الله من الاضطراب، وآلفه الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك وتريدني خفت أن أقع في الأمر الأول فأعود إلى إلف المخلوقين، فإليك عني فإني أعوذ من شرك رب العارفين وحبيب التائبين. ثم صاح: واغمّاه من طول المُكْث في الدنيا! ثم حوّل وجهه عني، ثم نفض يده، وقال: إليك عني يادنيا، لغيري فتزيّني، وأهلك فغرّي! ثم قال: سبحان مَنْ أذاق العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان، والحور الحسان؛ فإني في الخلوة آنس بذكر الله، وأستلذ بالانقطاع إلى الله، ثم أنشد:

وإني لأستغشي وما بي نعسة ... لعلّ خيالاً منك يلقى خياليا[1]

وأخرج من بين البيوت لعلّني ... أحدّث عنك النفس في السرّ خاليا

وقال بعض العلماء: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيتكثر حينئذ بملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة، وكان يقال: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

* * *

ومنها التخلّص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرّض الإنسان لها غالبا بالمخالطة، وهي الغيبة، والرّياء، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسرقة الطبع بعض الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من الغير.

أما الغيبة فإنّ التحرّز منها مع مخالطة الناس صعبٌ شديد لا ينجو من ذلك إلا الصدّيقون؛ فإنّ عادة أكثر الناس التمضمض بأعراض من يعرفونه، والتنقّل بلذّة

---

(١) لمجنون ليلى، من قصيدة في ديوانه ٢٩٤، ٢٩٦.

ذلك ، فهي أنسهم الذي يستريحون إليه في الجلوة والمفاوضة ، فإن خالطتهم ووافقتَ أثمتَ ، وإن سكتَّ كنتَ شريكا ، فالمستمع أحد المغتابينَ ، وإن أنكرتَ تركوا ذلك المغتاب واغتابوك ؛ فازدادوا إثمًا على إثمهم .

فأمّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإن من خالط الناس لا يخلُوا عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكت عصَى الله ، وإن أنكر تعرّض بأنواع من الضّرر ؛ وفي العزلة خلاص عن ذلك ، وفي الأمر بالمعروف إثارة للخصام ، وتحريك لكوامن مافي الصدور .
وقال الشاعر :

وكم سُقْتُ في آثاركمْ من نصيحـــة وقد يستفيـــــدُ الظِّنَّةَ المتنصِّحُ

ومن تجرّد للأمر بالمعروف ندم عليه في الأكثر ، كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمَه وحده ، فيوشك أن يقع عليه ؛ فإذا سقط قال : ياليتني تركتُه مائلا ! نعم لو وجدَ الأعوانَ حتى يحكِمَ ذلك الحائط ويدعمه لاستقام ؛ ولكنك لا تجد القوم أعوانا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فدَع النّاس وانجُ بنفسك .

وأمّا الرِّياء فلاشبهةَ أنّ مَنْ خالط الناس داراهم ، ومَنْ داراهم راءاهم ، ومن راءاهم كان منافقا ؛ وأنت تعلم أنّك إذا خالطت متعاديَيْن ، ولم تلْق كلّ واحدٍ منهما بوجه يوافقه صرت بغيضا إليهما جميعا ، وإن جاملْتهما كنتَ من شرار النّاس ، وصرت ذا وَجْهين ؛ وأقلّ ما يجب في مخالطة الناس إظهارُ الشّوق والمبالغة فيه ، وليس يخلُو ذلك عن كذب ؛ إمّا في الأصل وإمّا في الزيادة بإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال ، فقولك : كيف أنت ؟ وكيف أهلك ؟ وأنت في الباطن فارغ القلب عن همومه ، نفاق محض .

قال السَّريّ السَّقطيّ : لو دخلَ عليّ أخ فسوّيتُ لحيتي بيدي لدخوله ، خشيتُ أن أُكتب في جريدة المنافقين .

كان الفُضَيل جالسا وحده فى المسجد ، فجاء إليه أخ له ، فقال : ماجاء بك ؟ قال : المؤانسة ؛ قال : هى والله بالمواحشة أشبه ؛ هل تريد إلّا أن تتزيّن لى وأتزيّن لك ، وتكذب لى وأكذب لك ! إمّا أن تقوم عنّى، وإمّا أن أقوم عنك .

وقال بعضُ العلماء : ما أحبّ اللهُ عبداً ألّا أحبّ ألّا يشعر به خلقه .

ودخل طاوس على هِشام بن عبد الملك ، فقال : كيف أنت ياهشام ؟ فغضب،وقال: لِمَ لَمْ تخاطبنى بإمْرة المؤمنين ؟ قال : لأنّ جميع الناس ما اتّفقُوا على خلافتك ، فخشيتُ أن أكون كاذبا .

فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحترازَ ، فليخالط الناس ؛ وإلا فليرضَ بإثبات اسمه فى جريدة المنافقين إن خالطهم ؛ ولا نجاة من ذلك إلا بالعزلة .

وأما سرقة الطبع من الغير ؛ فالتجربة تشهد بذلك ، لأنّ مَنْ خالط الأشرار اكتسب من شرِّهم ؛ وكلما طالت صحبةُ الإنسان لأصحاب الكبائر ، هانت الكبائر عنده وفى المثل : « فإنّ القَرينَ بالمقارنَ يقتدى[1] » .

ومنها الخلاص من الفِتَن والحروب بين الملوك والأمراء على الدُّنيا .

روى أبو سعيد الخُدرىّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « يوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ المسلِم غنيمات يتّبع بهــا شِعاف الجبال ، ومواضع القَطْر ، يفرّ بدينه من الفتن » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر الفِتَن فقال : « إذا رأيتَ الناس قد مَرِجت عهودهم[2] ، وخفّت أماناتهم، وكانوا هكذا ــ وشبّك

(١) أصله فى قول الشاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكلُّ قَرِينٍ بالمقارن يَقْتَدِى

(٢) مرجت عهودهم ، أى اختلفت . أملك عليك لسانك ، أى لا تجره إلا بما يكون لك لا عليك . وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٧ ، ١٠٦

بأصابعه ـ فقلت ماتأمرني ؟ فقال : « الزم بيتك ، واملكْ عليك لسانك ، وخذ ماتعرف ، ودَعْ ماتنكر ، وعليك بأمر الخاصة ، ودَعْ عنك أمر العامة » .

وروى ابن مسعود عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « سيأتي عَلَى الناس زمانٌ لا يسلم لذي دين دينهُ إلاّ مَنْ فرّ من قرية إلى قرية ، ومن شاهق إلى شاهق ؛ كالثعلب الروّاغ » قيل : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : « إذا لم تُنَل المعيشة إلّا بمعاصي الله سبحانه ، فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ؛ فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده ، وإن لم يكن فعلى يد قرابته » ، قالوا : كيف ذلك يارسول الله ؟ قال : « يعيّرونه بالفقر وضيق اليد ، فيكلّفونه مالا يطيقه حتى يوردَه ذلك موارد الهلكة » .

وروى ابنُ مسعود أيضاً أنه صلى الله عليه وآله ذكر الفتنة ، فقال : « الهرْج » فقلت : وما الهرْج يارسول الله ؟ قال : « حين لا يأمن المرء جليسه » ، قلت : فبمَ تأمرني يارسول الله ، إن أدركتُ ذلك الزمان ؟ قال : « كُفّ نفسك ويدَك ، وادخل دارك » ، قلت : أرأيتَ إن دُخِل عليّ داري ؟ قال : « ادخل بيتك » ، قلت : إن دُخِل عليّ البيت ، قال : « ادخل مسجدك ، واصنع هكذا ـ وقبض على الكوع ـ وقل : ربِّيَ الله ، حتى تموت » .

* * *

ومنها الخلاصُ من شرّ الناس ، فإنهم يؤذونك تارة بالغيبة ، وتارة بسوء الظن والتهمة وتارة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنميمة والتكذيب مما يرونه منك من الأعمال والأقوال مما لاتبلغ عقولهم كنهه ؛ فيدّخرون ذلك في نفوسهم عدة ؛ لوقت ينتهزون فيه فرصة الشر ، ومن يعتزلهم يستغن عن التحفظ لذلك .

وقال بعض الحكماء لصاحبه : أعلّمك شعرا هو خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم ! وهو :

اخفضِ الصّوتَ إن نطقتَ بليلٍ ... والتفتْ بالنّهار قبل المقالِ
ليس للقول رجعةٌ حين يبدُو ... بقبيحٍ يكون أو بجمالِ

ومَنْ خالط الناس لا ينفكّ من حاسد وطاعن ؛ ومَنْ جرّب ذلك عرف .

ومن الكلام المأثور عن عليّ عليه السلام : « أخبُرْ تَقْلِهِ » قال الشاعر :

مَنْ حَمِدَ النّاسَ وَلَمْ يَبْلُهُمْ ... ثم بلاهم ذمّ مَنْ يحمَدُ
وصار بالوحدة مستأنِساً ... يوحِشه الأقربُ والأبعدُ

وقيل لسعد بن أبي وقاص : ألا تأتى المدينة ؟ قال : ما بقىَ فيها إلا حاسد نعمة ، أو فرِحٌ بنقمة .

وقال ابن السّمّاك : كتب إلينا صاحب لنا : أمّا بعد ؛ فإنّ الناس كانوا دواء يُتداوَى به ، فصاروا داء لا دواء لهم ، ففِرّ منهم فِرارك من الأسد .

وكان بعضُ الأعراب يلازم شجرة ويقول : هذه نديمى ، وهو نديم فيه ثلاث خصال : إن سمِعَ لم ينمّ علىّ ، وإن تفلتُ فى وجهه احتمل ، وإن عربدتُ عليه لم يغضب ؛ فسمع الرشيد هذا الخبر ، فقال : قد زهّدنى سماعه فى الندماء .

وكان بعضُهم يلازم المقابر والمقابر ، فقيل له فى ذلك ، قال : لم أرَ أسْلَمَ من الوحدة ولا أوْعظ من قبر ، ولا أمتع من دِفْتر .

وقال الحسن مرّة ، إنى أريد الحجّ ، فجاء إلىّ ثابت البُنانىّ ، وقال : بلغنى أنك تريد الحجّ ، فأحببت أن نصطحب ، فقال الحسن : دعْنا نتعاشر بستر الله ؛ إنى أخاف أن نصطحب فيرى بعضُنا من بعض ما نتماقتُ عليه .

وقال بعض الصالحين : كان النّاس ورَقاً لا شوكَ فيه ؛ فالنّاس اليوم شوكٌ لا ورَق فيه .

وقال سُفْيان بن عُيَينة : قال لى سفيان الثورىّ : فى اليقظة فى حياته ، وفى المنام بعد

وقالوا : أقلل معرفة الناس ؛ فإنّ التخلّص منهم شديد . ولا أحسبني رأيتُ ما أكره إلا ممن عرفت .

وقال بعضهم : جئتُ إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده وعنده كلب رابض قريبا منه ، فذهبت أطرده فقال : دعْه فإنه لا يضرّ ولا يؤذي ، وهو خير من الجليس السوء .

وقال أبو الدرداء : اتّقوا الله واحذروا الناس ، فإنهم ماركبوا ظهر بعير إلاّ أدبروه ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا أخربوه .

وقال بعضهم : أقلِل المعارف ؛ فإنه أسلم لدينك وقلبك وأخفّ لظهرك ، وأدعى إلى سقوط الحقوق عنك ؛ لأنه كلّما كثرت المعارف كثرت الحقوق ، وعسر القيام بالجميع .

وقال بعضهم : إذا أردتَ النجاة فأنكرْ من تعرف ، ولاتتعرّفْ إلى من لاتعرف .

* * *

ومنها ؛ إنّ في العُزلة غطاء السّتر على المروءة والخلق والفقر وسائر العورات ؛ وقد مدح الله تعالى المتسترين فقال : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾[1] .

وقال الشاعر :

وَلَا عارَ أنْ زالتْ عن الحرّ نعمةٌ ولكنّ عاراً أن يزولَ التجمّلُ

وليس يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأفعاله عن عَوْرات يُتَّقَيْنَ ويجب سترها ؛ ولا تبقى السلامة مع انكشافها ؛ ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بترك المخالطة .

* * *

ومنها أن ينقطع طمعُ الناس عنك ، وينقطع طمعك عن الناس ؛ أما انقطاع طمع الناس عنك ففيه نفع عظيم ؛ فإنّ رضا الخلق غاية لا تُدرك ؛ لأن أهونَ حقوق الناس

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

وأيسرها حضورُ الجنازة ، وعيادة المريض ، وحضور الولائم ؛ والإملاكات[1] ؛ وفى ذلك تضييع الأوقات ، والتعرّض للآفات ؛ ثم يعوق عن بعضها العوائق ، وتستثقل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار ، فيقول لك قائل : إنّك قمت بحق فلان ، وقصّرت فى حقّى ، ويصير ذلك سبب عداوة ، فقد قيل : إنّ مَنْ لَمْ يَعُدْ مريضا فى وقت العيادة ، يشتهى موتَه خيفة من تخجيله إياه إذا برئ من تقصيره ؛ فأما مَنْ يعم الناس كلهم بالحرمان فإنهم يرضون كلُّهم عنه ، ومتى خصّص وقع الاستيحاش والعتاب ، وتعميمهم بالقيام بجميع الحقوق ؛ مما لا قدرة عليه للمتجرّد ليله ونهاره ، فكيف مَنْ له مهمّ يشغلُه دينىّ أو دنيوىّ !

ومن كلام بعضهم : كثرة الأصدقاء زيادة الغرماء[2] .

وقال الشاعر :

عَدُوّكَ مِنْ صديقِكَ مُستفادٌ فلا تستكثرنّ من الصِّحابِ
فإنّ الدّاء أكثرَ ما تراه يكونُ من الطعام أو الشرابِ

وأما انقطاع طمعك عنهم ؛ ففيه أيضاً فائدة جزيلة ؛ فإنّ مَنْ نظر إلى زهرة الدّنيا وزخرفها ، تحرّك حرصُه ، وانبعث بقوة الحرص طمعه ؛ وأكثر الأطماع يعقبها الخيبة ؛ فيتأذّى الإنسان بذلك ؛ وإذا اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشتهِ ولم يطمع ؛ ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[3] .

وقال عليه السلام : « انظروا إلى مَنْ دونكم ، ولا تنظرُوا إلى مَنْ هو فوقكمْ ؛ فإنه أجدَرُ ألا تزدرُوا نعمة الله عليكمْ » .

---

(١) الإملاكات : مجامع التزويج . (٢) ب : « كثرة » ، وما أثبته من ا ، د .
(٣) سورة الحجر ٨٨ .

وقال عَوْن بن عبد الله : كنتُ أجالس الأغنياء ؛ فلا أزال مغموماً أرى ثوباً أحسن من ثوبى ، ودابّةً أفْرَهَ من دابّتى ، فجالست الفقراء فاسترحت .

وخرج المُزَنىّ صاحب الشافعىّ من باب جامع الفُسطاط بمصر ، وكان فقيراً مقلًّا ، فصادف ابنَ عبد الحكم قد أقبل فى موكبه ، فبهره ما رأى من حاله ، وحسن هيآته ، فتلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [1] ثم قال : نعم أصبر وأرضى .

فالمعتزل عن النّاس فى بيته لا يبتلَى بمثل هذه الفتن ؛ فإنّ مَنْ شاهدَ زينة الدنيا ، إمّا أن يقوى دينه ويقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرّع مرارة الصَّبْر ؛ وهو أمرّ من الصَّبِر ، أو تنبعث رغبته فيحتال فى طلب الدنيا فيهلك دنيا وآخرة ، أما فى الدنيا فبالطمع الذى فى أكثر الأوقات يتضمّن الذّلّ المعجل ، وأمّا فى الآخرة فلإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله ، والتقرّب إليه ؛ ولذلك قال الشاعر :

إِذَا كَانَ بَابُ الذّلّ مِنْ جانبِ الغنَى [illegible] سموتُ إلى العَلياء من جانب الفقْر

أشار إلى أنّ الطمع يوجب فى الحال ذلًّا .

• • •

ومنها الخلاص من مشاهدة الثّقلاء والحمق ومقاساة أخلاقهم ؛ فإنّ رؤية الثقيل هى العمى الأصغر ؛ قيل للأعمش : بم عمِشتْ عيناك [2] ؟ قال : بالنّظر إلى الثقلاء .

ودخل على أبى حنيفة رحمه الله ، فقال له : رُوّينا فى الخبر أنّ من سلب كريمتيه عوّضه الله ما هو خير منهما ؛ فما الذى عوضك ؟ قال : كفانى رؤية ثقيل مثلك يمازحه .

وقال الشافعىّ رحمه الله : ما جالستُ ثقيلا إلّا وجدت الجانب الذى يليه من بدَنى كأنّه أثقلُ علىّ من الجانب الآخر .

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دنيويا ؛ إلّا أنها تضربُ فى الدين بنصيب ؛ وذلك لأنّ

(١) سورة الفرقان ٢٠ .
(٢) د : « عيناك » .

مَنْ تأذّى رؤية ثقيل لم يلبث أن يغتابه ويثلبه ؛ وذلك فساد في الدين ، وفي العزلة السلامة عن جميع ذلك .

* * *

واعلم أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام تختلف مناهجه ، فقد رجّح العزلةَ في هذا الفصل على المخالطة ، ونهى عن العزلة في موضع آخر سيأتي ذكره في الفصل الذي أوّله ، « أنّه دخل على العلاء بن زياد الحارثيّ عائدا » ؛ ويجب أنْ يُحمَل ذلك على أنّ من الناس مَن العزلة خير له من المخالطة ، ومنهم مَنْ هو بالضدّ من ذلك ؛ وقد قال الشافعيّ قريباً من ذلك ، قال ليونس بن عبد الأعلى صاحبه : يا يونس ، الانقباض عن الناس مَكسبةٌ للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ؛ فكن بين المنقبض والمنبسط .

فإذا أردْتَ العزلة فينبغي للمعتزِل أن ينويَ بعزلته كفّ شرّه عن الناس أولا ؛ ثم طلبَ السلامة من شرّ الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرّد بكنه الهمّة لعبادة الله تعالى رابعا ، فهذه آداب نيّته . ثم ليكُنْ في خلوته مواظباً على العلم والعمل ، والذّكر والفكر ، ليجتنيَ ثمرة العزلة . ويجب أن يمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ، فيتشوّش وقته ، وأنْ يكفّ نفسه عن السؤال عن أخبارهم وأحوالهم ، وعن الإصغاء إلى أراجيف النّاس وما الناس مشغولون به ؛ فإنّ كلّ ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث على الخاطر والبال وقتَ الصلاة ووقت الحاجة إلى إحضار القلب ؛ فإنّ وقوع الأخبار في السمع كوقوع البَذر في الأرض ، لا بدّ أن ينبت وتتفرّع عروقه وأغصانه ؛ وإحدى مهمّات المعتزل قطع الوساوس الصّارفة عن ذكر الله ؛ ولا ريب أنّ الأخبار ينابيع الوساوس وأصولها .

ويجب أنْ يقنع باليسير من المعيشة ، وإلّا اضطرّه التوسّع إلى النّاس ، واحتاج إلى مخالطتهم .

وليكن صبوراً على مايلقاه من أذى الجيران إذ يسدّ سمعه عن الإصغاء إلى مايقول فيه مَنْ أثنى عليه بالعزلة ، وقدح فيه بترك المخالطة ؛ فإنّ ذلك لابدّ أن يؤثّر فى القلب ، ولو مدّة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لابدّ أن يكون واقفاً عن سيره فى طريق الآخرة ، فإنّ السّير فيها إنّما يكون بالمواظبة على ورد أو ذكر مع حضور قلب ، وإنّما بالتفكر فى جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته ، وإنّما بالتأمل فى دقائق الأعمال ومفسدات القلب وطلب طرق التخلّص منها ، وكلّ ذلك يستدعى الفراغ ؛ ولا ريب أنّ الإصغاء إلى ماذكرناه يشوّش القلب .

ويجب أن يكون للمعتزل أهلٌ صالح أو جليس صالح، لتستريح نفسه إليه ساعةً عن كدّ المواظبة، ففى ذلك عونٌ له على بقيّة الساعات وليس يتمّ للإنسان الصّبر على العزلة إلّا بقطع الطمع عن الدنيا؛ وما النّاس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلّا بقصر الأمل، وألّا يقدّر لنفسه عمراً طويلا ، بل يصبح على أنه لايمسى ، ويمسى على أنه لايصبح، فيسهل عليه صبر يوم، ولا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدّر تراخى أجله ، وليكن كثيرَ الذكر للموت ووحدة القبر ، مهما ضاق قلبه من الوحدة ، وليتحقّق أن مَنْ لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته مايأنس به ، فإنه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت ، وأنّ مَنْ أنس بذكر الله ومعرفته فإنّ الموت لايزيل أنسه ، لأنّ الموت ليس يهدم محلّ الأنس والمعرفة، بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله عليه، قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [1] .

وكلّ من يجرد نفسه فى ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت ، فالمجاهد مَن

(١) سورة آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠ .

جاهد نفسه وهواه ، كما صرّح به عليه السلام ، وقال لأصحابه : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، فالجهاد الأصغر محاربة المشركين ، والجهاد الأكبر جهاد النفس .

وهذا الفصل فى العزلة نقلناه على طوله من كلام أبى حامد الغزالىّ فى إحياء علوم الدين وهذّبنا منه ما اقتضت الحال تهذيبه [1] .

---

(١) كتاب « آداب العزلة » من كتاب « إحياء ٢ : ٢٢١ — ٢٤٤ » وهو الكتاب السادس من ربع العادات .

(١٧٨)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام في معنى الحكمين :

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ على أن اختاروا رَجُلَيْنِ ؛ فَأَخَذْنَا عَلَيْهِما أن يُجَعْجِعا عِنْدَ القُرْآنِ ، وَلَا يُجاوِزاهُ ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُما مَعَهُ ، وَقُلُوبُهُما تَبَعَهُ ، فَتاها عَنْهُ ، وَتَرَكا الحَقَّ وَهُما يُبْصِرانِهِ ، وَكانَ الجَوْرُ هَواهُما ، وَالاعْوِجاجُ دَأْبَهُما ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْناؤُنا عَلَيْهِما في الحُكْمِ بِالعَدْلِ وَالعَمَلِ بِالحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِما ، وَجَوْرَ حُكْمِهِما ، وَالثِّقَةُ في أَيْدِينا لِأَنْفُسِنا ، حِينَ خالَفا سَبِيلَ الحَقِّ ، وَأَتَيا بِما لا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الحُكْمِ .

* * *

الشرح :

الملأ : الجماعة . ويجعجعا : يحبسا نفوسهما وآراءهما عند القرآن ، جعجعت ، أى حبست ، أخذت عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما فى القرآن ولا يتجاوزاه .

فتاها عنه ، أى عدلا ، وتركا الحق على علم منهما به

والدأب : العادة ، و « سوء رأيهما » منصوب ، لأنه مفعول « سبق » ، والفاعل « استثناؤنا »

ثم قال : « والثقة فى أيدينا » ، أى نحن على برهان وثقة من أمرنا ، وليس بضائر لنا ما فعلاه لأنهما خالفا الحق ، وعدلا عن الشرط وعكسا الحكم .

وروى الثورىّ ، عن أبى عبيدة ، قال : أمر بلال بن أبى بُردة وكان قاضياً ، بتفريق بين رجل وامرأته ، فقال الرجل : يا آل أبى موسى ، إنما خلقكم الله للتفريق بين المسلمين !

• • •

[كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر]

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مِصْر ، قد قبضها بالشرط الذى اشترط على معاوية : « أما بعد ، فإنّ سؤّال أهل الحجاز وزوّار أهل العراق كثُروا علىّ ، وليس عندى فضل عن أعطيات الجنود ، فأعنّى بخراج مصر هذه السنة » .

فكتب عمرو إليه :

معاوىَ إنْ تدرِكْكَ نفسٍ شحيحةٌ ... فما مصر إلّا كالهباءةِ فى التُّربِ

وما نلتُها عفواً ولكن شرطتُها ... وقد دارت الحرب العَوَان على قُطْبِ

ولولا دفاعى الأشعرىّ ورهطَه ... لألفيتَها ترغو كراغية السَّقْبِ[1]

ثم كتب فى ظاهر الكتاب — ورأيت أنا هذه الأبيات بخط أبى زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزىّ رحمه الله —

معاوىَ حظّىَ لا تغفلِ ... وعن سَنَن الحقّ لا تعدلِ

أتنسى مخادعتى الأشعرىّ ... وما كان فى دَوْمَةِ الجَنْدَلِ!

ألينُ فيطمع فى غِـرّتى ... وسهمىَ قد خاض فى المقتلِ

فألمظتُه عسلا بارداً ... وأخبأ من تحته حنظلى

وأعليته المنبر المشمخرّ ... كرجع الحسام إلى المفصلِ

(١) الرغاء : صوت الإبل ، والسقب : ولد الناقة .

فأضحى لصاحبــــه خالعاً كخلع النعال من الأرجُلِ
وأثبتهــــا فيك موروثةً ثبوتَ الخواتم في الأنمُلِ
وهبت لغيرىَ وزن الجبالِ وأعطيتَنى زِنَةَ الخردَلِ
وإنّ عليًّا غــــدا خصمنا سيحتجّ بالله والرســــلِ
وما دَمُ عثمان منجٍ لنا فليس عن الحقّ من مَزْحَلِ

فلما بلغ الجوابُ إلى معاوية لم يعاوده فى شىء من أمر مصر بعدها .

* * *

بعث عبد الملك رَوْح بن زنباع وبلال بن أبى بردة بن أبى موسى ، إلى زفر بن الحارث الكلابىّ بكلام ، وحذّرهما من كيده ، وخصّ بالتحذير رَوْحاً . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أباه كان المخدوع يوم دومة الجندل لا أبى ، فلامَ تخوّفنى الخداع والكيد .
فغضب بلال وضحك عبد الملك .

(١٧٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ ، وَلَا نُجُومُ السَّمَاءِ ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ . يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ ؛ شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ ، وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ ، وَالْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى ، وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَى .

* * *

الشرح :

لا يشغله أمر ؛ لأنّ الحيّ الذى تشغله الأشياء، هو الحيّ العالم بالبعض دون البعض، والقادر على البعض دون البعض ؛ فأمّا من لا يعيب عنه شيء أصلاً ، ولا يعجز عن شيء أصلا ، ولا يمنعه من إيجاد مقدوره ـ إذا أراد ـ مانع أصلا ؛ فكيف يشغله شأن !

وكذلك لا يغيّره زمان ؛ لأنّه واجب الوجود ، ولا يحويه مكان ، لأنه ليس بجسم،

ولا يصفه لسان ، لأنّ كُنْهَ ذاته غيرُ معلوم ؛ وإنما المعلوم منه إضافات أو سلوب .

ولا يعزب عنه أمر من الأمور ، أى لا يفوته عِلْم شيء أصلا .

والسوافى : التى تَسْفِى التراب ، أى تَذْرُوهُ .

والصفا ، مقصور : الصخر الأملس ؛ ولا وقف عليها ها هنا ؛ لأنّ المقصور لا يكون فى مقابلة الممدود ، وإنما القرنة المقابلة لهواء هى « الظلماء » ، ويكون « الصفا » فى أدراج الكلام أسْوة بكلمة من الكلمات . والذّرّ : صغار النّمل .

ويعلم مساقط الأوراق ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [1] .

وطَرْف الأحداق : مصدر طرَف البصر يطرُف طَرْفاً ؛ إذا انطبق أحدُ الجفنين على الآخر ؛ ولكونه مصدراً وقع على الجماعة كما وقعَ على الواحد ، فقال عليه السلام : « طَرْف الأحداق » ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [2] .

وغير معدول به : غير مسوًّى بينه وبين أحد .

والدَّخلة ، بكسر الدال : باطن الأمر ، ويجوز الدُّخلة بالضمّ .

والمعتام : المختار . والعيمة بالكسر : خِيارُ المال ؛ اعتام الرجلُ إذا أخذ العيمة .

فإن قلت : لفظة « معتام » و « مختار » تصلح للفاعل والمفعول ، فماذا يفصل بينهما ؟

قلت : ما يقترن باللفظ من الكلام قبله وبعده .

فإن قلت : فهل يختلفان فى التقدير فى صناعة النحو ، وإن اتفقا فى اللفظ ؟

قلت : نعم ؛ فإنّ عين الكلمة ياء مفتوح ما قبلها ؛ فإن أردت الفاعل فهى مكسورة ، وتقديره « مختير » مثل « مخترع » ، وإن كان مفعولا فهى مفتوحة ،

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

(٢) سورة إبراهيم ٤٣ .

وتقديره « مختيَر » مثل « مخترَع » وعلى كلا التقديرين لا بدّ من انقلاب الياء ألفا ، واللفظ ، واحد ولكن يقدّر على الألف كسرة للفاعل وفتحة المفعول ، وكذلك القول في « معتام » و « مضطر » ونحوهما .

وحُكِيَ أنّ بعض المتكلّمين من المجبرة ، قال : أحبّ العبدَ مضطرًا إلى الفعل إذا فعله ، ولا أحب الله تعالى مضطرًا إليه .

قيل : فكيفَ تقول ؟ قال : « مضطِر » بكسر الطاء ، فضحك أهل المجلس منه .

والعقائل : جمع عقيلة ، وهي كريمة كلّ شيء من الناس والإبل وغير ذلك ، ويقال للدرّة عقيلة البحر .

وأشراط الهدى : علاماته ، ومنه أشراط الساعة قال تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (١) .

والغربيب : الأسود الشديد السواد . ويُعنَى به غربيب العمى : تُكشَفُ به ظُلَمُ الضلال وتستنير بهدايته . وقوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٢) ، ليس على أنّ الصفة قد تقدّمت على الموصوف ، بل يجعل السود بدلا من الغرابيب .

فإن قلت : الهاء في « حقائقه » إلى ماذا ترجع ؟

قلت : إلى الباري سبحانه ، وحقائقه حقائق توحيده وعدله ، فالمضاف محذوف ، ومعنى حقائق توحيده الأمور المحقّقة اليقينيّة التي لا تعتريها الشكوك ، ولا تتخالجها الشبهُ ، وهي أدلّة أصحابنا المعتزلة التي استنبطوها بعقولهم بعد أنْ دلّهم إليها ، ونبّههم على طرق استنباطها رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّه إمام المتكلّمين الذي لم يعرف علمَ الكلام من أحد قبله .

* * *

(١) سورة محمد ١٨ .

(٢) سورة فاطر ٢٧ .

الأصل :

أيُّها النَّاسُ ، إنَّ الدُّنيا تَغُرُّ المُؤَمِّلَ لَهَا، والمُخْلِدَ إليها ، ولا تَنفَسُ بِمَنْ نافَسَ فيها، وتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا .

وَايْمُ اللهِ ما كانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إلّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوها ؛ لأنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

وَلَوْ أنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ ، فَزِعُوا إلى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ ؛ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فاسِدٍ .

وَإنِّي لأَخْشَى عَلَيْكُمْ أنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ ، وَقَدْ كانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيها مَيْلَةً ، كُنْتُمْ فِيها عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أمْرُكُمْ إنَّكُمْ لَسُعَداءُ . وَمَا عَلَيَّ إلّا الجُهْدُ ، وَلَوْ أشاءُ أنْ أقُولَ لَقُلْتُ : عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ !

• • •

الشرح :

المخلد : المائل إليها ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾[1] .

ولا تنفس بمن نافس فيها : لا تضنّ به ، أى من نافس فى الدنيا فإنّ الدنيا تُهينه ولا تضنّ به ، كما يضنّ بالعلق النفيس .

ثم قال : « وتغلب مَنْ غلب عليها » ، أىْ مَنْ غلب على الدنيا مقاهرة فسوف تقتله الدنيا وتُهلكه .

ثم أقسم إنه ما كان قوم فى غَضّ نعمة أى فى نعمة غضة ؛ أى طرية ناضرة، فزالت عنهم

(١) سورة الأعراف ١٧٦ .

إلا بذنوب اجترحوها ، أي اكتسبوها، وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ؛ ومن قال: إنّ الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه وتعالى بالحيوانات إلا مستحقاً ، فأمّا مذهب أصحابنا فلا يتخرّج هذا الكلام عليه ، لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لضرب من اللطف مضاف إلى عوض يعوضهم الله تعالى به في الآخرة ، فيجب أن يحمل هذا الكلام لا على عمومه ، بل على الأكثر والأغلب .

ثم قال عليه السلام : لو أنّ الناس عند حلول النّقم بهم وزوال النعم عنهم يلتجئون إلى الله تعالى تائبين من ذنوبهم ؛ لرفع عنهم النقمة ، وأعاد إليهم النعمة

والولَه ، كالتحيّر يحدث عند الخوف أو الوجد . والشارد : الذاهب

قوله : « وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة » ، أي في أمر جاهليّة لغلبة الضلال والجهل على الأكثرين منهم .

* * *

وهذه خطبة خطب بها عليه السلام بعد قتل عثمان في أوّل خلافته عليه السلام ، وقد تقدّم ذكر بعضها ، والأمور التي مالوا فيها عليه : اختيارهم عثمان ، وعدولهم عنه يوم الشّورى .

وقال : « لئن ردّ عليكم أمركم » أي أحوالكم التي كانت أيام رسول الله صلى الله عليه وآله من صلاح القلوب والنيّات إنّكم سعداء .

والجهد بالفتح : الطاقة .

ثم قال : لو أشاء أن أقول لقلت ، أي لو شئت لذكرتُ سبب التقدّم عليّ وتأخري عن غيري ؛ ولكني لا أشاء ذلك ، ولا أستصلح ذكره .

ثم قال : « عفا الله عما سلف » لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾[١]

وهذا الكلام يدلّ على مذهب أصحابنا في أنّ ماجرى من عبد الرحمن[٢] وغيره في يوم الشورى ، وإن كان لم يقع على الوجه الأفضل ، فإنه معفوّ عنه مغفور لفاعله ، لأنه لو كان فسقاً غير مغفور ، لم يقلْ أمير المؤمنين عليه السلام : « عفا الله عمّا سلف » .

(١) سورة المائدة ٩٥ .
(٢) هو عبد الرحمن بن عوف .

(١٨٠)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله ذِعلب اليمانيّ فقال: هل رأيتَ ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى! فقال: وكيف تراه؟ قال:

لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ؛ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ، قَرِيبٌ مِنَ الأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَامِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ؛ مُتَكَلِّمٌ بِلَا رَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ.

لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ.

تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ؛ وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

* * *

الشرح:

الذِّعلب في الأصل: الناقة السريعة، وكذلك الذِّعلبة ثم نقل فسمّي به إنسان، وصار علماً، كما نقلوا «بكراً» عن فتى الإبل إلى بن بكر وائل.

واليماني مخفّف النون، ولا يجوز تشديدها؛ جعلوا الألف عوضاً عن الياء الثانية؛ وكذلك فعلوا في «الشامي» والأصل «يمنيّ وشاميّ».

وقوله عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟»، مقام رفيع جداً لا يصلح أن يقوله غيره عليه السلام.

ثم ذكر ماهيّة هذه الرؤية ، قال : إنّها رؤية البصيرة ، لا رؤية البصر .

ثم شرح ذلك ، فقال : إنّه تعالى قريب من الأشياء ، غير ملابس لها ، لأنه ليس بجسم ، وإنما قُرْبه (١) منها علمُـه بها ، كما قال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ (٢) .

قوله : « بعيد منها غيرُ مباين » ، لأنه أيضاً ليس بجسم فلا يطلق عليه البينونة ، وبُعْدُه منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها ، وذلك كما يصدُق على البعيد بالوضع ، يصدق أفضل الصّدق على البعيد بالذّات الذى لا يصحّ الوضع والأَيْنُ أصلاً عليه .

قوله : « متكلّم بلا رويّة » ، الرؤية : الفكرة يرتئى الإنسان بها ليصدر عنه ألفاظ سديدة دالّة على مقصده ، والبارئ تعالى متكلّم لا بهذا الاعتبار ؛ بل لأنّه إذا أراد تعريف [خلقه (٣)] من جهة الحروف والأصوات ؛ وكان فى ذلك مصلحة ولطف لهم ، خلق الأصوات والحروف فى جسم جمادىّ ، فيسمعها من يسمعها ، ويكون ذلك كلامه ، لأنّ المتكلّم فى اللغة العربية فاعل الكلام لا من حَلّه الكلام . وقد شرحْنا هذا فى كتبنا الكلاميّة .

قوله : « مريدٌ بلا همّة » ؛ أى بلا عَزْم ، فالعزم عبارة عن إرادة متقدّمة للفعل ، تفعل توطيناً للنفس على الفعل ، وتمهيداً للإرادة المقارنة له ؛ وإنّما يصحّ ذلك على الجسم الذى يتردّد فيما ، تدعوه إليه الدواعى ، فأمّا العالم لذاته ، فلا يصحّ ذلك فيه .

قوله : « صانع لا بجارحة » ، أى لا بعضو ؛ لأنّه ليس بجسم .

قوله : « لطيف لا يوصف بالخفاء » ، لأنّ العرب إذا قالوا لشىء : إنّه لطيف ، أرادوا أنّه صغير الحجم ، والبارئ تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين :

(١) د : « قربته » .

(٢) سورة المجادلة ٧ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

أحدهما : أنّه لا يُرى لعدم صحّة رؤية ذاته ؛ فلما شابه اللّطيف من الأجسام في استحالة رؤيته ، أطلق عليه لفظ « اللطيف » إطلاقاً للفظ السّبب على المسبّب .

وثانيهما : أنّه لطيفٌ بعباده ؛ كما قال في الكتاب العزيز ، أي يفعل الألطاف المقرّبة لهم من الطاعة ، المبعّدة لهم من القبيح . أو لطيفٌ بهم بمعنى أنّه يرحمهم ويرفُق بهم .

قوله : « كبير لا يوصَفُ بالجفاء » ، لمّا كان لفظ « كبير » إذا استعمل في الجسم أفاد تباعد أقطاره ، ثم لما وصف البارئ بأنّه كبير أراد أن ينزّهه عما يدلّ لفظ « كبير » عليه ، إذا استعمل في الأجسام ؛ والمراد من وصفه تعالى بأنّه كبير ، عظَمة شأنه وجلالة سلطانه .

قوله : « بصير لا يوصف بالحاسّة » ؛ لأنّه تعالى يدرك إمّا لأنّه حيّ لذاته ، أو أن يكون إدراكه هو علمه ؛ ولا جارحةَ له ولا حاسّة على كلّ واحد من القولين .

قوله : « رحيم لا يوصف بالرّقّة » ؛ لأنّ لفظة الرحمة في صفاته تعالى تطلق مجازاً على[1] إنعامه على عباده ، لأنّ الملك إذا رقّ على رعيّته وعطَف ، أصابهم بإنعامه ومعروفه .

قوله : « تعنو الوجوه » ، أي تخضع ، قال تعالى : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾[2] .

قوله : « وتَجِبُ القلوب » ، أي تخفق ، وأصله من وَجَب الحائط : سقط . ويروى : « تَوْجَل القلوب » أي تخاف ، وَجِل : خاف .

وروى : « صانع لا بجاسّة » ؛ وروى « لا تراه العيون بمشاهدة العيان » عوضاً عن « لا تدركه » .

---

(١) ب ، د : « عن » .

(٢) سورة طه ١١١

(١٨١)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أصحابه :

أَحْمَدُ اللهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ٱبْتِلَائِي بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ.

إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ، وَإِنِ ٱجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ.

لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ!

الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ! فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي ـ وَلَيَأْتِيَنِّي ـ لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

لِلهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَلَيْسَ عَجَبًا أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ ـ وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلَامِ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ ـ إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي، وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ!

إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضًا فَتَرْضَوْنَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ.

قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!

وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةٌ ، وَمُؤَدِّبُهُمْ ٱبْنُ ٱلنَّابِغَةِ !

* * *

الشرح :

قضى وقدّر فى هذا الموضع واحد .

ويروى : « على ما ابتلانى » .

وأهملتُم : خلّيتم وتركتم ، ويروى : « أمهلتم » ، أى أخرتم .

وخرتم : ضعفتم ، والخَوَرُ : الضعف؛ رجل خوّار ، ورمح خوّار ، وأرض خوّارة، والجمع خُور . ويجوز أن يكون « خرتم » أى صحتم ، كما يخور الثّور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ [1] . ويروى : « حُرْتُم » أى عدلتم عن الحرب فرارا .

وأجئتم : ألجأتم ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [2] .

والمشاقة : المقاطعة والمصارمة .

ونكصتم : أحجمتم ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ ، أى رجع محجما ، أى دعيتم إلى كشف القناع مع العدو وجبنتم وهبتموه .

قوله : « لا أبا لغيركم » ، الأفصح « لا أب » ، بحذف الألف ، كما قال الشاعر :

أبى الإسلامُ لا أبَ لِى سواهُ إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم [3]

وأما قولهم : « لا أبا لك » ، بإثباته فدون الأوّل فى الفصاحة ؛ كأنهم قصدوا الإضافة؛ وأقحموا اللام مزيدة مؤكّدة ، كما قالوا : « يا تيمَ تيمَ عدىّ » ، وهو غريب ؛ لأن حُكم

---

(1) سورة طه ٨٨ .
(2) سورة مريم ٢٣ .
(3) لنهار بن توسعة اليشكرى ؛ والبيت من شواهد سيبويه .

« لا » أن تصل فى النّكرة فقط ، وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة ، والإضافة تعرّف؛ فاجتمع فيها حكمان متنافيان، فصار من الشواذّ كالملامح والمذاكير ولدن غدوة[١] .

وقال الشّيخ أبو البقاء رحمه الله : يجوزُ فيها وجهان آخران . أحدهُما أنّه أشبع فتحة الهاء ، فنشأت الألف والاسم باقٍ على تنكيره ، والثانى أن يكون استعمل « أبًا » على لغة من قالها « أبا » فى جميع أحوالها مثل « عصا » ، ومنه :

* إنّ أبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا *[٢]

قوله : « الموت أو القتل لكم » ، دعاء عليهم بأنْ يصيبَهم أحد الأمرين ، كأنه شرعَ داعياً عليهم بانعداء الكلىّ؛ وهو الموت؛ ثم استدرك فقال - « أو القتل » ؛ لأنّه نظير الموت فى المعنى ؛ ولكنّه فى الصورة دونه ؛ ولقد أجيب دعاؤه عليه السلام بالدّعوة الثانية؛ فإنّ شيعته ذَلُّوا بعدُ فى الأيام الأمويّة ؛ حتى كانوا كَقَقْعٍ قَرْقَرٍ[٣] .

ثم أقسم أنّه إذا جاء يومُه لتكونَنّ مفارقته لهم عن قِلًى ؛ وهو البغض، وأدخل حَشْوَةً بين أثناء الكلام ، وهى « ليأتينّ » وهى حشوة لطيفة ؛ لأنّ لفظة « إنْ » أكثر ما تستعمل لما لا يُعلم حصوله ، ولفظة « إذا » لما يُعلم أو يغلب على الظنّ حصوله ، تقول: إذا طلعت الشمس جئت إليك ، ولا تقول : إن طلعت الشمس جئتُ إليك ؛ وتقول : إذا احمرّ البُسْر جئتك ، ولا تقول : إن احمرّ البُسْر جئتك ، فلمّا قال : « لئنْ جاء يومى » ، أتى بلفظة دالّة على أنّ الموضع موضع « إذا » لا موضع « إنْ » ، فقال : « وليأتينّ » .

---

(١) أى أنهما لا يستعملان إلا هكذا ، فلا يستعملون « ملمحة » ، ولا يستعملون « مذكارا » ، كما أن « لدن » اختصت « بغدوة » . وانظر سيبويه ١ : ٣٤٨ .

(٢) تتمته :

* قَدْ بَلَغَا فى المجدِ غايَتَاهَا *

وهو من شواهد النحاة ؛ وانظر ابن عقيل ١ : ٤٦ .

(٣) الققع : ضرب من أردأ الكمأة ، والقرقر : المكان المستوى الأملس ؛ ويشبه به الرجل الذليل؛ فيقال : هو أذل من ققع بقرقر ؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها .

والواو فى قوله : « وأنا لصحبتكم » ، واو الحال ، وكذلك الواو فى قوله : « وبكم غير كثير » ؛ وقوله : « غير كثير » لفظ فصيح ، وقال الشاعر :

لِيَ خَمْسُونَ صَـــــدِيقاً بينَ قاضٍ وأمـــــيرِ
لبسوا الوفْرَ فلمْ أخْـــلَعْ بهمْ ثوبَ الفقـــــيرِ
الـــكَثيرُ هُمْ ولـــكنِّي بهمْ غَـــيْرُ كثيرِ

قوله : « لله أنتم » لله ؛ فى موضع رفع ؛ لأنّه خبر عن المبتدأ الذى هو « أنتم » ، ومثله : لله دَرّ فلان ! ولله بلادُ فُلان ! ولله أبوك ! واللام هاهنا فيها معنى التعجّب ؛ والمراد بقوله : « لله أنتم » لله سعيكم ، أو لله عملكم ، كما قالوا : « لله دَرّك ! » ، أى عملك ، فحذف المضاف ، وأقيم الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه .

فإن قلت : أفجاءت هذه اللّام بمعنى التعجّب فى غير لفظ « لله » ؟

قلت : لا ، كما أنّ تاء القسم لم تأت إلا فى اسم الله تعالى .

قوله عليه السلام : « أما دينٌ يجمعكم ! » ارتفاع « دين » على أنّه فاعل فعل مقدّر له ؛ أى أما يجمعكم دين يجمعكم ! فاللفظ الثّانى مفسر للأوّل كما قدرناه بعد « إذا » فى قوله سبحانه : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ ويجوز أن يكون « حَمِيّة » مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره : أما لكم حميّة ! والحمِيّة : الأنَفة . وشحذتُ النّصل : أحددته .

فإن قلت : كيف قال : إنّ معاوية لم يكن يعطى جنده ، وأنّه هو عليه السّلام كان يعطيهم ؛ والمشهور أنّ معاوية كان يمدّ أصحابه بالأموال والرغائب !

قلت : إنّ معاوية لم يكن يعطى جنده على وجه المُونة والعطاء ؛ وإنّما كان يعطى رؤساء القبائل من اليمن وساكنى الشام الأموالَ الجليلة ؛ يستعبدهم بها ، ويدعو أولئك

الرؤساء أتباعَهُمْ من العرب فيطيعونهم ؛ فمنهم مَنْ يطيعُهم حميّةً ، ومنهم من يطيعهم لأيادٍ وعوارفَ من أولئك الرؤساء عندهم ، ومنهم مَن يطيعهم دِيناً ، زعموا الطّلب بدم عثمان ، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير . وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فإنه كان يقسّم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرّزق ، ولا يرى لشريف على مشروف فضلا ؛ فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكثر ممّن ينصره ويقوم بأمره ، وذلك لأنّ الرؤساء من أصحابه كانوا يجدُون في أنفسهم من ذلك - أعني المساواةَ بينهم وبين الأتباع - فيخذلونه عليه السلام باطناً ، وإن أظهرُوا له النّصر ، وإذا أحسّ أتباعُهم بتخاذلهم وتواكلهم تخاذلوا أيضا وتواكلوا أيضا ، ولم يُجد عليه صلوات الله عليه ما أعطى الأتباع من الرزق ، لأن انتصار الأتباع له وقتالهم دونه لا يتصوّر وقوعه ، والرؤساء متخاذلون ، فكان يذهب ما يرزقهم ضياعا .

فإنْ قلت : فأيّ فرق بين المعونة والعطاء ؟

قلت : المعونة إلى الجند شيء يُجعل لهم من بيت المال برسم ترميم أسلحتهم ، وإصلاح دوابّهم ، ويكون ذلك خارجاً عن العطاء المفروض شهرا فشهرا ، والعطاء المفروض شهرا فشهرا يكون شيئاً له مقدار يصرف في أثمان الأقوات ، ومؤونة العيال ، وقضاء الديون .

والتَّريكة : بيضة النعام تتركها في مَجْثِمها ، يقول : أنتم خلفُ الإسلام وبقيّته كالبيْضة التي تتركها النعامة .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لا يخرج إليكم من أمري رضاً فترْضَونه ، ولا سخط فتجتمِعون عليه » ؟

قلت : معناه أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئا ، سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم ، بل لابدّ لكم من المخالفة والافتراق عنه

ثم ذكر أن أحبّ الأشياء إليه أن يلق الموت ، وهذه الحال التي ذكرها أبو الطيب فقال :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ تَكُنَّ أَمَانِيَا[1]
تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا ، أَوْ عَـــدُوًّا مُدَاجِيَا

قوله : « قد دارستُكم الكتاب » ، أي درسته عليكم ، دارستُ الكُتب وتدارستُها وأدرستُها ، ودرستُها ، بمعنى ، وهي من الألفاظ القرآنية[2] .

وفاتحتُكم الحِجاج ، أي حاكمتكم بالمحاجّة والمجادلة ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾[3] أي احكم ، والفتّاح : الحاكم .

وعرفتكم ما أنكرتم : بصّرتكم ما عَمِيَ عنكم .

وسوّغتكم ما مججتم ، يقال : مججتُ الشراب من فمي ، أي رميت به ، وشيخٌ ماجّ : يمجُّ ريقه ، ولا يستطيع حبسه من كبره ، وأحمق ماجّ : أي يسيل لعابه ، يقول : ما كانت عقولكم وأذهانكم تنفر عنه من الأمور الدينية أوضحتُه لكم حتى عرفتموه واعتقدتموه وانطوتْ قلوبكم عليه .

ولم يجزم عليه السلام بحصول ذلك لهم ، لأنه قال : لو كان الأعمى يلحظ ، والنائم يستيقظ ! أي أني قد فعلت معكم ما يقتضي حصولَ الاعتقادات الحقيقية في أذهانكم لو أزلتم عن قلوبكم ما يمنع من حصولها لكم ، والمانع المشارُ إليه هو الهوى والعصبية والإصرار على اللِّجاج ، ومحبة نصرة عقيدة قد سبقت إلى القلب ، وزرعها التعصّب ،

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٨١ .

(٢) من قوله تعالى في سورة آل عمران ٧٩ : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ .

(٣) سورة الأعراف ٨٩ .

ومشقّة مفارقة الأسلاف الّذين قد انغرس في النفس تعظيمهم ، ومالت القلوب إلى تقليدهم لحسن الظنّ بهم .

ثم قال : « أقربُ بقوم ! » أى ما أقربهم من الجهل ! كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ [1] أى ما أسمعهم وأبصرهم !

فإن قلت : قد كان يجب أن يقول . « وأقربْ بقومٍ قائدهم معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة من الجهل » فلا يحولُ بين النّكرة لموصوفة وصفتها بفاصل غريب ، ولم يقل ذلك ، بل فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيّ منهما !

قلت : قد جاء كثير من ذلك ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [2] فى قول من لم يجعل « مَرَدُوا » صفة أقيمة مقام الموصوف ، لأنه يجعل « مردوا » صفة القوم المحذوفين المقدّرين بعد « الأعراب » وقد حال بين ذلك وبين « مردوا » قوله : « ومن أهل المدينة » .

ونحوه قوله : ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ [3] .

فإن « قيّماً » حال من الكتاب وقد توسط بين الحال وذى الحال « ولم يجعل له عوجا » والحال كالصفة ؛ ولأنهم قد أجازوا : « مررت برجل - أيّها الناس - طويل » ؛ والنداء أجنبيّ ؛ على أنّا لا نسلّم أن قوله : « من الجهل » أجنبي ، لأنّه متعلق بأقربْ ، والأجنبي ما لا تعلّق له بالكلام .

---

(١) سورة الكهف ٢٦ .
(٢) سورة التوبة ١٠١ .
(٣) سورة الكهف ١ ، ٢ .

(١٨٢)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد أرْسَلَ رَجُلاً من أصحابه يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أحوالِ قَوْمٍ مِن جُنْدِ الـكوفةِ قد هَمُّوا باللحاق بالخوارج ، وكانوا على خوفٍ منه عليه السلام ، فلما عاد إليه الرَّجلُ قال له : أأمِنُوا فَقَطَنُوا ، أم جبنوا فَظَعَنُوا ؟ فقال الرجلُ : بل ظعنوا يا أمير المؤمنين .

فقال عليه السلام :

بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ! أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ ؛ لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ .

إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَفَلَّهُمْ ، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ ، وَمُتَخَلٍّ عَنْهُمْ ؛ فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى ، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى ، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ .

الشَّـرْحُ :

قد ذكرنا قصة هؤلاء القوم فيما تقدم عند شرحنا قصة مَصْقَلة بن هبيرة الشَّيبانيّ .

وقَطَن الرجلُ بالمكان ، يقطُن بالضم : أقام به وتوطَّنه ؛ فهو قاطن ؛ والجمع قُطَّان وقاطنة وقطين أيضاً ، مثل غازٍ وغزيّ ، وعازب للكلأ البعيد وعزيب .

وظَعَن صار الرجل ظَعْناً وظَعَناً ؛ وقرئ بهما : ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾[1] ؛ وأظعنه: سيَّره .

وانتصب « بُعْداً » على المصدر .

---

(١) سورة النحل ٨٠ .

وثمود ؛ إذا أردت القبيلة غيرُ مصروف ، وإذا أردت الحيّ أو اسم الأب مصروف ، ويقال : إنّه ثمود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح ، قيل سمّيتْ ثمود لقلّة مائها ، من الثَّمْد وهو الماء القليل ؛ وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القُرى .

وأشرعتُ الرّمح إلى زيد ؛ أى سدّدته نحوه ، وشرع الرّمْح نفسه وصبّت السيوفُ على هاماتهم : استعارة من صببْتُ الماء ، شبّه وقع السيوف وسرعة اعتوارها الرءوس بصبّ الماء .

واستفلّهم الشيطانُ : وجدهم مَفْلولين ، فستزلّهم ؛ هكذا فسروه .

ويمكن عندى أن يريد أنه وجدهم فَلًّا ، لا خير فيهم ، والفلُّ فى الأصل : الأرض لا نبات بها لأنّها لم تمطر ، قال حسّان يصف العُزّى[1] :

وإنّ التى بالجِذْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ ... ومَنْ دانَها فِلٌّ من الخير مَعْزِلُ[2]

أى خالٍ من الخير .

ويروى «استعزّهم» ، أى استخفّهم .

والارتكاس فى الضلال : الرجوع ؛ كأنه جعلهم فى تردّدهم فى طبقات الضلال كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان تخلّص منه .

والجماح فى التّيه : الغلوّ والإفراط ، مستعار من جِماح الفرس ؛ وهو أن يعتزّ صاحبه ويغلبه ، جَمَح فهو جَمُوح .

---

(١) فى الأصل : «العزّى» ، تصحيف ، وفى الصحاح : «العزى» وهى شجرة كانت لغطفان .
(٢) اللسان ١٤ : ٤٧ ، ونسبه إلى عبد الله بن رواحة ، وذكر قبله :

شَهِدْتُ وَلَمْ أَكْذِبْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُولُ الذى فوقَ السماواتِ من عَلُ

(١٨٣)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام :

رُوِىَ عَنْ نَوْفٍ الْبَكَالِيِّ ، قالَ خَطَبَنا بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السَّلام بِالْكُوفَةِ ؛ وَهُوَ قَائِمٌ على حِجارَةٍ نَصَبَهَا لَهُ جَعْدَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْمَخْزُومِيُّ ، وعليه مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ ، وَحَمَائِلُ سَيْفِهِ لِيفٌ ، وفى رِجْلَيْهِ نَعْلانِ من لِيفٍ ؛ وَكَأَنَّ جَبِينَهُ ثَفِنَةُ بَعِيرٍ ، فَقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ :

الحَمْدُ للهِ الَّذِى إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ ، وَعَوَاقِبُ الأَمْرِ ، نَحْمَدُهُ على عَظِيمِ إِحْسانِهِ ، وَنَيِّرِ بُرْهانِهِ ، وَنَوَامِى فَضْلِهِ وَامْتِنانِهِ ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضاءً ، وَلِشُكْرِهِ أَداءً ، وَإِلى ثَوابِهِ مُقَرِّباً ، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً ؛ وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ ؛ وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ رَجاهُ مُوقِناً ، وَأَنابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً ، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً ، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً ، وَلاذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً .

***

الشّـرْحُ :

[نَوْفٌ البَكَالِىّ]

قال الجوهرىّ فى الصّحاح : نَوْف البَكالىّ ، بفتح الباء ، كان حاجبَ علىّ عليه السلام ، ثم قال : وقال ثعلب : هو منسوب إلى بَكالة ، قبيلة[1] .

---

(١) صحاح الجوهرى ٣ : ١٦٣٨ .

وقال القطب الراوندي في شرح "نهج البلاغة": بَكال وبَكيل شيء واحد؛ وهو اسم حيّ من همْدان، وبكيل أكثر، قال الكُمَيت:

* فَقَدْ شَرِكَتْ فيهِ بَكيلٌ وأرْحَبُ[1] *

والصواب غيرُ ماقالاه، وإنّما بنو بِكال، بكسر الباء، حيٌّ من حِمْيَر؛ منهم هذا الشخص؛ هو نَوْف بن فضالة، صاحب عليّ عليه السلام؛ والرواية الصحيحة الكسر، لأنّ نوف بن فضالة بِكاليّ، بالكسر، من حِمْيَر؛ وقد ذكر ابنُ الكلبيّ نسبَ بني بِكال الحِمْيَريّين، فقال: هو بِكال بن دُعْميّ بن غوث بن سعد بن عوف بن عديّ بن مالك بن زيد ابن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن ابن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حِمْيَر.

* * *

[نسبُ جَعْدة بن هُبيرة]

وأمّا جعدة بن هُبيرة، فهو ابنُ أختِ أمير المؤمنين عليه السلام، أمّه أمّ هانئ بنت أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، وأبوه هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب. وكان جَعدة فارساً شجاعاً، فقيها وولِيَ خُراسان لأمير المؤمنين عليه السلام؛ وهو من الصّحابة الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الفتح، مع أمّه أمّ هانئ بنت أبي طالب؛ وهرب أبو هبيرة بن أبي وهب ذلك اليوم هو وعبد الله بن الزِّبَعْرَى إلى نَجران.

---

(١) الصحاح، وصدره:

* يَقُولونَ بُورِثْ ولولا تُراثُهُ *

ورَوى أهلُ الحديث أنّ أمّ هانئ كانتْ يوم الفتح في بيتها ، فدخل عليها هُبيرة ابن أبي وهب بعلُها ، ورجل من بني عمّه هاربَيْن من عليّ عليه السلام ؛ وهو يتبعهما وبيده السَّيف ، فقامت أمّ هانئ في وجهه دونهما ، وقالت : ماتريده منهما؟ ولم تكن رأته من ثماني سنين ، فدفع في صدرها ، فلم تَزُل عن موضعها ، وقالت : أتدخلُ ياعليّ بيتي ، وتهتك حرمتي ، وتقتل بَعْلي ، ولا تستحيي منّي بعد ثماني سنين ! فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهْدَر دمهما ، فلا بدّ أن أقتلهما . فقبضت على يده التي فيها السيف ، فدخلا بيتا ثم خرجا منه إلى غيره ، ففاتاه ، وجاءت أم هانئ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته يغتسل من جَفْنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبها ، فوقفت حتى أخذ ثوبه ، فتوشح به ، ثم صلّى ثماني ركعات من الضُّحى ، ثم انصرف ، فقال : مرحباً وأهلاً بأمّ هانئ ، ! ماجاء بك ؟ فأخبرته خبر بعلها وبني عمّه ، ودخول عليّ عليه السلام بيتها بالسيف . فجاء عليّ عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله يضحك ، فقال له : ماصنعت بأمّ هانئ ؟ فقال : سلْها يارسول الله ماصنعت بي ! والذي بعثك بالحقّ لقد قبضتْ على يدي وفيها السيف ؛ فما استطعتُ أن أخلّصها إلا بعد لأْي ، وفاتني الرجلان . فقال صلى الله عليه وآله : « لو ولدَ أبو طالب النّاسَ كلّهم لكانوا شجعاناً ، قد أجرْنا من أجارتْ أمّ هانئ ، وأمّنا مَنْ آمنت ، فلا سبيلَ لك عليهما » .

فأمّا هبيرة فلم يرجع ؛ وأمّا الرجل الآخر ، فرجع فلم يعرض له .

قالوا : وأقام هُبيرة بن أبي وهب بنجران حتى مات بها كافرا ، وروى له محمد بن إسحاق في كتاب المغازي شعرا أوّله :

أشاقَتْكَ هندٌ أم أتاكَ سُؤالُها كذَاكَ النّوى أسبابها وانفتالها

يذكر فيه أمّ هانئ وإسلامها ، وأنّه مهاجر لها إذ صَبَتْ إلى الإسلام ، ومن جملته :

فإنْ كنتِ قــد نامت دِبن محمّدٍ   وقطّعت الأرحامَ منك حبالُها[1]
فـكونى على أعلى سحوق مهصبـةٍ   مدلّمة غبراء يُجْسُ قلالُهــــا[2]

وقال ابن عبد البر فى كتاب " الاستيعاب[3] " :

ولدت أمّ هانئ لهبيرة بن أبى وهب بنين أربعة : جعدة ، وعمرا ، وهانئا،ويوسف،
قال : وجعدة الذى يقول :

أبى من بنى مخزومَ إنْ كنتَ سائلا   ومن هاشمٍ أمّى ، لَخيرُ قبيــلِ[4]
فمن ذا الّذى يناى علىّ بخــــاله   كخالى علىّ ذى النّدى وعَقِيــلِ !

• • •

المدرعة : الجُبّة ، وتدرّع : لبسها ، وربما قالوا : تمدرع .

وثَفِنة البعير ، واحـدة ثفِناتِه ، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ ويكثف ، كالركبتين وغيرهما ، ويقال : ذو الثفِنات الثلاثة لعلىّ بن الحسين،وعلى بن عبد الله بن العباس عليهم السلامُ ؛ ولعبد الله بن وهبٍ الراسبىّ ، رئيس الخوارج ، لأنّ طول السجود كان قد أثّر فى ثفِناتهم ، قال دِعْبل :

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٨٢ .
(٢) فى الاستيعاب :

• ممنّعةٍ لا يستطاعُ قلالهــــا •

وبعده :

فإنّىَ مِنْ قومٍ إذا جَدّ جَدُّهم   على أىّ حالٍ أصبحَ القومَ حالُها
وإنّى لأحمى مِنْ وَرَاءِ عشيرتى   إذا كثرتْ تحتَ العوالى مجالُها
وطارتْ بأيدِى القومِ بيضٌ كأنّها   مخاريقُ وِلْدانٍ ينوسُ ظِلالُها
وإنّ كلامَ المرءِ فى غيرِ كُنْهِهِ   لنبلٌ تهوى ليسَ فيها نِصالُها

(٣) الاستيعاب ص ٨٧ ـ ٩٢ .
(٤) المصدر السابق .

دِيارُ عَلِيّ والحُسَيْنِ وجَعْفَرٍ   وَحَمْزَةَ والسَّجادِ ذِى الثَّفِنات [١]

ومصائر الأمور : جمع مَصِير ، وهو مصدر « صار » إلى كذا ، ومعناه المرجع، قال تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [٢] فأما المصدر من « صار الشيء كذا » فصير وصَيْرورة، والقياس فى مصدر « صار إليه » أى رجع « مَصارا » ، كمعاش ، وإنما جَمع المصدر هاهنا لأن الخلائق يرجعون إلى الله تعالى فى أحوال مختلفة فى الدّنيا وفى الدار الآخرة ، فجمع المصدر ، وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير ، لاختلاف وجوهه ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [٣] .

وعواقب الأمر : جمع عاقبة ؛ وهى آخر الشيء .

ثم قسّم الحمد ، فجعله على ثلاثة أقسام :

أحدُها: الحمد على عظيم إحسانه وهو أصول نعمه تعالى ؛ كالحياة والقدْرة والشهوة وغيرها مما لا يدخل جنسه تحت مقدور القادر؛

وثانيها : الحمد على نيّر برهانه ، وهو ما نصبه فى العقول من العلوم البديهية المفضية إلى العلوم النظرية بتوحيده وعدله .

وثالثها : الحمد على أرزاقه النّامية ؛ أى الزائدة وما يجرى مجراها من إطالة الأعمار ، وكثرة الأرزاق ، وسائر ضروب الإحسان الداخلة فى هذا القسم .

ثم بالغ فى الحمد حمداً يكون لحقه قضاء، ولشكره أداء، وذلك لأن الحمد والشكر [ولو بلغ]

---

(١) من قصيدته التائية :

مَدَارِسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلَاوَةٍ   وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ

وهى فى معجم الأدباء ١١ : ١٠٣ — ١١٥ .

(٢) سورة آل عمران ٢٨ .

(٣) سورة الأحزاب ١٠ .

أقصى غاياته لم يصل إلى أن يكون قاضياً لحق الله تعالى ، ولا مؤدّياً لشكره ، ولكنّه قال ذلك على سبيل المبالغة .

ثم قال : « وإلى ثوابه مقرّبا ، ولحسن مزيده موجبا » ؛ وذلك لأنّ الشكر يوجب الثواب والمزيد ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ،[1] أى « أثبكم » ، وقال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[2] .

ثم شرع في الاستعانة بالله ففصّلها أحسنَ تفصيل ، فذكر أنه يستعين به استعانة راجٍ لفضله في الآخرة ، مؤمّل لنفعه في الدنيا ، واثق بدفعه المضارّ عنه ؛ وذلك لأنّه أراد أن يحتوىَ على وجوه ما يستعان به تعالى لأجله ، فذكر الأمورَ الإيجابيّة ، وأعقبها بالأمور السلبيّة ، فالأولى جلب المنافع ، والثانية دفع المضارّ .

والطَّول : الإفضال . والإذعان : الانقياد والطاعة .

وأناب إليه : أقبل وتاب . وخنع : خضع ، والمصدر الخنوع . ولاذ به : لجأ إليه .

* * *

الأصـلُ :

لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً.
وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا
مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ
بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ، دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ.
وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَإِذْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ

(١) سورة البقرة ١٥٢
(٢) سورة إبراهيم ٧

وَلَا مُشَكَّنًا لِمَلَائِكَتِهِ ، وَلَا مُصْعَدًا لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

نفى عليه السلام أن يكون البارئ سبحانه مولوداً فيكون له شريك فى العزّ والإلهية ؛ وهو أبوه الذى ولده ، وإنما قال ذلك جرياً على عادة ملوك البشر ؛ فإنّ الأكثر أنّ الملك يكونُ ابنَ ملك قبله ؛ ونفى أن يكون له ولد ، جريا أيضا على عادة البشر ، فى أنّ كلّ والد فى الأكثر ، فإنّه يهلك قبل هلاك الولد ، ويرثه الولد ؛ وهذا النمط من الاحتجاج يسمّى خطابة ؛ وهو نافع فى مواجهة العرب به ، وأراد من الاحتجاج إثبات العقيدة ، فتارةً تثبت فى نفوس العلماء بالبرهان ، وتارة تثبت فى نفوس العوامّ بالخطابة والجدَل .

ثم نفى أنْ يتقدّمه وقت أو زمان ، والوقت هو الزمان ، وإنّما خالف بين اللفظين ، وأتى بحرف العطف ؛ كقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

ونفى أن يتعاوره ، أى تختلف عليه زيادة أو نقصان ؛ يقال : عاورت زيداً الضّرب ؛ أى فعلت به من الضَّرب مثل مافعل بى ؛ واعتوروا الشىء ؛ أى تداولوه فيما بينهم ، وكذلك تعوّروه وتعاوروه ، وإنّما ظهرت الواو فى « اعتوروا » ، لأنّه فى معنى « تعاوروا » فبنى عليه ولو لم يكن فى معناه لاعتلّت ، كما قالوا : « اجتوروا » لمّا كان فى معنى : « تجاوروا » التى لا بدّ من صحة الواو فيها لسكون الألف قبلها . واعتورت الرّياح رسم الدار : اختلفت عليه .

فإن قلت : هذا يقتضى أن يقول : « ولم يتعاوره زيادة ونقصان » ، لأنّ التعاور يستدعى الضدّين معا ، ولا ينبغى أن يقول : « ولا نقصان » ؛ كما لا يجوز أن تقول : لم يختلف زيد ولا عمرو .

قلت : لمّا كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال: « لا يعتوره الزيادة »؛ فكذلك القول في جانب النقصان ؛ وجرى كلّ واحد من النوعين مجرى أشياء متنافية ، تختلف على الموضع الموصوف بها .

قوله عليه السلام : « موطّدات » ؛ أى ممهدات مثبتات .

والعَمَد : جمع عماد ، نحو إهاب وأهَب، وإدام وأدَم ؛ وهو على خلاف القياس؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ [(١)] ، وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [(٢)] . والسَّنَد : ما يستند إليه .

ثم قال : « دعاهنّ فأجبن طائعات » ؛ هذا من باب المجاز والتوسّع ؛ لأنّ الجماد لا يُدعى ؛ وأمّا من قال : إنّ السموات أحياء ناطقة، فإنّه لم يجعلهنّ مكلّفات ليقال: ولولا إقرارهنّ له بالربوبيّة لما فعل كذا ؛ بل يقول ذلك على وجه آخر ؛ ولكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المجاز ، نحو قول الراجز :

أَمْتَلأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي مَهْلاً رُوَيداً قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي [(٣)]

ومنه قوله تعالى : ﴿ أئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [(٤)] .

ومنه قول مكاتَب لبنى مِنْقَر التميميّين ، كان قد ظلع [(٥)] بمكاتبته ، فأتى قبر غالب بن صعصعة ، فاستجار به؛ وأخذ منه حَصَيات فشدّهن في عمامته، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره، وقال : إني قد قلت شعرا ، قال : هاته ، فأنشده .

---

(١) سورة الهمزة ٩ .
(٢) سورة الرعد ٢ .
(٣) اللسان (قطن) من غير نسبة .
(٤) سورة فصلت ١١ .
(٥) يريد أنه ضاق بها .

بقبر ابن ليلى غالب عذتُ بعدما ... خشيت الرَّدى أو أن أردّ على قَسْرِ

بقبر امرئٍ يَقْرِي المئين عظامُه ... ولم يكُ إلّا غالبــا مَيْتٌ يَقْرِى

فقال لى استقدمْ أمامك إِنَّمـا ... فكاكُك أن تلقى الفرزدقَ بالمِصْرِ

فقال : مااسمك ؟ فقال : لهذم ، قال : يالهذم حكمك مسمّطا ، قال : ناقة كَوْماء [١] سوداء الحدقة ، قال : ياجارية اطرحى لنا حبلا ، ثم قال : يالهذم اخرج بنا إلى المِرْبَد فألقه فى عنق ماشئت من إبل الناس . فتخيّر لهذم على عينه ناقة ، ورمى بالحبل فى عنقها، وجاء صاحبها ، فقال له الفرزدق : اغد علىّ أوفّك ثمنها ، فجعل لهذم يقودها ، والفرزدق يسوقها ، حتى أخرجها من البيوت إلى الصحراء ، فصاح به الفرزدق : يالهذم ، قبح الله أخسرنا ! خبّر الشاعر عن القبر ! بقوله : « فقال لى استقدم أمامك » والقبر والميّت الذى فيه لا يخبران ، ولكن العرب وأهل الحكمة من العجم يجعلون كلّ دليل قولاً وجوابا ، ألا ترى إلى قول زهير :

* أمِنْ أمِّ أوفَى دِمْنَةٌ لم تكلَّمِ [٢] *

وإنما كلامها عنده أن تبيّن ما يرى من الآثار فيها عن قدم العهد بأهلها .

ومن كلام بعض الحكماء : هلاّ وقفت على تلك الجنان والحيطان ، فقلت : أيتها الجنان ، أين مَنْ شقّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ! فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتبارا !

وقال [٣] النعمان بن المنذر ومعه عدىّ بن زيد ، فى ظلّ شجرات مونقات يشرب ،

---

(١) الكوماء : الناقة الضخمة

(٢) ديوانه ، وتتمته :

* بحومانة الدَّرّاج فالمتثلَّمِ *

(٣) قال ، من القيلولة

فقال عديّ : أبيت اللعن ! وأراد أن يعظه : أتدرى ماتقول هذه الشجرات ؟ قال : ماتقول ؟ قال :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ[1]

ثم أضحَوْا عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ وَكَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالرِّجالِ

فتنغّص النعمان يومه ذلك[1] .

والمذعن : المنقاد المطيع . والمتلكّىء : المتوقف .

والكلم الطيّب : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً صلّى الله عليه وآله رسوله .

والعمل الصالح : أداء الواجبات والنوافل ؛ والعظات من القرآن[2] العزيز .

والمَصْعَد : موضع الصعود ، ولاشبهة أنّ السماء أشرف من الأرض على رأى الدِّيّين وعلى رأى الحكماء ، أمّا أهل المِلّة ، فلأنّ السماء مصعد الأعمال الصالحة ، ومحلّ الأنوار ، ومكان الملائكة ، وفيها العرش والكرسيّ ، والكواكب المدبّرات أمراً ، وأمّا الحكماء فلأمور أخرى تقتضيها أصولهم .

* * *

الأصلُ :

جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَاماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِى مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَلَا اسْتَطَاعَتْ جَلَابِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَاشَاعَ فِى السَّمَوَاتِ مِنْ تَلَأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ

---

(١) الشعر والخبر فى الأغانى ٢ : ٩٦ (طبعة دار الكتب) .

(٢) من قوله تعالى فى سورة فاطر ١٠ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

غَسَقٍ دَاجٍ ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ ، فِي بِقَاعِ الأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ ؛ وَلَا فِي يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ ، وما يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّماء ، وما تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ ، وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ وَانْهِطَالُ السَّمَاءِ ؛ وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا ، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا ؛ وَمَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا ؛ وَمَا تَحْمِلُ مِنَ الأُنْثَى فِي بَطْنِهَا .

***

الشرح :

أعلاما ، أي يستدل بها . والفجاج : جمع فَجّ ؛ وهو الطريق في الجبل .

ثم قال : إنّ ادلهمام سواد الليل ـ أي شدة ظلمته ـ لم يمنع الكواكب من الإضاءة ؛ وكذلك أيضا لم يمنع ظلام الليل القمر من تلألؤ نوره ؛ وإنّما خصّ القمر بالذكر وإن كان من جملة الكواكب ، لشرفه بما يظهر للأبصار من عظم حجمه ، وشدة إضاءته ، فصار كقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (١) ، وقد روى بعض الرواة «ادلهمام» بالنصب ، وجعله مفعولا ، و«وجوه نورها» بالرفع وجعلها فاعلا ؛ وهذه الرواية أحسن في صناعة الكتابة لمكان الازدواج ؛ أي لا القمر ولا الكواكب تمنع الليل من الظلمة ، ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة .

والسُّجف : جمع سِجْف ، وهو السِّتر ، ويجوز فتح السين .

وشاع : تفرّق ، والتلألؤ : اللمعان . والجلابيب : الثياب . والغسق : الظلمة ، والساجي . الساكن والداجي : المظلم ، والمتطأطئ : المنخفض . والسُّفع المتجاورات ههنا : الجبال ؛ وسماها سُفعا لأنّ السُّفعة سواد مشرب بحمرة ؛ وكذلك لونها في الأكثر .

---

(١) سورة الرحمن ٦٨

واليَفاع : الأرض المرتفعة . والجَلجل : صوت الرعد .

وما تلاشت عنه بروق الغمام ؛ هذه الكلمة أهمل مثلها كثير من أئمة اللغة ؛ وهي صحيحة وقد جاءت ووردت . قال ابنُ الأعرابيّ : لَشَأَ الرَّجُل ؛ إذا اتَّضع ، وخَسّ بعد رفعة ، وإذا صحّ أصلُها صحّ استعمال النّاس ، تلاشى الشيء ، بمعنى اضمحلّ .

وقال القطب الراونديّ : تلاشى مركّب من « لا شيء » ، ولم يقف على أصل الكلمة ؛ وقد ظهر لأنّ معنى كلامه عليه السلام أنّه سبحانه يعلم ما يصوت به الرّعد ؛ ويعلم ما يضمحلّ عنه البرق .

فإن قلت : وهل يقصد الرّعد بجلجلته معنى معقولا ليقال : إنّ البارئ يعلمه ! ثم ما المراد بكونه عالماً بما يضمحلّ البرق عنه ؟

قلت : قد يكون تعالى يحدث في الرّعد جلجلة؛ أي صوتا ليهلك به قوما ، أو لينفع به قوما ، فعلمه بما تتضمّنه تلك الجلجلة هو معنى قولنا : يعلم ما يصوّت به الرعد ، ولا ريب أنّ البرق يلمع فيضيء أقطاراً مخصوصة ، ثم يتلاشى عنها ، فالباريُ سبحانه عالم بتلك الأقطار التي يتلاشى البرق عنها .

فإن قلت : هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق ؛ وبما لا يضيئه ؛ فماذا خصّ بالعالمية ما يتلاشى عنه البرق ؟

قلت : لأنّ علمه بما ليس بمضيء بالبرق أعجب وأغرب ، لأنّ ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأبصار الصحيحة ، فأراد عليه السلام أنْ يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر ؛ ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتمّ وأكمل .

والعواصف : الرّياح الشديدة ، وأضافها إلى الأنواء ؛ لأنّ أكثر مايكون عَصْفُها في الأنواء ؛ وهي جمع نَوْء ، وهو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب

مع السحر وطلوع رقيبه من المشرق مقابلا له من ساعته ؛ ومدة النوء ثلاثة عشر يوماً ، إلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً .

قال أبو عبيد : ولم يسمع في النوء أنه المسقوط إلا في هذا الموضع ، وكانت العرب تضيف الرياح والأمطار والحرّ والبرد إلى الساقط منها .

وقال الأصمعيّ : بل إلى الطالع في سلطانه ، فتقول : مُطرنا بنوء كذا وكذا ، ونهى النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك ؛ والجمع أنواء ونُوآن أيضاً ؛ مثل بَطْن وبُطْنان وعَبْد وعُبدان ، قال حسان بن ثابت :

وَيَثْرِبُ تعـــلم أنّا بها إذا قَحَطَ القطر نُوآنها[1]

والانهطال : الانصباب . ومسقط القطرة من المطر : موضع سقوطها ؛ ومقرّها : موضع قرارها ، ومسحب الذرّة الصغيرة من النمل ومجرّها : موضع سحبها وجرّها .

وهذا الفصل من فصيح الكلام ونادره ؛ ويتضمن من توحيد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه ما يشهد لنفسه

* * *

الأصْلُ :

والحَمْدُ لِلّهِ الكائِنِ قَبْلَ أنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أوْ عَرْشٌ أوْ سَماءٌ أوْ أرْضٌ أوْ جانٌّ أوْ إنْسٌ ، لَا يُدْرَكُ بِوَهْمٍ ، وَلا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ ، وَلَا يَشْغَلُهُ سائِلٌ ، وَلَا يَنْقُصُهُ نائِلٌ ، وَلا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ ، ولا يُحَدُّ بِأيْنٍ ، وَلَا يُوصَفُ بالأزْواجِ ، وَلَا يُخْلَقُ بِعِلَاجٍ ، وَلَا يُدْرَكُ بالحَواسِّ ؛ وَلَا يُقاسُ بالنّاسِ .

الّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً ، وأرَاهُ مِنْ آياتِهِ عَظِيماً ؛ بِلَا جَوارِحَ وَلَا أدَواتٍ ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، بَلْ إنْ كُنْتَ صادِقاً أيُّهَا المُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ ؛ فَصِفْ

---
(١) الصحاح ١ : ٧٩ .

جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ، وَجُنُودَ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ ، فِي حُجُرَاتِ القُدْسِ مُرْتَجِجِينَ ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الخَالِقِينَ . وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الهَيْئَاتِ والأَدَوَاتِ ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالفَنَاءِ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ .

* * *

الشَّرْحُ :

ليس يعنى بالسكان هاهنا مايعنيه الحكماء والمتكلمون ، بل مراده الموجود ، أى هو الموجود قبل أن يكون الكرسىّ والعرش وغيرهما . والأوائل يزعمون أنّ فوق السّموات السبع سماء ثامنة ، وسماء تاسعة ، ويقولون : إنّ الثامنة هى الكرسىّ ، وإنّ التاسعة هى العرش .

قوله عليه السلام : « لا يدركه بوهم » ، الوهم هاهنا[1] : الفكرة والتوهّم .

ولا يقدّره فهم ، أى لا تستطيع الأفهام أن تقدّره وتحدّه .

ولا يشغَلُه سائل كما يشغل السؤال منّا من يسألونه .

ولا ينقصه العطاء ، كما ينقص العطاء خزائن الملوك .

ولا يبصَر بجارحة،ولا يُحدّ بأين،ولفظة«أين»فى الأصل مبنيّة على الفتح؛فإذا نكّرتها صارت اسماً متمكّنا ، كما قال الشاعر :

لَيْتَ شِعْرِى وأيْنَ منّىَ ليتٌ   إنّ « ليتاً » وإنّ « لوًا » عناء

وإن شئت قلت : إنّه تكلّم بالاصطلاح الحكمىّ . والأين عندهم ، حصول الجسم فى المكان،وهو أحد المقولات العشر .

---

(١) ساقطة من ب .

قوله عليه السلام : ولا يوصَف بالأزواج؛ أى صفات الأزواج ؛ وهي الأصناف،قال سبحانه : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [1] .

قوله : « ولا يَخْلُق بعلاج » ، أى لا يحتاج فى إيجاد المخلوقات إلى معالجة ومزاولة .

قوله : « وكلّم موسى تكليما » [2] من الألفاظ القرآنية،والمراد هاهنا من ذكر المصدر تأكيد الأمر وإزالة لبْسٍ عساه يصلح للسامع ؛ فيعتقد أنه أراد المجاز ؛ وأنه لم يكن كلامٌ على الحقيقة .

قوله: « وأراه من آياته عظيما » ؛ ليس يريد به الآيات الخارجة عن التكليم ؛ كانشقاق البحر ، وقلب العصا ، لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله : « تكليما » ، وقوله : « بلاجوارح ولا أدوات،ولا نطق ولا لهوات »،مستهجنا ، وإنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيما من آياته ؛ وذلك أنه كان يسمع الصوتَ من جهاته الستّ ؛ ليس على حدّ سماع كلام البشر من جهة مخصوصة ؛ وله دوِيٌّ وصلصلة كوقع السلاسل العظيمة على الحصا الأصمّ .

فإن قلت : أتقول إنّ الكلام حلّ أجساما مختلفة من الجهات الستّ ؟

قلت : لا وإنّما حلّ الشّجرة فقط ؛ وكان يُسمَع من كلّ جهة ، والدليل على حلوله فى الشّجرة قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى ﴾ [3] ؛فلا يخلو إمّا أن يكون النداء حلّ الشّجرة؛أو المنادى حلّها،والثانى باطل ، فثبت الأوّل .

ثم قال عليه السلام لمن يتكلّف أن يصفَ ربّه : إن كنت صادقا؛أنّك قد وصلت إلى

---

(١) سورة ق ٧ .

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة النساء ١٦٤ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ .

(٣) سورة القصص ٣٠ .

معرفة صِفَته ؛ فصفْ لَنَا الملائكة ؛ فإنّ معرفة ذات الملك أهونُ من معرفة ذات الأول سبحانه.

وحُجُرات القدس : جمع حُجْرة . ومرجحِنِّين : مائلين إلى جهة تحت، خضوعاً لجلال البارئ سبحانه ؛ ارجحنّ الحجر، إذا مال هاوياً، متولِّهة عقولهم، أى حائرة.

ثم قال : إنّما يدرَك بالصفات ؛ ويعرف كنه ما كان ذا هيئة وأداة وجارحة، وما ينقضى ويفنى ويتطرّق إليه العدم ؛ وواجب الوجود سبحانه بخلاف ذلك.

ونحت قوله : « أضاء بنوره كلّ ظلام .... » إلى آخر الفصل، معنى دقيق وسرٌّ خفىّ ؛ وهو أنّ كلّ رذيلة فى الخلق البشرىّ مع معرفته بالأدلة البرهانية غير مؤثّرة ولا قادحة فى جلالة المقام الذى قد بلغ إليه ؛ وذلك نحو أن يكون العارف بخيلا أو جبانا، أو حريصاً أو نحو ذلك ؛ وكلّ فضيلة فى الخلق البشرىّ مع الجهل به سبحانه ؛ فليست بفضيلة فى الحقيقة ولا معتدّ بها ؛ لأنّ ظلمة الجهل به تكسف تلك الأنوار، وتمحق فضلها ؛ وذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جوادا، أو شجاعا، أو عفيفا، أو نحو ذلك ؛ وهذا يطابق ما يقوله الأوائل ؛ من أنّ العارف المذنب يشقَى بعد الموت قليلا ؛ ثم يعود إلى النعيم السرمدىّ، وأنّ الجاهل ذا العبادة والإحسان يشقى بعد الموت شقاء مؤبّداً ومذهب الخُلَّص من مُرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات، ويقال : إنّه مذهب أبى حنيفة رحمه الله . ويمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأنْ يقال : كلّ ظلام من المعاصى الصغائر ؛ فإنه ينجلى بضياء معرفته وطاعته ؛ وكلّ طاعة يفعلها المكلّف مع الكفر به سبحانه، فإنّها غير نافعة ولا موجبة ثوابا، ويكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومه إلى خصوصه.

***

الأصل :

أوصيكم عبادَ اللهِ بتقوى اللهِ الذي ألبسكم الرِّياش، وأسبغ عليكم المعاش؛ فلو أنَّ أحداً يجدُ إلى البقاء سُلَّماً، أو إلى دفع الموتِ سبيلاً؛ لكان ذلك سليمانَ بنَ داودَ عليه السلام؛ الذي سُخِّرَ له مُلْكُ الجنِّ والإنس؛ مع النبوّة وعظيم الزُّلْفة؛ فلمّا استوفى طعمته، واستكمل مُدّته، رمَتْهُ قِسِيُّ الفَناء بنبال الموت؛ وأصبحت الدِّيارُ منه خالية، والمساكنُ معطّلة؛ وورثها قومٌ آخرون.

وإنَّ لكم في القرون السالفة لعِبْرة! أين العمالقة وأبناءُ العمالقة! أين الفراعنة وأبناءُ الفراعنة! أين أصحابُ مدائنِ الرَّسِّ الذين قتلوا النبيّين، وأطفؤوا سُنَنَ المرسلين، وأحيَوْا سُنَنَ الجبّارين! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن!

• • •

الشرح :

الرِّياش : اللباس . وأسبغ : أوسع ؛ وقد ضرب المثل بسليمان عليه السلام ، لأنه كان ملِكَ الإنس والجنّ ، ولم يحصل لغيره ذلك ، ومن النّاس مَن أنكر هذا ؛ لأن اليهود والنصارى يقولون : إنه لم يتعدَّ ملكُه حدود الشام ، بل بعض الشام ، وينكرون حديث الجنّ والطير والريح ، ويحملون ما ورد من ذلك على وجوه وتأويلات عقلية معنوية ، ليس هذا موضع ذكرها .

والزُّلفة : القرب . والطُّعْمة ، بضم الطاء : المأكلة ؛ يقال : قد جعلت هذه الضَّيْعة طُعمة لزيد .

والقِسيّ : جمع قَوْس ، وأصلها «قووس» على «فعول» ، كضرب وضروب ؛ إلا أنهم قدّموا

اللام ، فقالوا « قُسُوّ » على « فعول » ، ثم قلبت الواو ياء ؛ وكسروا القاف كما كسروا عين « عصيّ » فصارت « قِسِيّ » .

[نسب العمالقة]

والعمالقة أولاد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ؛ كان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم ؛ فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام ؛ ومنهم طسم بن لاوذ أخوه .

ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما ؛ وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسْم ؛ فلما ملكهم عملاق بن طسم ، بغوا وأكثروا الفساد في الأرض ؛ حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بَعْلها ؛ وإن كانت بكرا افتضّها قبل وصولها إلى البعل ؛ ففعل ذلك بامرأة من جَدِيس ؛ يقال لها عميرة بنت غفار ، فخرجت إلى قومها ؛ وهي تقول :

لا أحدٌ أذلّ من جديسٍ   أهكذا يفعل بالعروس !

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار ؛ وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته ، فصنع الأسود طعاما ، ودعا عملاق الملك إليه ، ثم وثب به وبطسْم ، فأتى على رؤسائهم ، ونجا منهم رياح بن مرّ ، فصار إلى ذي جيشان بن تبّع الحِمْيري ملك اليمن ؛ فاستغاث به ، واستنجده على جَدِيس ، فسار ذو جيشان في حِمْيَر ، فأتى بلاد جَوّ ، وهي قصبة اليمامة ، فاستأصل جديساً كلّها ، وأخرب اليمامة فلم يبق لجديس باقية ، ولا لطسْم إلا اليسير منهم .

ثم ملك بعد طسْم وجديس وَبَار بن أُمَيم بن لاوذ بن إرم ، فسار بولده وأهله ، فنزل بأرض وبار ، وهي المعروفة الآن برمل عالج ، فبنوا في الأرض حينا حتّى أفناهم الله .

ثم مَلَكَ الأرضَ بعد وبار عبد ضَخْم بن أُثَيف بن لاوذ ، فنزلوا بالطائف حينا ، ثم بادوا .

* * *

[نسب عاد وثمود]

وممّن يعدّ مع العمالقة عاد وثمود ؛ فأما عاد فهو عاد بن عويص بن إرم بن سام بن نوح ؛ كان يعبد القمر ، ويقال : إنه رأى من صُلْبه أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف ؛ وإنه نكح ألف جارية ؛ وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن ؛ وهي من شِحْر عُمان إلى حَضْرموت ؛ ومن أولاده شدّاد بن عاد ؛ صاحب المدينة المذكورة .

وأمّا ثمود ؛ فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ؛ وكانت دياره بين الشّام والحجاز إلى ساحل نهر الحبشة .

* * *

[نسب الفراعنة]

قوله عليه السلام : « أين الفراعنة ، وأبناء الفراعنة ؛ جمع فرْعون ؛ وهم ملوك مصر ، فمنهم الوليد بن الريّان فرعون يوسف ، ومنهم الوليد بن مُصْعب فرعون موسى . ومنهم فرعون بن الأعرج الّذي غزا بني إسرائيل وأخربَ بيت المقدس .

* * *

[نسب أصحاب الرّسّ]

قوله عليه السلام : « أين أصحاب مدائن الرسّ ؟ » ، قيل : إنهم أصحابُ شعيب

النبي صلى الله عليه وآله ، وكانوا عَبَدَة أصنام ؛ ولهم مواشٍ وآبار يَسْقُون منها .

والرسّ : بئر عظيمة جدًّا انخسفت بهم ؛ وهم حولها، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلّها وديارهم . وقيل : الرسّ قرية بفَلْج اليمامة ، كان بها قوم من بقايا ثمود بَغَوْا ، فأهلكوا .

وقيل : قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز ، وكانت العَنْقاء تختطِف صبيانَهم فتقتلهم ؛ فدعوُا الله أن يتقدّم منها؛ فبعث إليهم حنظلة بن صفوان، فدعاهم إلى الدّين على أن يقتل العنقاء ، فشارطوه على ذلك فدعا عليها ، فأصابتها الصاعقة ، فلم يَفُوا له ، فقتلوه ؛ فأهلكوا .

وقيل : هم أصحاب الأخدود ، والرسّ ، هو الأخدود . وقيل : الرسّ أرض بأنطاكية قتل فيها حَبيب النجار .

وقيل : بل كذّب أهلها نبيّهم ورسُّوه في بئر ، أي رَمَوْه فيها .

وقيل : إن الرسّ نهر في إقليم الباب والأبواب مبدؤه من مدينة طراز ، وينتهي إلى نهر الكرّ ، فيختلط به حتى يصبّ في بحر الخزر ، كان هناك ملوك أولو بأس وقدرة ، فأهلكهم الله ببغيهم

•••

الأمثال :

منها :

قَدْ لَبِسَ لِلحِكْمَةِ جُنَّتَها ، وَأَخَذَها بِجَمِيعِ أَدَبِها ، مِنَ الإقْبالِ عَلَيْها ، وَالمَعْرِفَةِ بِها ، وَالتَّفَرُّغِ لَها ؛ فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضالَّتُهُ الَّتي يَطْلُبُها ، وَحاجَتُهُ الَّتي يَسْأَلُ عَنْها ، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الإسْلامُ ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ ، وَأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرانِهِ ؛ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقايا حُجَّتِهِ ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلائِفِ أَنْبِيائِهِ .

•••

الشرح :

هذا الكلام فسره كلّ طائفة على حسب اعتقادها ، فالشِّيعة الإماميّة تزعم أنّ المراد به المهدي المنتظر عندهم ، والصوفيّة يزعمون أنّه يعني به وليّ الله في الأرض ؛ وعندهم أنّ الدّنيا لا تخلو عن الأبدال ، وهم أربعون ، وعن الأوتاد ، وهم سبعة ، وعن القطب وهو واحد ؛ فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطباً عوضه ، وصار أحد الأربعين وتداً ، عوض الوتد ، وصار بعض الأولياء الذين يصطفيهم الله تعالى أبدالاً عوض ذلك البدل .

وأصحابنا يزعمون أن الله تعالى لا يخلي الأمّة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدل والتوحيد ، وأنّ الإجماع إنّما يكون حجّة باعتبار أقوال أولئك العلماء ، لكنه لما تعذّرت معرفتهم بأعيانهم ، اعتبر إجماع سائر العلماء ، وإنّما الأصل قول أولئك .

قالوا : وكلام أمير المؤمنين عليه السلام ليس يشير فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة ؛ ولكنه يصف حال كلّ واحد منهم ؛ فيقول : من صفته كذا ، ومن صفته كذا .

والفلاسفة يزعمون أنّ مراده عليه السلام بهذا الكلام العارف ، ولهم في العرفان وصفات أربابه كلام يعرفه مَنْ له أنس بأقوالهم . وليس يبعد عندي أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله في آخر الوقت ، إذا خلقه الله تعالى ؛ وإن لم يكن الآن موجوداً ؛ فليس في الكلام ما يدلّ على وجوده الآن ، وقد وقع اتفاق الفِرَق من المسلمين أجمعين على أنّ الدنيا والتكليف لا ينقضي إلا عليه .

قوله عليه السلام : « قد لبس للحكمة جُنّتها » ، الجُنّة : ما يستتر به من السّلاح كالدِّرْع ونحوها ، ولبس جنّة الحكمة قمع النفس عن المشتهيات ، وقطع علائق النفس عن

المحسوسات ؛ فإنّ ذلك مانع للنفس عن أن يصيبها سهام الهوى ؛ كما تمنع الدّرع الدّارع عن أن يصيبه سهام الرّماية .

ثم عاد إلى صفة هذا الشخص ، فقال : « وأخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها » ؛ أى شدّة الحرص والهمة .

ثم قال : « والمعرفة بها » ، أى والمعرفة بشرفها ونفاستها .

ثم قال : « والتفرّغ لها » ؛ لأنّ الذهن متى وجّهته نحو معلومين تخبّط وفسد ؛ وإنما يدرك الحكمة بتخلية السرّ من كلّ ما مرّ سواها .

قال : « فهي عند نفسه ضالّته التى يطلبها » ؛ هذا مثل قوله عليه السلام : « الحكمة ضالّة المؤمن » ومن كلام الحكماء : لا يمنعك من الانتفاع بالحكمة حقارة مَنْ وجدتها عنده ؛ كما لا يمنعك خبث تراب المعدن من التقاط الذّهب .

ووجدت بخط أبى محمد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمه الله فى تعاليق مسوّدة أبياتا للمَلَوِىّ ؛ وهى :

قد رأينا الغزال والغصن والنّجمين شمس الضحى وبدر التمام
فوحقّ البيان يعضُده البُرْ هانُ فى مأقِطٍ شديد الخصام[1]
ما رأينا سوى المليحة شيئاً جمع الحسن كلّه فى نظام
هى تجرى مجرى الأصالة فى الرأ ى وتجرى الأرواح فى الأجسام

وقد كتب ابن الخشاب بخطّه تحت « المليحة » : ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة !

قوله عليه السلام : « وحاجته التى يسأل عنها » ؛ هو مثل قوله : « ضالّته التى يطلبها » .

ثم قال : « هو مغترب إذا اغترب الإسلام » ؛ يقول هذا الشخص يُخفِى نفسه ويخملها

(١) المأقط : ساحة القتال

إذا اغترب الإسلام ، واغتراب الإسلام أن يظهر الفسق والجور على الصلاح والعدل ؛ قال عليه السلام : « بدأ الإسلامُ غريباً وسيعود كما بدأ » .

قال : « وضرب بعسيب ذَنَبه ، وألصق الأرض بجرانه » ؛ هذا من تمام قوله : « إذا اغترب الإسلام » ، أى إذا صار الإسلام غريبا مقهورا ؛ وصار الإسلام كالبعير البارك يضرب الأرض بِعَسِيبه ، وهو أصلُ الذَّنَب ، ويلصق جرانه — وهو صدره — في الأرض ؛ فلا يكون له تصرّف ولا نهوض .

ثم عاد إلى صفة الشّخص المذكور .

وقال : « بقيّة من بقايا حججه ، خليفة من خلائف أنبيائه » ، الضمير هاهنا يرجع إلى الله سبحانه وإنْ لم يجر ذكره؛ للعلم به ، كما قال : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[1] ، ويمكن أن يقال : إنّ الضمير راجع إلى المذكور وهو الإسلام ؛ أى من بقايا حجج الإسلام وخليفة من خلائف أنبياء الإسلام .

فإن قلت : ليس للإسلام إلا نبيّ واحد .

قلت : بل له أنبياء كثير ؛ قال تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[3] ، وكلّ الأنبياء دَعَوْا إلى ما دعا إليه محمد صلى الله عليه وآله من التوحيد والعدل ، فكلّهم أنبياء للإسلام .

فإن قلت : أليس لفظ « الحجّة » ولفظ « الخليفة » مشعراً بما تقوله الإماميّة ؟

قلت : لا ، فإنّ أهل التصوف يسمّون صاحبهم حجّة وخليفة ؛ وكذلك الفلاسفة ،

---

(١) سورة ص ٣٢ . (٢) سورة الحج ٧٨ .
(٣) سورة النحل ١٢٣

وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين فى كلّ عصر ، لأنّهم حجج الله ، أى إجماعهم حجّة ؛ وقد استخلفهم الله فى أرضه ليحكموا بحكمه .

وعلى ما اخترناه نحن فالجواب ظاهر .

***

الأصـلُ:

ثم قال عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَـكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ أُمَمَهُمْ ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْـكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ، وَأَدَّبْتُـكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا ، وَحَدَوْتُـكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا .

لِلَّهِ أَنْتُمْ ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَأُ بِـكُمُ الطَّرِيقَ ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ ! أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا ، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الْأَخْيَارُ ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى ، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى !

مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً ، يُسِيغُونَ الْغُصَصَ ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ ! قَدْ وَاللهِ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ !

أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ! أَيْنَ عَمَّارٌ ! وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ ! وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ! وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ !

***

قال : ثُمَّ ضَرَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده إلى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْـكَرِيمَةِ ، فَأَطَالَ الْبُـكَاءَ ، ثم قال عليه السلام :

أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْـكَمُوهُ ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ !

أَحْيَوُا السُّنَّةَ ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ ؛ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا ، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ .

ثم نادى بأعلى صوته :

الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ ! أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذا ؛ فَمَنْ أَرادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ .

* * *

قالَ نَوْفٌ : وَعقد للحسين عليه السلام في عَشَرة آلافٍ ، ولقيس بن سعدٍ رحمه الله في عشرة آلافٍ ، ولأبي أيُّوب الأنصاريّ في عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعدادٍ أُخَر ؛ وهو يريد الرَّجْعةَ إلى صِفّين فما دارت الجمعةُ حتى ضربه الملعون ابنُ ملجم لعنه الله ، فتراجعت العساكر ، فكنا كأغنامٍ فقدت راعيها ، تختطفها الذئاب من كل مكان !

* * *

الشَّرْحُ :

بثثتُ لكم المواعظ : فرّقتها ونشرتُها . والأوصياء : الذين يأتمهم الأنبياء على الأسرار الإلهية ؛ وقد يمكن ألّا يكونوا خلفاء بمعنى الإمرة والولاية ، فإنّ مرتبتهم أعلى من مراتب الخلفاء .

وحدوتكم : سقتكم كما تُحدَى الإبل . فلم تستوسقوا ، أي لم تجتمعوا ، قال :

* مستوسقاتٍ لم يجدْنَ سائقا[1] *

قوله : « يطأ بكم الطريق » ، أي يحملكم على المِنْهاج الشرعيّ ، ويسلك بكم مسالك الحقّ ، كأنه جعلهم ضالّين عن الطريق التي يطلبونها .

---

(١) اللسان (وسق) ، وقبله :

* إنّ لنا قلائصاً حقائقا *

وقال : أتريدون إماماً غيرى يوقفكم على الطريق التى تطلبونها حتى تطئوها وتسلكوها !

ثم ذكر أنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً؛ وهو الهدى والرشاد ، فإنه كان فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفائه مقبلا ؛ ثم أدبر عند استيلاء معاوية وأتباعه؛ وأقبل منها ما كان مدبراً ؛ وهو الضلال والفساد ؛ ومعاوية عند أصحابنا مطعون فى دينه ، منسوبٌ إلى الإلحاد ؛ قد طعن فيه صلى الله عليه وآله ؛ وروى فيه شيخنا أبو عبدالله البصرىّ فى كتاب " نقض السُّفْيانيّة " على الجاحظ ؛ وروى عنه أخبارا كثيرة تدلُّ على ذلك ؛ وقد ذكرناها فى كتابنا فى " مناقضة السفيانيّة " .

وروى أحمد بن أبى طاهر فى كتاب " أخبار الملوك " أنّ معاوية سمع المؤذّن يقول « أشهد أن لا إله إلا الله » ، فقالها ثلاثا ، فقال : أشهد أن محمدا رسول الله ! فقال : لله أبوك يابن عبد الله ! لقد كنتَ عالىَ الهمّة لم ترضَ لنفسك إلا أن يقرَن اسمُكَ باسم ربِّ العالمين !

قوله عليه السلام : « وأزمَع التَّرحال » أى ثبت عزمُهم عليه ؛ يقال : أزمعتُ الأمرَ ؛ ولا يقال : أزمعتُ على الأمر ، هكذا يقول الكسائىّ ؛ وأجازه الخليل والفرّاء .

ثم قال عليه السلام : إنّه لم يضرّ إخوانَنا القتلَى بصِفّين كونُهم اليوم ليسوا بأحياء حياتَنا المشوبة بالنغص والغُصَص .

ويقال : ماء رنْق ، بالتسكين ، أى كدر ، رنِق الماء بالكسر ، يرنق رنقا فهو رَنْق ، وأرنقته ؛ أى كدّرته ، وعيش رَنِق بالكسر ، أى كَدِر .

ثم أقسم إنّهم لقُوا الله فوفّاهم أجورهم ، وهذا يدلّ على مايذهب إليه جمهور أصحابنا من نعيم القبر وعذابه .

ثم قال عليه السلام : « أين إخوانى » ؛ ثم عدّدهم ، فقال : « أين عمار » .

* * *

[عمار بن ياسر ونسبه ونُبَذ من أخباره]

وهو عمّار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسيّ ـ بالنّون ـ المذحجيّ ؛ يكنى أبا اليقظان ، حليف بني مخزوم .

ونحن نذكر طرَفًا من أمره من كتاب " الاستيعاب[1] " ، لأبي عمر بن عبد البرّ المحدّث. قال أبو عمر : كان ياسر والد عمّار عربيًّا قحطانيا،من عَنْس في مذحج ؛ إلّا أنّ ابنه عمّارا كان مولًى لبني مخزوم ؛ لأنّ أباه ياسراً قدِمَ مكّة مع أخوين له ؛ يقال لهما : مالك والحارث ؛ في طلب أخ لهم رابع؛ فرجع الحارث ومالك إلى اليمن،وأقام ياسر بمكّة؛ فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فزوّجه أبو حذيفة أمَةً يقال لها سُمَيّة ، فأولدها عمّارا ، فأعتقه أبو حذيفة ؛ فمن هاهنا كان عمّار مولى بني مخزوم . وأبوه عربيّ ؛ لا يختلفون في ذلك ؛ وللحِلف والوَلاء الذي بين بني مخزوم وعمّار وأبيه ياسر كان احتمال بني مخزوم على عثمان؛ حين نال من عمّار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب؛ حتى انفتق له فتْقٌ في بطنه ، زعموا،وكسروا ضِلَعًا من أضلاعه ؛ فاجتمعت بنو مخزوم،فقالوا: والله لئن مات لاقتلنا به أحداً غير عثمان !

قال أبو عمر : كان عمّار بن ياسر ممّن عُذّب في الله ثم أعطاهم عمّارٌ ما أرادوا بلسانه، واطمأنّ الإيمان بقلبه ؛ فنزل فيه : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[2]، وهذا ممّا أجمع عليه أهل التفسير[3] .

---

(١) الاستيعاب ١ : ٤٢٢ ـ ٤٢٤ .

(٢) سورة النحل ١٠٦ .

(٣) في كتاب الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٠ : ١٨٠ : « هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ؛ في قول أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه » ، ثم قال : « وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالإيمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن عادوا فعد » .

وهاجر إلى أرض الحبشة ، وصلى إلى القبلتين ؛ وهو من المهاجرين الأولين ، ثم شهد بدراً والمشاهد كلّها ، وأبلى بلاء حسنا ، ثم شهد اليمامة ، فأبلى فيها أيضا يومئذ ، وقطعت أذنه .

قال أبو عمر : وقد روى الواقدي ، عن عبد الله بن نافع ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن عمر ؛ قال : رأيتُ عمّاراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح : يا معشرَ المسلمين ، أمِنَ الجنّة تفرّون ؟ أنا عمّار بن ياسر ، هلمُّوا إليّ ! وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت ، فهي تذبذب[١] ؛ وهو يقاتل أشدّ القتال .

قال أبو عمر : وكان عمّار آدمَ طُوالًا مضطربا أشهَلَ[٢] العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، لا يغيّر شيبه .

قال : وبلغنا أنّ عمّاراً قال : كنتُ تِرْبًا لرسول الله صلى الله عليه وآله في سِنّه ، لم يكن أحدٌ أقربَ إليه منّي سنًّا .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ : إنه عمار بن ياسر ، ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[٣] إنه أبو جهل بن هشام .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ عمّاراً ملئ إيمانا إلى مُشاشه »[٤] . ويروى إلى أخمص[٥] قدميه .

وروى أبو عمر عن عائشة ، أنها قالت : مامن أحدٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تذبذب : تتحرك .
(٢) الشهل ، محركة : أن يشوب سواد العين زرقة .
(٣) سورة الأنعام ١٢٢ ، وفي تفسير القرطبي عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل ، قال : « والصحيح أنها عامة في كل مؤمن وكافر » .
(٤) المشاشة : رأس العظم .
(٥) الأخمص : من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

أشاء أن أقول فيه إلا قلت ، إلا عمار بن ياسر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه ملىء إيمانا إلى أخمص قدميه » .

قال أبو عمر : وقال عبد الرحمن بن أبزى : شهدنا مع عليّ عليه السلام صفّين ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان ، قتل منا ثلاثة وستون ؛ منهم عمّار بن ياسر .

قال أبو عمر : ومن حديث خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ أبغض عمّارا أبغضه الله » ؛ فما زلت أحبه من يومئذ .

قال أبو عمر : ومن حديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام : إنّ عمّاراً جاء يستأذنُ عَلَى رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ، فعرف صوته ، فقال : « مَرْحَبًا بالطيِّب المطيَّب - يعني عمّارا - ائذنوا له » .

قال أبو عمر : ومن حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله : « اشتاقت الجنة إلى أربعة : عليّ ، وعمار ، وسلمان ، وبلال » .

قال أبو عمر : وفضائل عمّار كثيرة جدا يطول ذكرها .

قال : وروى الأعمش ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ ، قال : شهدنا مع علي عليه السلام صفّين ، فرأيت عمّار بن ياسر لا يأخذ في ناحية ولا وادٍ من أودية صفّين ، إلاّ رأيتُ أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يتّبعونه ، كأنه عَلَم لهم . وسمعتُه يقول يومئذ لهاشم ابن عتبة : يا هاشم ، تقدّم ، الجنة تحت البارقة .

اليَوْمَ أَلْقَى الأحِبَّهْ مُحَمَّدًا وَحِــــزْبَهْ

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفاتِ هَجَرَ لعلمنا أنّا على الحق ، وأنهم على الباطل ، ثم قال :

نَحْنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تنزيـــلِهِ فَالْيَوْمَ نضربُكُمْ على تأويلِهِ

ضرباً يزيلُ الهام عن مقيلِهِ ويذهلُ الخليل عن خليلِهِ

• أو يرجع الحق على سبيلِهِ •

فلم أر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قتلوا فى موطن ، ماقتلوا يومئذ .

قال : وقد قال أبو مسعود البدرىّ وطائفة لحُذَيْفة حين احتُضِر ، وقد ذكر الفتنة: إذا اختلَف النّاس فيمن تأمرنا ؟ قال : عليكم بابن سميّة ، فإنّه لن يفارق الحقّ حتى يموت — أو قال : فإنّه يزول مع الحقّ حيث زال .

قال أبو عمر : وبعضهم يجعل هذا الحديث عن حُذيفة مرفوعا .

قال أبو عمر : وروى الشّعبىّ ، عن الأحنف ، أنّ عمّاراً حمل يوم صِفّين ، فحمل عليه ابن جَزْء السَّكْسَكِىّ ، وأبو الغادية الفَزَارىّ ؛ فأمّا أبو الغادية فطعنه ، وأمّا ابن جزء فاحتزّ رأسه .

قلت : هذا الموضع ممّا اختلف فيه قول أبى عمر رحمه الله ، فإنه ذكر فى كتاب الكنى من " الاستيعاب[1] " ، أبا الغادية بالغين المعجمة — وقال : إنه جُهَنىّ من جُهينة ، وجُهينة من قُضاعة ، وقد نسبه هاهنا فَزَارِيًّا .

وقال فى كتاب الكنى : إنّ اسم أبى الغادية يسار ، وقيل مسلم .

وقد ذكر ابن قتيبة فى كتاب " المعارف " ، عن أبى الغادية أنّه كان يحدّث عن نفسه بقتل عمار ، ويقول : إنّ رجلًا طعنه فانكشف المِغْفَر عن رأسه ، فضربت رأسه ، فإذا رأس عمّار قد نَدَرَ[2] .

وكيفية هذا القتل تخالف الكيفيّة التى رواها ابن عبد البرّ .

قال أبو عمر : وقد روى وَكيع ، عن شعبة ، عن عبد بن مرّة ، عن عبدالله بن سلمة،

---

(١) الاستيعاب ٦٨٠ .

(٢) المعارف ٢٥٧ (طبعة دار الكتب) .

قال : لكأنّي أنظر إلى عمّار يوم صِفّين وهو صريع ، فاستسقى ، فأُتِيَ بشربةٍ من لبن فشرب ، فقال :

« اليوم ألقى الأحِبَّهْ »

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إليّ أنّ آخرَ شَرْبةٍ أشربُها في الدنيا شربة من لبن ، ثم استسقى ثانية فأتته امرأة طويلة اليدين بإناء ، فيه ضَيَاح(١) من لبن ، فقال حين شربه : الحمدُ لله ، الجنّة تحت الأسنّة ، والله لو ضربونا حتى يبلغوا سَعَفاتِ هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ ، وأنهم على الباطل ، ثم قاتل حتى قُتِل .

قال أبو عمر : وقد روَى حارثة بن المضرّب : قرأتُ كتابَ عمر إلى أهل الكوفة : أمّا بعد ، فإنّي بعثت إليكم عمّاراً أميراً ، وعبد الله بن مسعود معلّماً ووزيراً ، وهما من النُّجباء ، من أصحاب محمّد ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ، فإنّي قد آثرتكم بعبد الله عَلَى نفسي أثَرَةً .

قال أبو عمر : وإنّما قال عمر : هُمَا من النُّجباء ، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله .

« إنّه لم يكن نبيٌّ إلا أُعطِيَ سبعة من أصحابه نجباء وزراء فقهاء ، وإنّي قد أُعطيتُ أربعةَ عشر : حمزة ، وجعفراً ، وعليًّا ، وحسناً ، وحسيناً ، وأبا بكر ، وعمر ، وعبد الله بن مسعود ، وسلمان ، وعمّاراً ، وأبا ذرّ ، وحُذَيفة ، والمقداد ، وبلالاً » .

قال أبو عمر : وتواترتِ الأخبار عَنْ رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال : « تقتلُ عمّاراً الفئة الباغية » ، وهذا من إخباره بالغيب ، وأعلام نبوّته صلى الله عليه وآله ، وهو من أصحّ الأحاديث .

وكانت صِفّين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ، ودفنه عليٌّ عليه السلام في ثيابه ولم يغسّله .

---

(١) الضياح ، بالفتح : اللبن الرقيق الكثير الماء .

وروى أهلُ الكوفة أنّه صلّى عليه ؛ وهو مذهبهم فى الشّهداء ؛ أنّهم لا يغسّلون ولكن يصلى عليهم .

قال أبو عمر : وكانت سنّ عمّار يوم قُتِل نَيِّفاً وتسعين سنة ؛ وقيل : إحدى وتسعين، وقيل : اثنتين وتسعين ، وقيل : ثلاثا وتسعين .

* * *

[ذكر أبى الهيثم بن التيهان وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام : « وأين ابن التَّيِّهان » ؛ هو أبو الهيثم بن التَّيِّهان ؛ بالياء المنقوطة؛ باثنتين تحتها ؛ المشددة المكسورة ؛ وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها ؛ واسمه مالك، واسم أبيه مالك أيضا ، ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصارى ؛ أحدُ النُّقَباء ليلة العقبة . وقيل : إنه لم يكن من أنفسهم ، وإنّه من بَلِيّ بن أبى الحارث بن قُضاعة ، وإنّه حليفٌ لبنى عبد الأشهل ؛ كان أحدَ النقباء ليلة العقبة ، وشهد بدراً .

قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « الاستيعاب » : اختلف فى وقت وفاته ، فذكر خليفة ، عن الأصمعىّ ، قال : سألتُ قومَه ، فقالوا : مات فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله [1] .

قال أبو عمر : وهذا لم يتابع عليه قائله .

وقيل : إنّه توفّىَ سنة عشرين ، أو إحدى وعشرين .

وقيل : إنه أدرَك صِفّين ، وشهدها مع علىّ عليه السلام ؛ وهو الأكثر .

وقيل : إنه قتل بها .

ثم قال أبو عمر : حدّثنا خَلَف بن قاسم ، قال : حدّثنا الحسن بن رشيق ، قال :

(١) الاستيعاب ٦٩٦ .

حدّثنا الدُّولابيّ ، قال : حدّثنا أبو بكر الوجيهيّ ، عن أبيه ، عن صالح بن الوجيه ، قال : وممّن قتل بصفّين عمّار ، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان ، وعبد الله بن بُدَيل ؛ وجماعة من البدريّين رحمهم الله .

ثم روى أبو عمر رواية أخرى،فقال : حدّثنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالمؤمن، قال : حدّثنا عثمان بن أحمد بن السمّاك ، قال حدّثنا حنبل بن إسحاق بن علىّ، قال : قال أبو نُعيم : أبو الهيثم بن التَّيِّهان ، اسمُهُ مالك ، واسم التَّيِّهان عمرو بن الحارث ، أصيب أبو الهيثم مع علىّ يوم صفين .

قال أبو عمر : هذا قول أبى نعيم وغيره .

قلت : وهذه الرّواية أصحّ من قول ابن قتيبة فى كتاب المعارف [1] ؛ وذكر قوم أنّ أبا الهيثم شهد صِفّين مع علىّ عليه السلام ؛ ولا يعرفُ ذلك أهلُ العلم ولا يثبتونه؛ فإنّ تعصّب ابن قتيبة معلوم ؛ وكيف يقول : لا يعرفه أهل العلم ، وقد قاله أبو نعيم،وقاله صالح ابن الوجيه ، ورواه ابنُ عبد البرّ وهؤلاء شيوخ المحدّثين !

• • •

[ذكر ذى الشهادتين خزيمة بن ثابت وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام: « وأين ذو الشّهادتين »؛هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطْمىّ الأنصارى من بنى خَطْمة [2] ، من الأوْس جعل رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) المعارف ٢٧٠ ، قال : « وليس يعرف ذلك أهل العلم ولا يثبتونه » .
(٢) بنو خطمة ؛ هم بنو عبدالله بن مالك بن أوس .

شهادته كشهادة رجلين ؛ لقصّة مشهورة[1] ؛ يكنَى أبا عُمارة ، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد ؛ وكانت رايةُ بنى خَطْمة بيده يوم الفتح .

قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب[2] : وشهد صِفّين مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فلما قُتِل عمار قاتل حتى قُتِل .

قال أبو عمر : وقد رُوِى حديثُ مقتله بصفّين من وجوه كثيرة ، ذكرناها فى كتاب " الاستيعاب " عن ولد ولده ، وهو محمد بن عُمارة بن خزيمة ذى الشهادة ؛ وأنّه كان يقول فى صِفّين : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « تقتل عمّاراً الفئةُ الباغية » ؛ ثم قاتل حتى قُتِل .

•••

قلت : ومن غريب ما وقفتُ عليه من العصبيّة القَبِيحة ، أنّ أبا حيانٍ التوحيدىّ قال فى كتاب " البصائر " : إن خُزيمة بن ثابت المقتول مع علىّ عليه السلام بصفّين ؛ ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، بل آخر من الأنصار صحابىّ اسمه خزيمة بن ثابت ؛ وهذا خطأ ، لأنّ كتب الحديث والنّسب تنطق بأنّه لم يكن فى الصحابة من الأنصار ، ولا من غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين ؛ وإنما الهوى لا دواء له ؛ على أنّ الطبرىّ صاحب التاريخ قد سبَق أبا حيّان بهذا القول ؛ ومن كتابه نقَل أبو حيان ؛ والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكراه ، ثم أىّ حاجة لناصرى أمير المؤمنين أن يتكثّرُوا بخُزَيمة ، وأبى الهيثم ، وعمّار وغيرهم ! لو أنصف

---

(١) ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة ، قال : « روى عنه ابنه عمارة أن النبى صلى الله عليه وسلم اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربى ، فجحده سواء ، فشهد خزيمة بن ثابت للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله : « ما حملك على الشهادة ، ولم تكن حاضراً معنا ؟ قال : صدقتك بما جئت به ، وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة أو عليه فهو حسبه » .

(٢) الاستيعاب ١٥٧ ، ١٥٨ .

الناس هذا الرجل ورأوه بالعين الصحيحة ، لعلموا أنه لو كان وحده ، وحاربه الناسُ كلهم أجمعون ، لكان على الحقّ ، وكانوا على الباطل .

ثم قال عليه السلام : « وأين نظراؤهم من إخوانهم » ! يعنى الذين قتِلُوا بصِفّين معه من الصحابة ، كابن بُدَيل ، وهاشم بن عتبة ، وغيرهما ممن ذكرناه فى أخبار صِفّين .

وتعاقدوا على المنيّة : جعلوا بينهم عقدا ، وروى « تعاهدوا » .

وأبرِد برءوسهم إلى الفَجَرة : حملت رءوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها ، والفجرة هاهنا : أمراء عسكر الشام ، تقول : قد أبردت إلى الأمير ، فأنا مبرِد ، والرسول بريد ؛ ويقال للفُرانق[1] البريد ، لأنه ينذر قُدام الأسد .

قوله : « أوّهِ على إخوانى » ساكنة الواو مكسورة الهاء ، كلمة شكوى وتوجُّع ، وقال الشاعر :

فأوهِ لذكراها إذا ما ذكرتُها ... ومِنْ بُعْدِ أرضٍ دونها وسَماء[2]

وربما قلبوا الواو ألفا ، فقالوا : آهِ من كذا ، آه على كذا ؛ وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء ، فقالوا : أوِّهْ من كذا ، وربما حذفوا الهاء مع التشديد ، وكسروا الواو ، فقالوا : أوِّ من كذا بلا مدّ ، وقديقولون : آوِّهْ ، بالمد والتّشديد وفتح الألف وسكون الهاء ؛ لتطويل الصوت بالشكاية ، وربما أدخلوا فيه الياء تارةً يمدّونه ، وتارة لا يمدونه ، فيقولون : « أوياه » و« آوياه » وقد أوّهَ الرجل تأويها ، وتأوه تأوُّها ، إذا قال « أوّهِ » ، والاسم منه « الآهة » بالمدّ ، قال المثقّب العبدىّ :

إذَا ما قمت أرْحَلُهَا بليــــلٍ ... تأوّه آهة الرّجُل الحزينِ[3]

---

(١) ذكره صاحب اللسان ؛ واستشهد بقول امرئ القيس :

وإنّى أذينٌ إن رجعتُ مملّكاً ... بسيرٍ ترى منه الفرانق أزورا

(٢) اللسان ١٧ : ٣٦٥ .

(٣) اللسان ١٧ : ٣٦٥ .

قوله عليه السلام: « ووثِّقوا بالقائد فاتّبعوه » بمعنى نفسه، أى وثقوا بأنى على الحقّ، وتيقّنوا ذلك، فاتّبعونى فى حرب مَنْ حاربت، وسِلْم مَنْ سالمت.

قوله: « الجهادَ الجهادَ »، منصوب بفعل مقدّر.

وإنّى معسكر فى يومى، أى خارج بالعسكر إلى منزل يكونُ لهم معسكرا.

* * *

[ذكر سعد بن عبادة ونسبه]

وقيس بن سعد بن عبادة بن دُلَيم[1] الخزرجىّ، صحابىّ، يكنى أبا عبد الملك؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث، وكان طُوالاً جدًّا سبطا شجاعا، جوادا، وأبوه سعد رئيس الخزرج؛ وهو الذى حاولت الأنصار إقامته فى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يبايع أبا بكر حين بُويع، وخرج إلى حَوْران، فمات بها، قيل: قتلته الجنّ لأنه بال قائمًا فى الصحراء ليلا، ورووْا بيتين من شعر؛ قيل إنهما سمعا ليلة قتله، ولم يُرَ قائلهما:

نَحْنُ قتلنَا سَيِّد الخزْ ... رَجِ سَعْدَ بنَ عُبادَهْ

ورميناهُ بسَهْمَيْـ ... ـنِ فلم نُخْطِئْ فؤادَهْ

ويقول قوم: إنّ أمير الشام يومئذ كَمَن له مَنْ رماه ليلا، وهو خارج إلى الصحراء بسهمين، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام، وقد قال بعض المتأخرين فى ذلك:

يقولونَ سعد شكّت الجنُّ قلبَهُ ... ألا ربما صحّحْتَ دينك بالغَدْرِ

وما ذنبُ سَعْدٍ أنه بال قائمًا ... ولكنّ سعدا لم يبايع أبا بكر

وقد صبرَتْ من لذّة العيش أنفسٌ ... وما صبرتْ عن لذّة النّهى والأمر

---

(١) فى الأصول: « دلهم »، وأثبت ما فى الاستيعاب.

وكان قيس بن سعد من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقائلٌ بمحبّته وولائه ، وشهد معه حروبه كلها ، وكان مع الحسن عليه السلام ، ونقم عليه صلحه معاوية ، وكان طالبيّ الرأي ، مخلصاً في اعتقاده ووده ؛ وأكّد ذلك عنده فوات الأمر إياه وما نيل يوم السقيفة وبعده منه ، فوجد من ذلك في نفسه وأضمره ، حتى تمكّن من إظهاره في خلافة أمير المؤمنين ، وكما قيل : « عدوّ عدوّك صديق لك » .

* * *

[ذكر أبي أيوب الأنصاري ونسبه]

وأما أبو أيوب الأنصاريّ ، فهو خالد بن زيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجيّ ، من بني النّجار ، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد ، وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرج عن بني عمرو بن عوف ، حين قدم المدينة مهاجراً من مكة ، فلم يزل عنده حتى بنى مسجده ومساكنه ، ثم انتقل إليها ، ويوم المؤاخاة آخى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بينه وبين مُصْعَب بن عمير .

وقال أبو عمر في كتاب « الاستيعاب[1] » : إنّ أبا أيوب شهد مع عليّ عليه السلام مشاهده كلّها ، وروى ذلك عن الكلبيّ وابن إسحاق ، قالا : شهد معه يوم الجمل وصفّين ، وكان مقدّمته يوم النّهروان .

* * *

قوله « تختطفها الذئاب » ، الاختطاف : أخذك الشيء بسرعة ، ويروى « تتخطّفها » قال تعالى : تخافون أنْ ﴿ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾[2]

ويقال : إن هذه الخطبة آخر خطبة أمير المؤمنين عليه السلام قائماً .

(١) الاستيعاب ٦٢٠ .
(٢) سورة الأنفال ٢٦ .

(١٨٤)

الأصل:

من خطبة له عليه السلام:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، ٱلْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ، خَلَقَ ٱلْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَٱسْتَعْبَدَ ٱلْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ؛ وَسَادَ ٱلْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ؛ وَهُوَ ٱلَّذِى أَسْكَنَ ٱلدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَٱلْعُصَاةِ، مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ.

أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا ٱسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً.

• • •

الشرح:

المنصَبة، بالفتح والنَّصَب: التعب، والماضى نصِب بالكسرة، وهمّ ناصب فى قول النابغة:

* كِلِينِى لِهَمٍّ يا أُمَيمةَ نَاصِبِ[1] *

ذو نَصَب، مثل رجل تامر ولابِن، ويقال: هو «فاعل» بمعنى «مفعول فيه» لأنه يُنْصَب

---

(١) ديوانه ٢؛ وبقيته:

* وَلَيْـلٍ أُقَاسِيهِ بطىءِ ٱلْكَوَاكِبِ *

فيه ويُتعب ؛ كقولهم : ليل نائم ، أى يُنام فيه ، ويوم عاصف ؛ أى تعصف فيه الريح .

واستعبدت فلانا : اتّخذته عبداً . والضرّاء : الشدّة .

ومعتبر[1] : مصدر بمعنى الاعتبار . ومصاحّها : جمع مصحّة « مفعلة » من الصحة ، كمضارّ جمع مضرّة . ووصفه سبحانه بأنّه معروف بالأدلّة ؛ لا من طريق الرؤية كما تعرف المرئيّات ، وبأنّه يخلق الأشياء ولا يتعب كما يتعب الواحد منّا فيما يزاوله ويباشر من أفعاله . خلق الخلائق بقدرته على خلقهم ؛ لا بحركة واعتماد[2] . « وأسبغ النّعمة عليهم » : أوسعها . واستعبد الّذين يدّعون فى الدّنيا أربابا بعزّه وقهره .

وساد كلّ عظيم بسعة جوده ؛ وأسكن الدنيا خلقه ، كما ورد فى الكتاب العزيز : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[3] .

وبعث رسله إلى الجنّ والإنس ؛ كما ورد فى الكتاب العزيز : ﴿ يَامَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[4]

قال : « ليكشفوا لهم عن غطاء الدنيا » أى عن عوراتها وعيوبها المستورة ؛ وليحوّفوهم من مضرّتها وغرورها المفضى إلى عذاب الأبد .

وليضربوا لهم أمثالها ، كالأمثال الواردة فى الكتاب العزيز ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ .. » الآية[5] .

قوله : « وليهجموا عليهم » ؛ هجمت على الرّجل : دخلت عليه بغتة ؛ يقول : ليدخلوا عليهم بما فى تصاريف الدنيا ؛ من الصحّة والسّقم ، وما أحلّ وما حرّم على طريق الابتلاء .

---

(١) د : « بمعتبر » .

(٢ – ٢) هذا اللفظ وشرحه لم يرد فى الخطبة .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة الأنعام ١٣٠ .

(٥) سورة يونس ٢٤ .

ثم قال : « وما أعدّ الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة » ، يجوز أن تكون « ما » معطوفة على « عيوبها » ، فيكون موضعها نصباً ، ويجوز أن يكون موضعها جرّاً ، ويكون من تتمة أقسام ما يُعتَبَر به ، والأوّل أحسن .

ثم قال عليه السلام : إنى أحمد الله كما استحمد[1] إلى خلقه ، استحمد[1] إليهم فعلَ ما يوجب عليهم حمده .

ثم قال : إنّه سبحانه جعل لكل شئ من أفعاله قَدْراً ، أى فعله مقدّراً محدود الغرض ، اقتضى ذلك القدر وتلك الكيفية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[2] .

وجعل لكل شيء مقدّر وقتاً ينتهى إليه وينقطع عنده ؛ وهو الأجَل .

ولكلّ أجل كتابا ، أى رُقوماً تعرفها الملائكة فتعلم انقضاء عمر مَن ينقضى عمره ، وعَدَم ما ألطافهُم فى معرفة عدمه .

* * *

الأصْلُ :

منها فى ذكر القرآن :

فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ ؛ حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ ؛ أَتَمَّ نُورَهُ ، وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ .

فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً ، وَآيَةً مُحْكَمَةً ، تَزْجُرُ عَنْهُ ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ .

(١) ساقط من ب .
(٢) سورة الرعد ٨ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ .

قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى ، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ .

فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ ؛ إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً ، لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً ، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ ، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ .

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ ، وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ[1] إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالِارْتِحَالِ ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ .

* * *

الشرح

حمل القرآن آمراً وزاجراً ، لما كان خالقه — وهو الله سبحانه — آمراً زاجراً به ، فأسند الأمر والزجر إليه ؛ كما تقول : سيف قاطع ، وإنّ القاتل الضارب به ، وجعله صامتاً ناطقاً ؛ لأنه — من حيث هو حروف وأصوات — صامت ، إذ كان العرَض يستحيل أن يكون ناطقاً

(١) ا : « يسأل » .

لأنّ النطق حركة الأداة بالكلام، والكلام يستعمل أن يكون ذا أداة ينطق بالكلام بها ؛ وهو من حيث يتضمّن الإخبار والأمر والنهي والنداء وغير ذلك من أقسام الكلام، كالناطق ، لأنّ الفهم يقع عنده ، وهذا من باب المجاز كما تقول : هذه الربوع الناطقة ، وأخبرتني الديار بعد رحيلهم بكذا .

ثم وصفه بأنّه حجّة الله على خلقه ، لأنّه المعجزة الأصليّة .

أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقه ، وارتهن عليه أنفسهم ، لمّا كان سبحانه قد قرّر في عقول المكلّفين أدلّة التوحيد والعدل ، ومن جملة مسائل العدل النبوّة ، ويثبت نبوّة محمد صلى الله عليه وآله عقلا ، كان سبحانه بذلك كالآخذ ميثاق المكلّفين بتصديق دعوته ، وقبول القرآن الذى جاء ، وجعل به نفسهم رهناً على الوفاء بذلك ، فمن خالف خسِرَ نفسه ، وهلك هلاك الأبد .

هذا تفسير المحققين ، ومن الناس من يقول : المراد بذلك قصّة الذرّيّة قبل خلق آدم عليه السلام ، كما ورد في الأخبار ، وكما فسّر قوم عليه الآية .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى قبض رسوله صلى الله عليه وآله ؛ وقد فرّغ إلى الخلق بالقرآن من الإكمال والإتمام ، كقوله تعالى : ﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[1] ، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه .

قال : معظّموا من الله ما عظّم من نفسه ؛ لأنّه سبحانه وصفَ نفسه بالعظمة والجلال في أكثر القرآن ؛ فالواجب علينا أن نعظّمه على حَسَب ما عظّم نفسه سبحانه .

ثم علّل وجوب تعظيمه ، وحُسْنَ أمره لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يُخفِ عنا شيئاً من أمر ديننا ، وذلك لأنّ الشرعيّات مصالح المكلّفين ، وإذا فعل الحكيم سبحانه بنا

---

(١) سورة المائدة ٣ .

مافيه صلاحُنا ، فقد أحسنَ إلينا ، ومن جملة صلاحنا تعريفُنا من الشرعيّات ما فعله لطفٌ ومقض بنا إلى الثواب ، وهـذا أبلغ مايكون من الإحسان ، والمحسنُ يجب تعظيمه وشكره .

قال : لم يترك شيئا إلّا وجعل له نصًّا ظاهرا يدلّ عليه ، أو عَلَمًا يستدلّ به عليه، أي إمّا منصوص عليه صريحا ، أو يمكن أن يستنبط حكمه من القرآن إمّا بذكره أو بتركه فيبقى على البراءة الأصلية ، وحكم العقل .

قوله : « فرضاه فيما بقيَ واحد » معناه أنّ مالم ينص عليه صريحًا ، بل هو في محلّ النّظر ، ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه ، فيحلّه بعضهم ، ويحرّمه بعضهم ؛ بل رضا الله سبحانه أمرٌ واحد ، وكذلك سَخَطه ، فليس يجوز أن يكون شيءٌ من الأشياء يفتي فيه قوم بالحلّ وقوم بالحرمة ، وهذا قولٌ منه عليه السلام بتحريم الاجتهاد ، وقد سبق منه عليه السلام مثلُ هذا الكلام مرارا .

قوله : « واعلموا أنه ليس يرضى عنكم » ، الكلام إلى منتهاه ، معناه أنّه ليس يرضى عنكم بالاختلاف في الفتاوى والأحكام ، كما اختلف الأمم من قبلكم ، فسخط اختلافهم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[1] .

وكذلك ليس يسخطُ عليكم بالاتفاق والاجتماع الّذي رضيه ممّن كان قبلكم من القرون .

ويجوز أن يفسّر هذا الكلام بأنّه لايرضى عنكم بما سَخِطه على الّذين من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة في التوحيد والعدل، ولا يسخط عليكم بما تعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التي رضيها ممّن كان قبلكم في التّوحيد والعدل ، فيكون الكلام مصروفًا إلى الأصول لا إلى الفروع .

(١) سورة الأنعام ١٥٩ .

قال : « وإنما تسيرون فى أثر بيّن » ؛ أى أنّ الأدلّة واضحة ، وليس مراده الأمرَ بالتقليد ، وكذلك قوله « وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم » ، يعنى كلمةَ التوحيد « لا إله إلا الله » ، قد قالها الموحّدون من قبل هذه الملّة ، لا تقليداً ، بل بالنظر والدليل ، فقولوها أنتم كذلك !

ثم ذكر أنّه سبحانه قد كفى الخلق مؤونة دنياهم ؛ قال الحسن البصرىّ : إن الله تعالى كفانا مؤونة دُنيانا ، وحثّنا على القيام بوظائف ديننا ، فليته كفانا مؤونة ديننا ، وحثّنا على القيام بوظائف دنيانا .

قوله : « وافترض من ألسنتكم الذّكر » ؛ افترض عليكم أنْ تذكروه وتشكروه بألسنتكم ، و« من » متعلّقة بمحذوف دلّ عليه المصدر المتأخّر ؛ تقديره : « وافترض عليكم الذّكر من ألسنتكم الذكر » .

ثم ذكر أنّ التقوى المفترَضة هى رِضا الله وحاجته من خَلْقه ، لفظة « حاجته » مجاز ، لأنّ الله تعالى غنىٌّ غير محتاج ؛ ولكنه لما بالغ فى الحثّ والحضّ عليها ، وتوعّد على تركها جعله كالمحتاج إلى الشىء ، ووجهُ المشاركة أنّ المحتاج يحثّ ويحضّ على حاجته ، وكذلك الآمر المكلِّف إذا أكّد الأمر .

قوله : « أنتم بعينه » ؛ أى يعلم أحوالكم ، ونواصيكم بيده ؛ الناصية : مقدّم شعر الرأس ؛ أى هو قادر عليكم قاهرٌ لكم ، متمكّن من التصرّف فيكم ، كالإنسان القابض على ناصية غيره .

وتقلّبكم فى قبضته ، أى تصرّفكم تحت حكمه ، لو شاء أن يمنعكم منعكم ؛ فهو كالشىء فى قَبْضَة الإنسان ؛ إن شاء استدام القبض عليه ، وإنْ شاء تركه .

ثم قال : إن أسررتُم أمراً علمه ، وأن أظهرتموه كتبه ، ليس على أنّ الكتابة غيرُ العلم ، بل هما شىء واحد ؛ ولكنّ اللفظ مختلِف .

ثم ذكر أنّ الملائكة موكّلة بالمكلّف؛ وهذا هو نصّ الكتاب العزيز؛ وقد تقدّم القول فى ذلك.

ثم انتقل إلى ذكر الجنّة؛ والكلام يدلّ على أنّها فى السماء، وأنّ العرش فوقها.

ومعنى قوله: «اصطنعها لنفسه» إعظامُها وإجلالُها، كما قال لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾(١)؛ ولأنه لما تعارفَ النّاس فى تعظيم مايصنعونه؛ أن يقولَ الواحدُ منهم لصاحبه: قد وهبتك هذه الدّار التى اصطنعتُها لنفسى؛ أى أحكمتها، ولم أكن فى بنائها متكلّفًا بأن أبنيَها لغيرى، صحّ وحَسُن من البليغ الفصيح أن يستعيرَ مثل ذلك فيما لم يصطنعه فى الحقيقة لنفسه؛ وإنّما هو عظيم جليل عنده.

قوله: «ونورها بهجته»؛ هذا أيضا مستعار، كأنّه لما كان إشراقُ نورها عظيما جدًّا نسبه إلى بهجة البارئ، وليس هناك بهجة على الحقيقة؛ لأنّ البهجة حسن الخلقة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(٢)؛ أى من كلّ صنف حسن.

قوله: «وزوّارُها ملائكتُه» قد ورد فى هذا من الأخبار كثير جدًّا، ورفقاؤها: رسلُه، من قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا﴾(٣).

ويوشك، بكسر الشين، فعلٌ مستقبَل، ماضيه «أوشك»؛ أى أسرع.

ورهقه الأمر بالكسر: فاجأه.

ويُسَدّ عنهم باب التوبة، لأنه لا تقبل عند نزول الموت بالإنسان من حيث كان يفعلها خوفا فقط؛ لا لقبح القبيح، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْآنَ﴾(٤).

(١) سورة طه ٤١.
(٢) سورة ق ٧.
(٣) سورة النساء ٦٩.
(٤) سورة النساء ١٨.

وإنما قال : فى مثل ما سأل إليه الرجعة مَنْ كان قبلكم ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ● لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

وبنو سبيل : أرباب طريق مسافرون .

وأوذِنَ فلان بكذا : أُعلِم . وآذنته : أعمته .

وقد تقدّم لنا كلام بالغ فى التقوى وماهيتها وتأكيد وصاة الخالق سبحانه والرسول عليه الصلاة والسلام بها .

* * *

[نبذ وأقاويل فى التقوى]

روى المبرّد فى الكامل أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : اتق الله يا أمير المؤمنين ، فقال له رجل : أتألِتُ على أمير المؤمنين ؟ أى أتنتقصه (٢) ! ، فقال عمر : دَعْهُ ، فلا خيرَ فيهم إذا لم يقولوها ، ولا خيرَ فينا إذا لم تقُل لنا .

وكتب أبو العتاهية إلى سَهْل بن صالح (٣) ـ وكان مقيما بمكّة : أمّا بعد ، فإنا أوصيك بتقوى الله الذى لا غناء بك عن تقاته ، وأتقدّم إليك عن الله ، وأذكّرك مكرَ الله فيما دبَّتْ به إليك ساعات الليل والنهار ، فلا تخدعَنّ عن دينك ، فإنّ ساعاتك أوقاتك إن ظفرت بذلك منك ، وجدتَ الله فوقك أسرعَ مكرا ، وأنفذ فيك أمرا ، ووجدت ما مكرت به فى غير ذات الله غير رادّ عنك يدَ الله ، ولامانع لك من أمر الله ؛ ولعمرى لقد ملأتْ عينك الفكر واضطربت فى سمعك أصواتُ العبَر ؛ ورأيت آثار نِعَم الله نسخَتْها آثارُ نِقَمِه حين استُهزِئ بأمره ؛ وجُوهِر بمعاندته . ألا إنّ فى حُكْم الله

(١) سورة المؤمنين ٩٩ ، ١٠٠ . (٢) وانظر النهاية لابن الأثير ١ : ٣٨ .
(٣) د : « صاعد » .

أنه مَنْ أكرمه الله ، فاستهان بأمره ، أهانه الله . السَّعيد مَنْ وُعظ بغيره ، لا وعظك الله في نفسك ! وجعل عظتك في غيرك ، ولا جَعَل الدُّنيا عليك حسرة وندامة ، رحمته !

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا كرمَ كالتقوى ، ولا مال أعْوَد من العقل ، ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا عقل كالتدبير ، ولا قرين كحسْن الخُلُق ، ولا ميراث كالأدب ، ولا فائدة كالتوفيق ، ولا تجارة كالعمل الصالح ولا ربح كثواب الله ، ولا وَرَع كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهد كالزّهد في الحرام ، ولا عِلْمَ كالتفكّر ، ولا عبادة كأداء الفرائض ، ولا إيمان كالحياء والصبر ، ولا حَسَب كالتواضع ، ولا شرف كالعلم ، ولا مظاهرة أوثق من المشورة ؛ احفظ الرَّأس وما حوى ، والبطن وما وعَى ، واذكر الموت وطولَ البلى » .

***

الأصل :

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ ؛ فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا ، فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ ، ضَجِيعَ حَجَرٍ ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ !

أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ .

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ ؛ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ !

فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا .

أسْهِرُوا عُيُونَكُمْ ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) .

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً ، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣) .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ ؛ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

* * *

الشرح :

الرَّمضاء : الأرض الشديدة الحرارة ، والرَّمَض ، بالتحريك : شدّة وقع الشمس على الرّمل وغيره ، وقد رَمِضَ يومُنا بالكسر ، يرمض رَمَضاً : اشتدّ حرُّه ، وأرض رَمِضة الحجارة ، ورمِضتْ قدمُه من الرَّمضاء : احترقت .

---

(١) سورة محمد ٧ .
(٢) سورة البقرة ٢٤٥
(٣) سورة الحديد ٢١ .

والطابَق ، بالفتح : الآجرة الكبيرة ؛ وهو فارسيّ معرب .

وضجيع حَجَر : يومئ فيه إلى قوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[1] ، قيل: إنها حجارة الكبريت .

وقرين شيطان : يومئ فيه إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾[2] .

وحَطَمَ بعضُها بعضاً : كسره أو أكله ، والحطمة من أسماء النار ؛ لأنها تحطم ماتلقى ، ومنه سُمّيَ الرَّجلُ الكثير الأكل : حُطَمة .

واليفَن : الشيخ الكبير . ولهزه : خالطه ، ويقال له حينئذ : مَلْهوز ، ثم أشمط ، ثم أشيب . ولهزتُ القوم : خالطتهم ودخلت بينهم

والقتير : الشَّيْب ؛ وأصله رءوس المسامير فى الدُّرُوع تُسمَّى قتيرا .

والتحمت أطواق النار بالعظام : التفّتْ عليها ، وانضمّت إليها ، والتصقت بها .

والجوامع : جمع جامعة ، وهى الغُلّ لأنها تجمع اليدين إلى العنق .

ونَشِبت : علقتْ . والسواعد : جمع ساعد ، وهو الذراع .

و «فى» من قوله : «فى الصحة قبل السُّقْم » ، متعلقة بالمحذوف الناصب لله ، وهو اتقوا ، أى اتقوه سبحانه فى زمان صحتكم ، قبل أن ينزل بكم السُّقْم ، وفى فسحة أعماركم قبل أن تبدَّل بالضِّيق .

وفَكاك الرِّقاب : بفتح الفاء : فكّها قبل أن تغلَقَ رهائنها ، يقال غَلِقَ الرهْن ، بالكسر ؛ إذا استحقّه المرتهن بألّا يفُكّه الراهن فى الوقت المشروط ، وكان ذلك من شرع الجاهليّة ، فنهى عنه النبيّ صلى الله عليه وآله ، وقال : لايغلَقُ الرهن .

---

(١) سورة البقرة ٢٤ .
(٢) سورة ق ٢٣ .

وخذوا من أجسادكم ، أى أنضوها بالعبادة حتى تنحل .
والقُلّ : القِلّة . والذّل : الذِّلّة .
وحسيس النّار : صوتها . واللغوب : النَّصَب .

* * *

[طرف وأخبار]

ونظير قوله عليه السلام : « استقرَضَكم وله خزائن السموات والأرض » ، ما رواه المبرد فى " الكامل " عن أبى عثمان المازنىّ ، عن أبى زيد الأنصارىّ ، قال : وقف علينا أعرابىّ فى حَلْقة يونس [النحوىّ][1] ، فقال : الحمدُ لله كما هو أهله ، وأعوذ بالله أن أذكّر به وأنساه ، خرجنا من المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ، ثلاثين رجلاً ممّن أخرجته الحاجة ، وحُمِل على المكروه ، ولايُمرِّضون مرضاهم[2] ، ولايدفنون ميّتهم ، ولاينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه ، والله يا قوم لقد جُعْتُ حتى أكلتُ النّوى المحرق ، ولقد مشيت حتى انتعلتُ الدّم ، وحتى خرج من قدمى بَخَص[3] ولحم كثير ، أفلا رجلٌ يرحم ابن سبيل وفَلّ[4] طريق ، ونِضْوَ سَفَر ! فإنّه لاقليل من الأجر ، ولا غنى عن [ثواب][5] الله ، ولا عمل بعد الموت ، وهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الّذى

(١) من الكامل .
(٢) الكامل : « مريضهم » .
(٣) قال أبو العباس المبرد : قوله : « بخص » ؛ يريد اللحم الذى يركب القدم ؛ هذا قول الأصمعى . وقال غيره : هو لحم يخالطه بياض من فساد يحل فيه . ويقال : بخصت عينه — بالصاد — ولا يجوز الإدغام ويقال : بخسته حقه ؛ بالسين : إذا ظلمته ونقصته ؛ كما قال الله عزوجل : ﴿ ولاتبخسوا النّاس أشياءهم ﴾ وفى المثل : تحسبها حمقاء وهى باخس .
(٤) قال أبو العباس : الفل فى أكثر كلامهم المنهزم الذاهب ؛ وفى خبر كعب بن معدان الأشقرى : « إنا آثرنا الحد على الفل » .
(٥) من الكامل .

يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾[١] ؛ مَلِيٌّ وفيٌّ ماجد واجد ، [جواد][١] لا يستقرض من عَوَزٍ[٢] ؛ ولكنه يبلُو[٣] الأخيار[٤] .

قال المازنىّ : فبلغنى أنه لم يبرحْ حتى أخذ ستين دينارا .

ومن كلام على بن عبيدة الريحانىّ : الأيام مستودَعات الأعمال ، ونِعْمَ الأرضون هى لمن بذر فيها الخير والعمل الصالح !

وخطب الحجّاج ، فقال : أيّها الناس ، إنّكم أغراضُ حِمام وفُرَص هَلَكة . قد أنذركم القرآن ، ونادى برحيلكم الجديدان ! ها إنّ لكم موعداً لا تؤخَّر ساعتُه ، ولا تُدفَع هجمتُه ، وكأنْ قد دلَفت إليكم منازلُه ، فتعلّق بكم رَيْبُ المنون ، وعلقَتْ بكم أمّ اللُّهَيْم الحيزبون ؛ فماذا هيّأتُمْ للرّحيل ؟ وماذا أعددتم للتّنزيل ؟ مَنْ لَمْ يأخذ أهبة الحذَر ، نزل به مرهوب القَدَر !

• • •

[خطبة لأبى الشخباء العسقلانىّ]

قلت : وقد شُغِف الناس فى المواعظ بكلام كاتب محدث ؛ يعرف بابن أبى الشخباء

---

(١) سورة البقرة ٢٤٥ .

(٢) قال أبو العباس : « لا يستقرض من عوز » ؛ فالعوز تعذّر المطلوب ؛ يقال : أعوز فلان ؛ فهو معوز ؛ إذا لم يجد .

(٣) قال أبو العباس : قوله : « ولكن ليبلو الأخيار » ؛ يقال : الله يبلوهم ويبتليهم ويختبرهم فى معنى وتأويله يمتحنهم ؛ وهو العالم عز وجل بما يكون ، كعلمه بما كان ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ .

(٤) الخبر فى الكامل ١ : ٤٥١ — ٤٥٥ .

العسقلانيّ وأنا أورد هاهنا خطبة من مواعظه ، هي أحسن ماوجدتُه له ، ليعلَمَ الفرق بين الكلام الأصيل والمولّد :

أيها النّاس ، فُكّوا أنفسكم من حَلَقات الآمال المتعبة، وخفّفوا ظهوركم من الآصار المستحقبة ، ولا تسيمُوا أطماعكم في رياض الأماني المتشعّبة ، ولا تُميلوا صَغْوًا كُم إلى زبارج الدنيا المحبّبة ، فتظلّ أجسامكم في هشائمها عاملةً ناصبة ! أما علمتم أنّ طباعها على الغدر مركّبة ، وأنّها لأعمار أهلها منتهبة ، ولِما ساءهم منتظرة مرتقبة ، في هِبَتِها راجعة متعقّبة ! فانضوا رحمكم الله ركائبَ الاعتبار مشرّقة ومغرّبة ، وأجرُوا خيول التفكّر مصعّدة ومصوّبة : هل تجدون إلا قصورا على عروشها خَرِبة ، وديارا معطّلة من أهلها مجدبة ! أين الأمم السالفة المتشعّبة ، والجبابرة الماضية المتغلّبة ، والملوك المعظّمة المرجّبة، أولو الحَفَدَة والحجبة ، والزّخارف المعجبة ، والجيوش الجرّارة اللجبة، والخيام المضفاضة المطنّبة ، والجياد الأعوجيّة المجنّبة ، والمصاعب الشدقيّة المُصحبة ، والقنان المثقّفة الدّربة ، والماذيّة الحصينة المنتخبة ، طرقت والله خيامهم غير منتهبة ، وأزارتهم من الأسقام سيوفاً مُعطبة ، وسيّرت إليهم الأيامُ من نُوَبِها كتائب مكتّبة ، فأصبحَتْ أطمارُ نعمتهم من مُهَجِهم فانية مختضبة ، وعدت أصوات النادبات عليهم مجلبة ، وأكلت لحومَهم هوامّ الأرض السّغبة . ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبل فيه عُذرٌ ولا معتبة ، وتجازى كلُّ نفس بما كانت مكتسبة ، فسعيدة مقرّبة تجري من تحتها الأنهار مثوّبة ، وشقيّة معذّبة في النار مكبكبة .

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب . وهي كما تراها ظاهرة التكلّف ، بيّنة التوليد، تخطب على نفسها ، وإنّما ذكرتُ هذا ، لأنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من "نهج البلاغة" كلام محدَث ، صنعه قومٌ من فُصحاء الشيعة ، وربما عزَوْا بعضه إلى الرضيّ أبي الحسن وغيره ، وهؤلاء قوم أعمت العصبيّةُ أعينهم، فضلوا عن النهج الواضح

وركبوا بُنيّات(1) الطريق ، ضلالا وقلة معرفة بأساليب الكلام ، وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول :

***

[رأى للمؤلف فى كتاب نهج البلاغة]

لا يخلو إما أن يكون كلّ " نهج البلاغة " مصنوعا منحولاً ، أو بعضه . والأول باطل بالضرورة لأنّا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد نقل المحدّثون كلّهم أو جلّهم ، والمؤرّخون كثيرا منه ، وليسوا من الشيعة لينسُبُوا إلى غرض فى ذلك . والثانى يدلّ على ما قلناه ؛ لأن مَنْ قد أنِسَ بالكلام والخطابة ، وشدَا طرَفاً من علم البيان ، وصار له ذوق فى هذا الباب لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح ، وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولّد ، وإذا وقف على كرّاس واحد يتضمن كلاماً لجماعة من الخطباء ، أو لاثنين منهم فقط ؛ فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين ، ويميّز بين الطريقتين . ألا ترى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده ، لو تصفّحنا ديوان أبى تمام ؛ فوجدناه قد كتب فى أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره ، لعرفنا بالذّوق مباينتها لشعر أبى تمام ونَفَسه ، وطريقته ومذهبه فى القريض ، ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه ؛ لمباينتها لمذهبه فى الشعر ، وكذلك حذَفُوا من شِعْر أبى نُوَاس شيئاً كثيرا ؛ لِمَا ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ، ولا من شعره ، وكذلك غيرُهما من الشعراء ، ولم يعتمدوا فى ذلك إلا على الذّوق خاصة .

وأنت إذا تأملت " نهج البلاغة " وجدته كلّه ماء واحداً ، ونَفَساً واحدا ، وأسلوباً واحدا ، كالجسم البسيط الذى ليس بعضٌ من أبعاضه مخالفاً لباقى الأبعاض فى الماهيّة ، وكالقرآن العزيز ، أوّله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكلّ سورة منه ، وكل آية مماثلة فى

(١) يقال : ركب بنيات الطريق ، أى ضل ؛ وأصل البنيات : الطرق الصغار ، ثم أطلقت على الترهات .

المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقِي الآيات والسُّور ؛ ولو كان بعض " نهج البلاغة " منحولًا وبعضه صحيحاً، لم يكن ذلك كذلك؛ فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلالُ مَنْ زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضَه منحولٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرُق على نفسه ما لا قِبَلَ له به ، لأنّا متى فتحنا هذا الباب ، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا فى هذا النّحْو ، لم نثِقْ بصحة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً ، وساغ لطاعنٍ أن يطعن ويقول : هذا الخبر منحول؛ وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نقل عن أبى بكر وعمر من الكلام والخُطب والمواعظ والأدب وغير ذلك ، وكلّ أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وآله ، والأئمة الراشدين ، والصحابة والتابعين ، والشعراء والمترسّلين ، والخطباء ؛ فلناصِرِى أميرِ المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مِثْله فيما يروونه عنه من " نهج البلاغة " وغيره ، وهذا واضح .

(١٨٥)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله للبُرج بن مُسْهِر الطائى ، وقد قال له بحيث يسمعه : « لاحكمَ إلا الله » ، وكان من الخوارج :

اسْكُتْ قَبَحَكَ[1] اللهُ يَا أَثْرَمُ ، فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ ، خَفِيًّا صَوْتُكَ ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ ، نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ .

• • •

الشَّـرْحُ :

البرج بن مُسْهِر — بضم الميم وكسر الهاء — بن الجُلاس بن وهب بن قيس بن عبيد بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندَب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طىّ بن داود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . شاعر مشهور من شعراء الخوارج ، نادى بشعارهم بحيث يسمعه أمير المؤمنين عليه السلام ، فزجره .

وقَبَحَك الله : لفظة معناها كَسَرك ، يقال : قَبَحْتُ الجوْزة ؛ أى كسرتها ، وقيل : قَبَحه : نحّاه عن الخير . وكان البرجُ ساقطَ الثَّنيّة ، فأهانه بأن دعاه به ، كما يُهان الأعور بأن يقال له : يا أعور .

والضئيل : الدقيق الحقير ، ضَؤُل الرجل ، بالضم ضآلة : نَحُفَ ، وضَؤُل رأيه : صَغُر ، ورجل متضائل ، أى شَخْت ، وكذلك : « ضُؤَلة » .

---

(١) مخطوطة النهج : « قبحك » بالتشديد .

ونَعَر الباطل : صاح ، والمراد أهلُ الباطل ، ونَعَرَ فلان فى الفتنة : نهض فيها .

ونجَم : طلع ، أى طلع بلا شرف ولا شجاعة ولا قدم ، بل على غفلة ، كما ينبت قرن الماعز . وهذا من باب البديع ؛ وهو أنْ يشبّه الأمر يراد إهانته بالمهين ، ويشبّه الأمر يراد إعظامه بالعظيم ، ولو كان قد تكلّم فى شأن ناجم يريد تعظيمه ، لقال : نجم نجوم الكوكب من تحت الغمام ، نجومَ نَوْر الربيع من الأكَم ، ونحو ذلك .

(١٨٦)

الأمثلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

رُوِى أنّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همّامٌ ، كان رجلاً عابداً ، فقال له: يا أمير المؤمنين : صِفْ لى المتّقين حتى كأنّى أنظر إليهم ، فتثاقلَ عليه السلام عن جوابه ، ثم قال: يا همّامُ اتقِ الله وأحسن: فـ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾[1].

فلم يقنعْ همّامٌ بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمِد الله وأثنى عليه وصلّى على النبى صلى الله عليه وآله .

ثم قال عليه السلام :

أمّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالَى خَلَقَ الْخَلْقَ ـ حِينَ خَلَقَهُمْ ـ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ ؛ لأَنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ ، وَلا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ .

غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ . نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِى الْبَلاءِ ، كَالَّتِى نُزِّلَتْ فِى الرَّخَاءِ ، لَوْلا الأَجَلُ الَّذِى كَتَبَ اللهُ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِى أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ .

---

(١) سورة النحل ١٢٨

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ . قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ .

صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً ، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً . تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ . أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا .

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا ؛ يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ ؛ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا ، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ ؛ وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ .

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ، وَيَقُولُ : لَقَدْ خُولِطُوا ! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ! لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ ؛ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي !

اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ !

* * *

الشرح :

همّام المذكور فى هــذه الخطبة : هو همّام بن شُريح بن يَزيد بن مرّة بن عمرو بن جابر بن يحيى بن الأصهب بن كَعْب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذُهْل بن مُرّان بن صيفيّ بن سعدالعشيرة .

وكان همّام هــذا من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه ، وكان ناسكاً عابداً ، قال له : ياأميرَ المؤمنين ، صِفْ لى المتّقين حتى أصيرَ بوصفك إيّاهم ، كالناظر إليهم .

فتثاقل عن جوابه ، أى أبطأ .

فعزم عليه ، أىأقسم عليه ، وتقوللمن يكرّر عليكَ الطّلب والسّؤال : قد عزم علىّ ، أى أصرّ وقَطع ، وكذلك تقول فى الأمر تُريد فعلَه وتَقْطَع عليه : عزمت عَزْماً وعَزْماناً وعَزِيمة وعزيماً .

فإن قلت : كيف جازَ له عليه السّلام أن يتثاقل عن جواب المسترشِد ؟

قلت : يجوز أن يكون تثاقل عن جوابه ؛ لأنّه علم أنّ المصلحة فى تأخير الجواب ، ولعلّه كان حضر المجلس مَنْ لايجبُ أن يجيبَ وهو حاضر ، فلمّا انصرف أجاب ، ولعلّه رأى أنّ تثاقله عن الجواب يشدّ تشوّقَ همّام إلى سماعه ، فيكون أنجعَ فى موعظته ، ولعلّه كان من باب تأخير البيان إلى وقت الحاجة ؛ لامن باب تأخير البيان عَنْ وقت الحاجة ، ولعلّه تثاقل عن الجواب ليرتّب المعانىَ الّتى خطرت له فى ألفاظ مناسبة لها ، ثم ينطق بها كما يفعله المتروى فى الخطبة والقريض

فإن قلت : فما معنى إجابته له أولا بقوله : ياهمّام ، اتّقِ الله وَأحْسِنْ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ؟ وأىّ جواب فى هذا عن سؤال همام ؟

قلت : كأنّه لم ير فى بادئ الحال شرح صفات المتّقين على التفصيل ، فقال لهمام : ماهيّة التقوى معلومة فى الجملة ، فاتّق الله وأحسن ؛ فإنّ الله قد وَعَد فى كتابه أن يكون وليًّا وناصرا لأهل التقوى والإحسان ، وهذا كما يقول لك قائل : ما صفاتُ الله الّذى أعْبُده أنا والناس ؟ فتقول له : لاعَلَيْك ألّا تعرف صفاته مُفَصّلة ، بعد أن تعلَمَ أنّه خالق العالم ، وأنّه واحدٌ لا شريك له ! فلما أبى همّام إلّا الخوض فيا سأله على وجه التّفصيل ، قال له : إنّ الله تعالى خَلَق الخلق حين خلقهم ، ويروى : « حيث خلقهم » وهو غَنِىٌّ عن طاعتهم ؛ لأنّه ليس بجسم فيستضرّ بأمر أو ينتفع به .

وقسَم بين الخلق معايشهم ، كما قال سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١) .

وفى قوله : « ووضعهم مواضعهم » معنى قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (١) ، فكأنّه عليه السلام أخذ الألفاظ ، فأتى بمعناها .

فلما فرغ من هذه المقدّمة شرَع فى ذكر صفات المتقين ، فقال : إنّهم أهلُ الفضائل . ثم بيّن ماهذه الفضائل ، فقال : « منطقهم الصواب » .

فإن قلت : أىّ فائدة فى تقديم تلك المقدّمة ، وهى كون البارئ سبحانه غنيًّا لاتضرّه المعصية ، ولا تنفعه الطاعة !

قلت : لأنّه لما تضمّنت الخطبة مدحَ الله تعالى المتقين وما أعدّه لهم من الثواب ، وذمّه للعاصين وما أعدّه لهم من العقاب العظيم ، ربّما يتوهّم متوهّم أنّ الله تعالى مارغّب فى الطّاعة

---

(١) سورة الزخرف ٣٢

هذا الترغيب البالغ ، وخوّف من المعصية هذا التخويف البالغ ، إلّا وهو منتفع بالأولى ، مستضرٌ بالثانية ، فقدّم عليه السلام تلك المقدّمة نفياً لهذا الوهم .

* * *

[فصل فى فضل الصمت والاقتصاد فى المنطق]

واعلم أنّ القول فى خَطَر الكلام وفضل الصّمت وفضل الاقتصار فى النطق وسيعٌ جدًّا ، وقد ذكرنا منه طرَفاً فيما تقدّم ، ونذكر الآن منه طرفاً آخر .

قال النبىّ صلى الله عليه وآله : « مَنْ صَمَتَ نجا » .

وقال أيضاً : « الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله » .

وقال له صلى الله عليه وآله بعضُ أصحابه : أخبرنى عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك ، فقال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » قال : فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه .

وقال له عليه السلام عُقْبة بن عامر : يارسولَ الله ، ما النّجاة ؟ قال : « املِكْ عليكَ لسانك [1] ، وابكِ على خطيئتك ؛ وليسعْكَ بيتُك » .

وَرَوَى سهل بن سعد الساعدىّ ، عنه صلى الله عليه وآله : « من يتوكّلْ لى بما بين لَحْيَيْه ورجْلَيْه أتوكّل له بالجنة » .

وقال : « مَنْ وُقِيَ شَرَّ قَبقَبِه [2] وَذَبذَبِه [3] ولَقلَقِه [4] فقد وُقِيَ » .

وروى سَعِيد بن جُبَير مرفوعا : « إذا أصبح ابنُ آدم أصبحتِ الأعضاء كلّها تشكو

---

(١) املك عليك لسانك ؛ أى لا تحركه إلا بما يكون لك لا عليك .

(٢) القبقب : البطن ؛ من القبقبة ؛ وهى صوت يسمع من البطن فكأنها حكاية ذلك الصوت النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٢٥ .

(٣) ذبذبه ، أى ذكره . وانظر النهاية لابن الأثير ٢ : ٤٣ .

(٤) اللقلق : اللسان . النهاية لابن الأثير ٤ : ٩٤ ؛ قال : ومنه حديث عمر : ما لم يكن نقع ولا لقلقة » ؛ أراد الصياح والجلبة عند الموت ؛ وكأنها حكاية الأصوات الكثيرة

اللسان ، تقول : أى بنى آدم ، اتّق الله فينا ؛ فإنّك إن استقمْتَ استقمنا ، وإن اعوججْتَ اعوججْنا » .

وقد رُوى أنّ عمر رأى أبا بكر وهو يمدّ لسانه ، فقال : ما تصنع ؟ قال : هذا الّذى أوردنى الموارد ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « ليس شىء فى الجسد إلّا يشكو إلى الله تعالى اللّسان عَلَى حِدّته » .

وسُمِعَ ابنُ مسعودٍ يُلَبِّى عَلَى الصَّفا ، ويقول : يالسانُ ، قلْ خيراً تَغْنَم ، أواصمت تَسْلَمْ من قبل أن تندم . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، أهذا شىء سمعته ، أم تقوله مِنْ تلقاء نَفْسِك ؟ قال : بل سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « أكثر خطايا ابن آدم من لسانه » .

وروى الحسن مرفوعا : « رحم الله عبداً تكلّم فغنم ، أوسكت فسَلِم » .

وقالت التلامذةُ لعيسى عليه السلام : دلَّنا على عملٍ ندخل به الجنة ، قال : لاتنطقوا أبدا ، قالوا : لا نستطيع ذلك ، قال : فلا تنطقوا إلّا بخير .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله عند لسان كلّ قائل ، فاتّقى الله امرؤ على ما يقول » .

وكان يقول : لاشىء أحقّ بطولِ سجنٍ من لسان .

وكان يقال : لسانك سَبُع ، إن أطلقتَه أكلكَ .

فى حكمة آل داود : حقيقٌ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شانه .

وكان يقال : مَنْ عَلِمَ أنّ كلامه من عمله ، أقلّ كلامَه فيما لاينفعه .

وقال محمد بن واسع : حفْظُ اللّسان أشدّ على النّاس من حفظ الدينار والدرهم .

اجتمع أربعةُ حكماء : من الرّوم ، والفرس ، والهند ، والصين ، فقال أحـدهم : أنا أندمُ على ماقلتُ ولا أندم على مالم أقل : وقال الآخر : إذا تـكلّمتُ بالـكلمة ملـكتْنى، ولم أملِكها ، وإذا لم أتـكلّم ملـكتُها ولم تملِكْنى . وقال الآخر : عجبْتُ للمتـكلّم ؛ إن رجعتْ عليه كلمته ضرّته ، وإن لم ترجع لم تنفعه ، وقال الرّابع : أنا على ردّ مالم أقل أقدرُ منّى على ردّ ماقلت .

* * *

[ذكر الآثار الواردة فى آفات اللسان]

واعلم أنّ آفاتِ اللّسان كثيرة :

فمنها الـكلام فيما لايعنيك ؛ وهو أهونُ آفاتِ اللّسان ، ومع ذلك هو عَيْبٌ ، قال النبىّ صلى الله عليه وآله : « مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه مالا يعنيه » .

وروى أنّه عليه السـلام مرّ بشهيد يوم أُحُد ، فقال أصحابه : هنيئا له الجنّة ! قال : وما يدريكم لعلّه كانَ يتـكلّم فيما لايعنيه !

وقال ابنُ عباس : خمسٌ هى أحسنُ وأنفعُ من حُمْرِ النَّعم :لاتتـكلّمْ فيمالايعنيك، فإنّه فضل لا آمن عليه الوزْر . ولا تتـكلّم فيما يعنيك حتى تجدَ له موضعا، فربّ متـكلّم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فأساء . ولا تُمارِ حليما ولاسفيها ،فإنّ الحليم يَقْليكَ، والسفيه يُؤْذيك . واذكر أخاك إذا تغيّب عنك ماتحبّ أن يذكرك به ، وأعفه عمّاتحبّ أن يُعْفيَكَ عنه . واعمل عمل رجلٍ يرى أنّه مجازًى بالإحسان ، مأخوذ بالجرائم .

* * *

ومنها فضولُ الـكلام وكثرته ، وتركُ الاقتصار؛ وكان يقال :فضول المنطق وزيادته نَقْص فى العقل ، وهما ضدّان متنافيان ، كلّما زاد أحدُهما نقص الآخر .

وقال عبدُالله بن مسعود : إيّاكُمْ وفضول الكلام ؛ حَسْبُ امرئٍ ما بلغ به حاجته .

وكان يقال : مَنْ كثر كلامُه كثر سقطُه .

وقال الحسن : فضولُ الكلام كفضول المال ، كلاهما مهلك

* * *

ومنها الخوض في الباطل ، والحديث فيما لا يحل ، كحديث النساء ومجالس الخمر . ومقامات الفُسّاق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ ﴾ (١) .

* * *

ومنها المِراء (٢) والجدال ، قال عليه السلام : « دَعِ المِراء وإن كنت محقًّا » .

وقال مالك بن أنس : المِراء يقسّي القلب ، ويورث الضغائن .

وقال سُفيان الثوريّ : لو خالفتُ أخي في رُمّانة فقال : حُلْوة ، وقلت: حامضة ، لَسَعَى بي إلى السلطان .

وكان يقال : صافِ مَنْ شئت ثم أغضبه بالجدال والمِراء ؛ فليرمينّك بداهية تمنعك العيش .

وقيل لميمون بن مِهْران : مالك لا تفارق أخا لك عن قِلًى؟ قال : لأنّي لا أشاريه ، ولا أماريه .

* * *

ومنها التقعّر في الكلام بالتشدّق ، والتكلّف في الألفاظ ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله

(١) سورة المدثر ٤٥ .
(٢) المراء ، وفعله مارى يمارى : كثرة المنازعة والمجاجة في القول

« أبغضكم إلىّ ، وأبعدُكم منّى مجالسَ يوم القيامة الثَّرثارون[١] المتفيهقون[٢] المتشدِّقون[٣] » .
وقال عليه السلام : « هلكَ المتنطِّعون . . . » ، ثلاث مرات ، والتنطّع : هو التعمّق والاستقصاء .

وقال عمر : إن شَقَاشِقَ الكلام من شقاشق الشيطان .

• • •

ومنها الفُحش والسبّ والبَذاء[٤] قال النّبي صلى الله عليه وآله : « إيّاكم والفُحْش ؛ فإنّ الله لا يحبّ الفحش ، ولا يرضى الفُحش » .
وقال عليه السلام : « ليس المؤمنُ بالطّعان ، ولا اللعان ، ولا بالسبّاب ، ولا البذيء » .
وقال عليه السلام : « لو كان الفُحْشُ رجلًا لكان رجل سوء » .

• • •

ومنها المُزاح الخارج عن قانون الشريعة ، وكان يقال : مَنْ مزح استُخِفَّ به .
وكان يقال : المُزاح محل لا ينتج إلا الشرّ .

• • •

ومنها الوعد الكاذب ؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله : العِدَة دين ، وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل ، فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾[٥] ، وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[٦] .

• • •

(١) الثرثارون : الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق ، وأصله من العين الواسعة من عيون الماء ، يقال : عين ثرثارة .
(٢) المتفيهقون ، أصله من قولهم : « فهق الغدير يفهق ، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد » .
(٣) المتشدقون : المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز ، وقيل : « أراد بالمتشدق : المستهزئ بالناس ، يلوي شدقه بهم وعليهم » .
(٤) البذاء ، بالفتح : السفه والفحش في المنطق .
(٥) سورة مريم ٥٤ .
(٦) سورة المائدة ١ .

ومنها الكذب في القول واليمين ، والأمر فيهما مشهور .

* * *

ومنها الغيبة ، وقد تقدم القول فيها .

* * *

قوله عليه السلام : « وملبسهم الاقتصاد » ؛ أي لبس بالثمين جداً ، ولا بالحقير جداً ، كالخِرَق التي تُؤْخَذُ من مَلْقَى المزابل ؛ ولكنه أمرٌ بين أمرين ؛ وكان عليه السلام يلبس الكَرَابيسَ ، وهو الخام الغليظ؛ وكذلك كان عمر رضي الله عنه . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبَسُ اللَّيِّنَ تارةً ، والخشِنَ أخرى .

قوله عليه السلام : « ومَشْيُهم التواضع » ؛ تقديره : ومِشيةُ مشيهم التواضع ، فحذف المضاف ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾(١) .

رأى محمد بن واسع ابناً له يمشي، وهو يتبختَرُ ويميس في مِشْيَتِه، فصاح به ، فأقبل، فقال له : وَيْلَكَ ! لو عرفتَ نفسك لقَصَدْتَ في مَشْيك ، أما أمُّكَ فأَمَةٌ ابتعتُها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في الناس من أمثاله !

والأصل في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ﴾(٢) .

وقوله : « غَضُّوا أبصارهم » أي خَفَضُوها وغَمَضُوها ، وغضضت طرفي عن كذا : احتملت مكروهه .

وقوله : « وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم » أي لم يشغلوا سمعَهم بشيء غير العلوم النافعة ؛ أي لم يشتغلوا بسماع شِعْرٍ ولا غناء ولا أحاديث أهل الدنيا .

(١) سورة لقمان ١٩ .
(٢) سورة الإسراء ٣٧ .

قوله : « نُزِّلت أنفسهم منهم فى البَلاء ، كالّذى نُزِّلت فى الرخاء » ، يعنى أنّهم قد طابوا نفسا فى البلاء والشدّة كطيب أنفسهم بأحوالهم فى الرّخاء والنعمة ؛ وذلك لقلّة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها ، وتقدير الكلام من جهة الاعراب : نُزِّلَتْ أنفُسهم منهم فى حال البلاء نزولا كالنُّزُول الذى نزلته منهم فى حال الرَّخاء ، فوضع « كالذى » نصب ؛ لأنه صفة مصدر محذوف ، والموصول قد حذف العائد إليه ، وهو الهاء فى « نزلته » كقولك : ضربت الذى ضربت ؛ أى ضربت الذى ضربته .

ثم قال عليه السلام : إنّهم من شدّة شوقهم إلى الجنة ، ومن شدة خوفهم من النار ، تكاد أرواحهم أن تفارق أجسادهم ، لولا أنّ الله تعالى ضرب لهم آجالا ينتهون إليها .

ثم ذكر أنّ الخالقَ لمّا عظُم فى أعينهم استصغروا كلَّ شىء دونه ، وصاروا لشدّة يقينهم ومكاشفتهم ، كمن رأى الجنّة فهو يتنعّم فيها ، وكمن رأى النار وهو يعذّب فيها ، ولا ريبَ أنّ منْ يشاهد هاتين الحالتين ، يكون على قَدَم عظيمة من العبادة والخوف والرجاء ، وهو مقام جليل ، ومثله قوله عليه السلام فى حق نفسه : « لو كُشِفَ الغطاء ماازددتُ يقينا » . والواو فى « والجنة » واو « مع » ، وقد روى بالعطف بالرفع على أنه معطوف على « هم » ، والأوّل أحسن .

ثم وصفهم بحزن القلوب ، ونحافة الأجسام ، وعفّة الأنفس وخفّة الحوائج ، وأنّ شرورهم مأمونة على الناس ، وأنهم صَبَرُوا صبراً يسيرا أعقبهم نعيا طويلا .

ثم ابتدأ وقال : تجارة مربحة ، أى تجارتهم تجارة مربحة ، فحذف المبتدأ . وروى : « تجارةً مربحةً » ، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل .

قوله : « أمّا الليلَ » بالنصب على الظرفية ، وروى « أمّا اللّيلُ » على الابتداء .

قوله : « تالين » ؛ منصوب على أنّه حال ؛ إمّا من الضمير المرفوع بالفاعلية فى « صافّون » أو من الضمير المجرور بالاضافة فى : « أقدامهم » .

والترتيل: التبيين والإيضاح؛ وهو ضدّ لإسراع والعَجَل ويروى: «يرتلّونه» على أنّ الضمير يعود إلى القرآن، والرواية الأولى يعود الضمير فيها إلى أجزاء القرآن.

قوله: «يحزنون به أنفسهم»، أي يستجلبون لها الحُزن به، ويستثيرون به دواء دائهم؛ إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْبُكَاءَ لَرَاحَةٌ به يشتفي من ظنّ أنْ لاتلاقيا

وقال آخر:

شَجَاكَ مِنْ لَيْلِكَ الطُّولُ فالدَّمْعُ من عينَيْك مَسْدُولُ
وهو إذا أنتَ تأمَّلْتَهُ حُزْنٌ على الخدَّين مَحلولُ

ثم ذكر أنّهم إذا مرّوا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها، واطمأنّوا بها، طمعا في نيله، وتطلّعت أنفسُهم إليها شوقًا، أي اشرأبّت.

«ونصبُ أعينهم» منصوب على الظرفية، ورُوي بالرفع؛ على أنه خبر إنّ؛ والظن هاهنا يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يكون بمعنى العلم، كقوله تعالى ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾⁽¹⁾.

وأصغى إلى الكلام: مال إليه بسمعه. وزفيرُ النّار: صوتها

وقد جاء في فضل قراءة القرآن شيء كثير، روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أنّ أحـدًا أوتي أفضلَ ممّا أوتي فقد استصغر ماعظّمه الله».

وقال صلى الله عليه وآله: «لو كان القرآن في إهاب مامسّته النار».

وقال: «أفضلُ عبادة أمّتي قراءة القرآن».

---

(١) سورة المطففين ٤.

وقال : « أهلُ القرآن أهل الله وخاصّته » .

وقال : « إنّ هذه القلوبَ تصدأ كما يصدأ الحديد » ، قيل : فما جِلاؤها ؟ قال : « تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقال عليه السلام : « إنّ الله سبحانه لأشدّ أَذَنًا[1] إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قَيْنته » .

وقال الحسن رحمه الله : مادون القرآن من غنًى ، ولا بعد القرآن من فاقة .

• • •

ثم ذكر عليه السلام صورة صلاتهم وركوعهم ، فقال : « حانُون على أوساطهم » : حَنَيْتُ العُود : عطفته ، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم في الصلاة .

مفترشُون لجباههم : باسطون لها على الأرض .

ثم ذكر الأعضاء السبعة التي مباشرتُها الأرضَ فروضٌ في الصلاة ، وهي : الجبهة ، والكَفّان ، والرّكبتان ، والقَدَمان .

قوله عليه السلام : « يطلُبون إلى الله » ، أي يسألونه ، يقال : طلبتُ إليك كذا ، أي سألتُك ، والكلام على الحقيقة ، مقدّرٌ فيه حال محذوفة يتعلّق بها حرف الجرّ ، أي يطلبون سائلين إلى الله في فكاك رقابهم ؛ لأنّ « طلب » لا يتعدّى بحرف الجرّ .

ثم لما فرغ من ذكر الليل ، قال : « وأمّا النّهار فحلماء ، علماء ، أبرار أتقياء » ، هذه الصّفات هي التي يطلع عليها الناظرون لهم نهارا ، وتلك الصفات المتقدّمة من وظائف الليل .

ثم ذكر ماهمْ عليه من الخوف ، فقال عليه السلام : « إنّ خوفَهُم قد براهُم بَرْيَ

---

(١) الأذن : الاستماع .

القداح»، وهى السّهام ، واحدها قِدْح ، فينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ومابهم من مرض ، نظير هذا قول الشاعر[١]

وَتُخَرّقِى عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ   بَيْنَ الْبُيُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمَا[٢]

حَتَّى إِذَا رُفِعَ اللِّوَاءُ رَأَيْتَهُ   تَحْتَ اللِّوَاءِ عَلَى الْخَمِيسِ زَعِيمَا[٣]

ويقال للمتقين لشدّة خوفهم : كأنهم مَرْضَى، ولا مَرَضَ بهم . وتقول العرب للكرام من النّاس ، القليل الأكل والمشرب ، رافعى اللباس الرفيع ، ذوى[٤] الأجسام النحيفة : يراضٌ من غير مرض ، ويقولون أيضا للمرأة ذات الطَّرْف الغضيض الفاتر ، ذات الكَسَل : مريضة من غير مرض ، قال الشاعر :

ضعيفة كَرِّ الطَّرْفِ تحسبُ أنّها . حَدِيثَةُ عَهْدٍ بِالإِفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ

***

(١) من أبيات لليلى الأخيلية ، ذكرها أبو تمام فى الحماسة ٤ : ١٦٠٧ ـ بشرح التبريزى ، أولها :

يَأَيُّهَا السَّدِمُ الملوى رَأْسَهُ   لِيَقُودَ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ بَرِيمَا

أَتُرِيدُ عَمْرَو بنَ الخليع ودونَهُ   كَعْبٌ ، إِذًا لَوَجَدْتَهُ مَرْءُومَا

وفى أمالى القالى ١ : ٢٤٨ : « كان الأصمعى يرويها لحميد بن ثور الهلالى » . وانظر تنبيهات البكرى ٧٨ .

(٢) قال التبريزى : « أى لايبالى كيف كان ثيابه لأنه لايربى جسمه ، إنما يربى حسبه ويصون كرمه ، وقيل : معناه أنه غليظ المناكب ، وإذا كان كذلك أسرع الخرق إلى قميصه ، وقيل : أرادت أنه كثير الغزوات متصل الأسفار ، فقميصه منخرق لذلك . وقولها . « من الحياء سقيما » ، تعنى أنه يتقنع لونه من شدة الحياء ، وإنما يستحيى من ألا يكون قد بلغ من المكارم مايروم ما فى حسبه » .

(٣) الخميس : الجيش؛ لأنه يكون من خمس كتائب ، أو خمسة صفوف: المقدمة ، والميمنة ، والميسرة، والقلب ، والساقة . وسمى الرئيس زعيما ، لأنه يزعم عن قومه ، أى يقول .

(٤) ب : « ذو » ، وصوابه من د .

[ذكر الخوف وما ورد فيه من الآثار]

واعلم أنّ الخوفَ مقامٌ جليل من مقامات العارفين ، وهو أحد الأركان التي هي أصولُ هذا الفنّ ؛ وهو التَّقْوى التي حثّ الله تعالى عليها ، وقال : إنّ أكرَم الناس عنده أشدُّهم خوفاً له ، وفي هذه الآية وحدها كفاية ، وإذا نظرت القرآن العزيز وجدتَ أكثرهُ ذِكرَ المتقين ، وهم الخائفون ، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « مَنْ خافَ اللهَ خافَهُ كلُّ شيء ، ومَنْ خاف غيرَ الله خوَّفه الله من كلّ شيء » .

وقال عليه السّلام : « أتمّكُمْ عقلاً أشدُّكم لله خوفاً ، وأحسنُكم فيما أمرَ به ونهى عنه نظراً » .

وقال يحيى بن مُعاذ : مِسكين ابن آدم ، لو خاف النّار كما يخاف الفقر ، دخل الجنة .
وقال ذُو النّون المصريّ : ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ من الرّجاء ؛ فإنّ الرّجاء إذا غلب تشوّش القلب .

وقيل لبعض الصالحين : مَنْ آمنُ الخلق غداً ؟ قال : أشدُّهم خوفاً اليوم .

وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، كيف نصنعُ بمجالسة أقوام من أصحابك ، يخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : إنّك والله لأن تَصْحَبَ قوماً يخوّفونك حتى تدرك الأمْن ، خيرٌ لك من أن تصحبَ قوما يؤمّنونك حتى يدركك الخوف .

وقيل للنبيّ صلى الله عليه وآله في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ (١) : هم الذين يعصون ويخافون المعصية ؟ قال : « لا ، بل الرّجل يصوم ، ويتصدّق ، ويخاف ألّا يُقبل منه » .

---

(١) سورة المؤمنين ٦٠ .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما من قَطْرةٍ أحبَّ إلى الله تعالى من قَطْرة دمع من خشية الله ، أو قطرة دم أريقت في سبيل الله » .

وقال عليه السلام : « سبعة يظلّهم الله بظلّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه » ؛ وذكر منهم رجلا ذكر الله في خَلْوة ، ففاضت عيناه .

* * *

قوله عليه السلام : « ويقول قد خولطُوا » ؛ أي أصابتهم جِنّة .

ثم قال : « ولقد خالطهم أمر عظيم » ، أي مازجهم خوف عظيم تولّهوا لأجله ، فصاروا كالمجانين .

ثم ذكر أنهم لا يستكثرون في كثير من أعمالهم ، ولا يرضيهم اجتهادهم ؛ وأنهم يتّهمون أنفسهم ، وينسبونها إلى التقصير في العبادة ، وإلى هذا نظر التنبي ، فقال :

يَسْتَصْغِرُ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ لِنَفْسِهِ ... ويظنّ دِجْلةَ ليس تَكْفِي شاربا[1]

قال : « ومن أعمالهم مشفقون » ؛ أي مشفقون من عباداتهم ألّا تُقبل ، وإلى هذا نظر أبو تمام ، فقال :

يتجنّب الآثام ثم يخافها ... فكأنّما حسناتُهُ آثامُ

ومثل قوله : « أنا أعلمُ بنفسي من غيري » . قوله عليه السلام لمن زكّاه نفاقا : « أنا دونَ ما تقول ، وفوقَ ما في نفسك » .

وقوله : « اللّهمّ لا تؤخذني بما يقولون ... » إلى آخر الكلام مفرد مستقلّ بنفسه منقول عنه عليه السلام ؛ أنه قال لقوم مرّ عليهم وهم مختلفون في أمره ، فمنهم الحامدُ له ، ومنهم الذامّ ، فقال : اللهمّ لا تؤاخذني . . » الكلمات إلى آخرها ، ومعناه : اللّهمّ

(١) ديوانه ١ : ١٢٥

إن كان ما ينسبُه الذامّون إليّ من الأفعال الموجبة للذمّ حقًّا ، فلا تؤاخذني بذلك ، واغفر لي ما لا يعلمونه من أفعالي ، وإن كان مايقوله الحامدون حقًّا ، فاجعلني أفضَلَ ممّا يظنونه فيّ .

***

الأصلُ :

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ : أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ ، وَحَزْماً فِي لِينٍ ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ ، وَقَصْداً فِي غِنًى ، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى ، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ ، يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ .

يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ . يَبِيتُ حَذِراً ، وَيُصْبِحُ فَرِحاً ؛ حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ .

إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ .

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى ، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ .

تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ ، قَلِيلاً زَلَلُهُ ، خَاشِعاً قَلْبُهُ ، قَانِعَةً نَفْسُهُ ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ ، سَهْلاً أَمْرُهُ ، حَرِيزاً دِينُهُ ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ .

الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ .

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ.

فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ.

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ.

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ.

بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

***

قال: فَصَعِقَ هَمَّامٌ صَعْقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا، فقال أميرُ المؤمنين عليه السّلام:

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ.

ثم قال:

هٰكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا!

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟!

فقال عليه السلام:

وَيْحَكَ! إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ، فَمَهْلاً لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!

الشرح :

هذه الألفاظ التي أولها : « قوة في دين » ؛ بعضها يتعلّق حرف الجر فيه بالظاهر ، فيكون موضعه نصباً بالمفعولية ، وبعضها يتعلّق بمحذوف ، فيكون موضعه نصبا أيضاً على الصّفة ، ونحن نفصّلها .

قوله : « قوة في دين » حرف الجرّ ها هنا متعلّق بالظاهر ، وهو « قُوّة » ، تقول : فلان قويّ في كذا وعلى كذا ، كما تقول : مررتُ بكذا ، وبلغت إلى كذا .

و « وحزما في لين » ؛ ها هنا لا يتعلّق حرف الجرّ بالظاهر ؛ لأنّه لامعنى له ، ألا ترى أنّك لا تقول : فلان حازم في اللّين ؛ لأن اللّين ليس أمراً يحزم الإنسان فيه ، وليس كما تقول : فلان حازمٌ في رأيه أو في تدبيره ، فوجبَ أن يكون حرف الجر متعلقا بمحذوف ، تقديره : وحزما كائناً في لين .

وكذلك قوله : « وإيمانا في يقين » ، حرف الجرّ متعلّق بمحذوف : أي كائنا في يقين ، أي مع يقين .

فإن قلت : الإيمان هو اليقينُ فكيف قال : « وإيماناً في يقين » ؟ قلت : الإيمانُ هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل ، واليقين هو سكون القلب فقط ، فأحدُهما غير الآخر .

قوله : « وحِرْصاً في علم » ، حرف الجرّ ها هنا يتعلّق بالظاهر ، و « في » بمعنى « على » كقوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[١] .

قوله : « وقصدا في غنًى » حرف الجرّ متعلّق بمحذوف ، أي هو مقتصد مع كونه غنيا ، وليس يجوز أن يكون متعلّقا بالظاهر ، لأنه لا معنى لقولك : اقتصدْ في الغِنَى ، إنما يقال : اقتصد في النّفقة ؛ وذلك الاقتصاد موصوف بأنه مقارن الغِنَى ومجامع له .

---

(١) سورة طه ٧١ .

قوله : « وخشوعا فى عبادة » حرف الجرّ هاهنا يحتمل الأمرين معا .

قوله : « وتجمّلاً فى فاقة » ، حرف الجر هاهنا متعلّق بمحذوف ، ولا يصحّ تعلّقه بالظّاهر ؛ لأنّه إنّما يقال : فلان يتجمّل فى لباسه ومروءته ؛ مع كونه ذا فاقة ؛ ولا يقال : يتجمّل فى الفاقة ؛ على أن يكون التجمّل متعدّيًا إلى الفاقة .

قوله : « وصَبْراً فى شدّة » ، حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين .

قوله : « وطلبا فى حلال » حرف الجر هاهنا يتعلّق بالظّاهر و «فى» بمعنى «اللام» .

قوله : «ونشاطا فى هدًى » حرف الجرّ هاهنا يحتمل الأمرين .

قوله : « وتحرّجاً عن طمع » ، حرف الجرّ هاهنا يتعلق بالظاهر لا غير .

قوله : « يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل » قد تقدّم مثله .

• • •

قوله : « يمسى وهمّه الشكر » ، هذه درجة عظيمة من درجات العارفين ، وقد أثنى الله تعالى على الشكر والشاكرين فى كتابه فى مواضع كثيرة ، نحو قوله : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(١) فقرن الشكر بالذّكر .

وقال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾(٢)

وقال تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(٣) .

ولعلوّ مرتبة الشّكر طعن إبليس فى بنى آدم ، فقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(٤) ، وقد صدّقه الله تعالى فى هذا القول فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾(٥) .

---

(١) سورة البقرة ١٥٢ .
(٢) سورة النساء ١٤٧ .
(٣) سورة آل عمران ١٤٤ .
(٤) سورة الأعراف ١٧ .
(٥) سورة سبأ ١٣ .

وقال بعضُ أصحاب المعانى : قد قَطَع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن ، فقال: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(١) .

واستثنى فى خمسة أمور : وهى الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة .
فقال : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾(٢) .
وقال : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾(٣) .
وقال : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾(٤) .
وقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٥) .
وقال : ﴿ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾(٦) .

وقال بعضهم : كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلا ، وهو خُلُق من أخلاق الربوبيّة ، قال تعالى فى صفة نفسه : ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾(٧)

وقد جَعَل الله تعالى مفتاحَ كلام أهل الجنة ، فقال : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ، وجعله خاتمة كلامهم أيضا فقال : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٩) .

وقيل للنبىّ صلى الله عليه وآله : قد غَفَر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر فيمَ تقوم الليل ، وتتعبُ نفسَك ؟ قال : أفلا أكونُ عبداً شكورا !

* * *

(١) سورة إبراهيم ٧
(٢) سورة التوبة ٢٨ .
(٣) سورة الأنعام ٤١
(٤) سورة الشورى ١٩
(٥) سورة النساء ٤٨
(٦) سورة التوبة ١٥ .
(٧) سورة التغابن ١٧
(٨) سورة الزمر ٧٤ .
(٩) سورة يونس ١٠ .

قوله عليه السلام : « ويصبح وَهْمُه الذِّكر » ، هذه أيضا درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[١] قال بعض العارفين لأصحابه: أنا أعلم متى يذكرني ربي. ففزعوا منه فقال : إذا ذكرته ذكرني ، وتلا الآية ، فسكتوا.

وقال تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[٢].

وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾[٣].

وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[٤].

وقال : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[٥].

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[٦].

وقال في ذمّ المنافقين : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٧].

وقال : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾[٨].

وقال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[٩].

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « ذاكرُ الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم ».

وقال صلى الله عليه وآله : « مَنْ أحبَّ أن يرتع في رياض الجنّة ، فليُكثِر من ذكر الله ».

---

(١) سورة البقرة ١٥٢
(٢) سورة الأحزاب ٤١ .
(٣) سورة بقرة ١٩٨
(٤) سورة البقرة ٢٠٠ .
(٥) سورة النساء ١٠٣
(٦) سورة آل عمران ١٩١ .
(٧) سورة النساء ١٤٢
(٨) سورة الأعراف ٢٠٥ .
(٩) سورة العنكبوت ٤٥

وسئل عليه السلام : أيّ الأعمال أفضل ؟ فقال : « أن تموتَ ولسانُك رطب بذكر الله » .

وقال صلّى الله عليه وآله ، حكايةً عن الله تعالى : « إذا ذكَرني عبدي في نفسه ، ذكرتُه في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ من ملئه ، وإذا تقرّب منّي شبراً تقرّبتُ منه ذراعا ، وإذا تقرّبَ منّي ذراعا تقرّبتُ منه باعا ، وإذا مَشَى إليّ هرولتُ إليه » .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلّا حفّت بهم الملائكة ، وغشيَتْهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

* * *

قوله عليه السلام : « يبيت حذِراً ويصبح فرِحاً ، حذراً لما حُذِّرَ من الغفلة ، وفرِحاً بما أصاب من الفَضْل والرحمة » .

وقد تقدّم ذكر الخوف .

وقد عرض عليه السلام هاهنا بالرّجاء المقابل للخوف ؛ فإنّ فرَح العارف بما أصاب من الفضل والرحمة يمكن ان يحمل على أنّه فرح بمجرد ما أصاب من فضل الله ورحمته . ويمكن أن يحمل على أنّه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه لمّا استدلّ على وصوله إليه وقوى ظنّه بظفره به ، بما عَجّل الله تعالى له من الفضل والرحمة في الدنيا ، ومقامُ الرجاء للعارفين مقام شريف ، وهو في مقابلة مقام الخوف ، وهو المقام الذي يوجد العارف فيه فرحا ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾[1] .

---

(١) سورة فاطر ٢٩ .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله ، حكايةً عن الله تعالى : « أنا عندَ ظنّ عبدى بى ، فلْيظنّ بى ماشاء » .

ودخل صلى الله عليه وآله على رجل من أصحابه ، وهو يجودُ بنفسه ، فقال : كيف تجِدك ؟ قال : أجِدُنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربّى . فقال صلى الله عليه وآله : « ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلّا أعطاه الله مارجاه ، وأمّنه مما خافه » .

* * *

قوله عليه السلام : « إن استصعبتْ عليه نفسُه » ، أى صارت صعبة غير منقادة ؛ يقول : إذا لم تطاوعْه نفسُه إلى ماهى كارهة له لم يعطِها مرادها فيما تحبّه .

قوله عليه السلام : « قرّة عينه فيما لايزول ، وزهادته فيما لايبقى » ، يقال للفرح المسرور : إنّه لَقَرِير العين ، وقرّت عينه تقرّ ، والمراد بردُها ؛ لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارّة .

وهذا الكلام يحتمل أمرين :

أحدهُما أن يعنىَ بما لايزول البارىَ سبحانه ، وهذا مقام شريف جدًّا أعظم من سائر المقامات ، وهو حبّ العارف لله سبحانه ، وقد أنكره قومٌ فقالوا : لامعنى لمحبّة البارىْ إلّا المواظبة على طاعته ، ونحوه قول أصحابنا المتكلّمين : إنّ محبّة الله تعالى للعبد هى إرادته ثوابه ، ومحبّة العبد للبارىْ هى إرادته لطاعته ، فليست المحبّة عندهم شيئا زائدا على الإرادة ولا يجوز أن تتعلق بذات الله سبحانه ، لأنّ الإرادة لاتتعلّق إلا بالحدوث ، وخالفهم شيخنا أبو الحسن ، فقال : إنّ الإرادة يمكن أن تتعلّق بالباقى ، ذكر ذلك فى الكلام فى الأكوان فى أول التصفّح ، فأمّا إثبات الحبّ فى الجملة فقد نطق به القرآن قال سبحانه : ﴿ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (١) . وقال أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٢) وقال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله نظر إلى مُصعَب بن عمير مقبلا وعليه إهابُ كبش قد تمنطق به ، فقال : « انظروا إلى الرّجل الذى قد نوّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبويْن يغذّوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حبّ الله ورسوله إلى ماترون » .

ويقال : إنّ عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم ، وتغيّرت ألوانهم ، فقال : ماالذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : الخوف من النار ، قال : حقٌّ على الله أن يؤمّن من يخافه ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشــدّ نحولاً وتغيّراً ، فقال : ما الذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : الشّوق إلى الجنة ، فقال : حقٌّ على الله أن يعطى مَنْ رجاه . ثم مرّ إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدّ نحولا ، وعلى وجوههم ، مثل المرائى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : حبّ الله عزّ وجلّ ، فقال : أنتم المقربون ، ثلاثا .

وقال بعض العارفين :

أحبّكَ حبّين : حبّ الهــوى ... وحبًّا لأنك أهــــلٌ لذا كا
فأما الذى هــوَ حبُّ الهوى ... فشُغْلى بذكركَ عمّن سوا كا
وأمّا الّذى أنتَ أهــلٌ له ... فكشفكَ لى الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ من ذا ولا ذاك لى ... ولـكنْ لكَ الحمدُ فى ذا وذا كا

---

(١) سورة المائدة ٥٤ .
(٢) سورة البقرة ١٦٥ .
(٣) سورة آل عمران ١٣١ .

ليس يريد بكشف الحجب والرؤية ما يظنه الظاهريّون من أنها الإبصار بالعين؛ بل المعرفة التامة؛ وذلك لأنّ المعارف النظرية يصحّ أن تصير ضرورية عند جمهور أصحابنا، فهذا أحد محمَلي الكلام.

وثانيهما: أن يريد بما لا يزول، نعيمَ الجنة، وهذا أدونُ القائلين، لأنّ الخلّص من العارفين يحبّونه ويعشقونه سبحانه لذاته، لا خوفا من النار، ولا شوقا إلى الجنة، وقد قال بعضهم: لستُ أرضى لنفسي أن أكون كأجير السوء، إن دُفِعت إليه الأجرة رضِيَ وفرح، وإن مُنعها سخط وحزن، إنّما أحبُّه لذاته.

وقال بعض شعرائهم شعرا من جملته:

فَهَجْرُهُ أعظمُ من نارِهِ　　وَوَصْلُهُ أطيبُ منْ جَنّتِهْ

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) من هذا الكثير، نحو قوله: «لم أعبدْه خوفا ولا طمعا، لكنّي وجدته أهلا للعبادة فعبدته».

* * *

قوله عليه السلام: «يمزج الحلم بالعلم»، أي لا يحلُم إلّا عن علم بفضل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون.

قوله: «والقول بالعمل»، أي لا يقتصر على القول، ومثل هذا قول الأحوص:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ　　مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قوله عليه السلام: «تراه قريبا أملُهُ»، أي ليست نفسه متعلقةً بما عظُم من آمال الدنيا؛ وإنّما قُصارى أمره أن يؤمّل القوت والملبس. قليلا زلله: أي خطؤه.

قوله: «منزوراً أكله»، أي قليلا، ويحمد من الإنسان الأكل النزر، قال أعشى باهلة:

تَكْفِيهِ حَزَّةُ فِلْذٍ إِنْ أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشِّوَاءِ وَيَكْفِي شُرْبَهُ الْغُمَرُ[١]

وقال متمم بن نويرة :

لَقَدْ كَفَّنَ الْمِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ ... فَتًى غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا[٢]

قوله عليه السلام : « مكظوما غيظُه » كَظْم الغيظ من الأخلاق الشريفة ، قال زيد بن عليّ عليه السلام : « ماسرّني بجرْعة غَيْظٍ أتجرّعها وأصبر عليها حُمْر النَّعم » .

وجاء رجل إلى الرّبيع بن زياد الحارثيّ ، فقال : ياأبا عبد الرحمن ، إنّ فلاناً يعابُكَ وينالُ منك ، فقال : والله لأغيظنّ مَنْ أمرَه بذلك ، قال الرّجل : ومَنْ أمَرَهُ ؟ قال : الشّيطان عدوّ الله ، استغواه ليؤثّمه ، وأراد أن يُغضِبَني عليه فأكافئه ، والله لا أعطيه ما أحبّ من ذلك . غفر الله لنا وله .

وجَهِل[٣] إنسان على عمر بن عبد العزيز ، فقال : أظنّك أردت أن يستفزّني الشيطان بعزّ السلطان ، فأنال منك اليوم ماتناله منّي غداً ! انصرف عافاك الله .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « الغضَبُ يفسِد الإيمان ، كما يفسِدُ الصَّبِر العسل » .

وقال إنسان لرسول الله صلى الله عليه وآله : أوصني ، فقال : « لا تغضب » ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : « لا تغضب » ، فقال : [٤]ردني ، فقال[٤] : « لا أجد مزيدا » .

ومن كلام بعض الحكماء لا يفي عزُّ الغضب بذلّة الاعتذار .

• • •

---

(١) من قصيدة له في ديوان الأعشى ٢٦٨ ، الكامل ٤ : ٦٥ ، ٦٦ ، أمالي المرتضى ١ : ٩٢ الفلذ : القطعة من الكبد ؛ ولا يقال إلا للبعير ، والغمر كصرد : القدح الصغير ، والحزة : القطعة الصغيرة ورواية الكامل

« تكفيه فِلذة كبِدٍ إن ألمّ بها »

(٢) من قصيدة له في الكامل ٤ : ٧٢–٧٤ ، والمفضليات ٢٦٥–٢٧٠ . والمنهال ، هو ابن عصمة الرياحي ، كفن مالكا في ثوبه . غير مبطان العشيات : لا يعجل بالعشاء ، وينتظر الضيفان . الأروع : الذي إذا رأيته راعك بجماله وحسنه .

(٣) الجهل هنا : السفاهة .

(٤ – ٤) ساقط من ب .

قوله : « إن كان فى الغافلين » ؛ معناه أنّه لايزال ذاكرَ الله تعالى ، سواء كان جالسا مع الغافلين أو مع الذاكرين ؛ أمّا إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلبه ، وأمّا إذا كان مع الذاكرين فإنه يذكره بقلبه ولسانه .

قوله عليه السلام : « يعفُو عمّن ظلَمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل مَنْ قطعه » ؛ من كلام المسيح عليه السلام فى الإنجيل : « أحبّوا أعداءكم ، وصِلُوا قاطعيكم ، واعفوا عن ظالميكم ، وبارِكوا علىّ لاعنيكم ؛ لكى تكونوا أبناءَ أبيكم الذى فى السماء ، الذى تشرق شمسُه على الصالحين والفَجَرة ، وينزل مَطَرُه على المطيعين والأثَمة » .

قوله عليه السلام : « بعيدا فُحْشُه » ؛ ليس يعنى به أنّه قد يُفحِش تارة ، ويترك الفحش تارات ، بل لافُحْشَ له أصلا ، فكَنَى عن العَدَم بالبعد ؛ لأنّه قريب منه

قوله : « ليِّناً قوله » ، العارف بسّام طلق الوجه ليِّن القول ، وفى صفات النبى صلى الله عليه وآله : « ليس بفَظّ ولا صَخّاب » .

قوله : « فى الزلازل وقور » ؛ أى لاتحرّكه الخطوب الطارقة ، ويقال : إنّ علىّ بن الحسين عليه السلام كان يصلّى ، فوقعتْ عليه حيّة ، فلم يتحرك لها ، ثم انسابت بين قدميه فما حرّك إحداهما عن مكانه ، ولا تغيّر لونه .

قوله : « لايحيفُ على من يبغض » ، هذا من الأخلاق الشريفة النبويّة ، وفى كلام أبى بكر فى صفات مَنْ يصلح للإمامة : إن رضىَ لم يدخِله رضاه فى باطل ، وإن غضب لم يخرجه غضبهُ عن الحق .

قوله : « يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه » ؛ لأنه إن أنكر ثم شُهد عليه فقد ثبت كذبه ، وإن سكت ثم شهد عليه فقد أقام نفسَه فى مقام الرِّيبة .

قوله : « ولا يتنابز بالألقاب » : هــذا من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ (١) .

قوله : « ولا يضارّ بالجار » ، في الحديث المرفوع : « أوصاني ربّي بالجار حتى ظننتُ أن يورّثه » .

قوله : « ولا يشمت بالمصائب » : نظير قول الشاعر :

فَلَسْتَ تَرَاهُ شَامِتاً بِمُصِيبَـةٍ ... وَلَا جَزِعاً مِنْ طَارِقِ ٱلْحَدَثَانِ

قوله : « إن صمت لم يغمّه صمته » : أي لا يحزن لفوات الكلام ، لأنه يرى الصَّمْت منها لامغرما .

قوله : « وإن ضحك لم يعلُ صوتُهُ » : هكذا كان ضحكُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكثره التبسّم ، وقد يفرُّ أحيانًا ، ولم يكن من أهل القهقهة والكَرْكَرة .

قوله : « وإن بغي عليه صَبَرَ » : هـذا من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ (٢) .

قوله : « نفسه منه في عناء لأنه يتعبُها بالعبادة ، والناس لايلقون منه عَنَتاً ولاأذى» فالعالم بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه .

قوله : « فصعق همام » ، أغمي عليه ومات ، قال الله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (٣) .

* * *

(١) سورة الحجرات ١١ .
(٢) سورة الحج ٦٠ .
(٣) سورة الزمر ٦٨ .

[ذكر بعض أحوال العارفين]

واعلم أنّ الوجدَ أمرٌ شريف، فقد اختلف الناس[1] فيه، فقالت الحكماء فيه أقوالا، وقالت الصوفيّة فيه أقوالا؛ أمّا الحكماء فقالوا: الوجْد[2] هو حالة تحدُث للنّفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة، إذا كان قد وَرَدَ عليها وارد مُشوّق. وقال بعضُهم: الوجد هو اتّصال النفس بمبادئها المجرّدة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتّصال.

وأمّا الصّوفية فقد قال بعضهم: الوجد رفْع الحجاب، ومشاهدة المحبوب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السرّ؛ وهو فَناؤك من حيث أنت أنت. وقال بعضُهم: الوجدُ سِرّ الله عند العارفين ومكاشفة من الحقّ توجب الفناء عن الحقّ.

والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت[3] العبارة، وقد مات كثير من الناس بالوجْد عند سماع وعظ، أو صفقة[4] مطرب، والأخبار في هذا الباب كثيرة جدًّا، وقد رأينا نحن في زماننا مَنْ مات بذلك فجأة.

● ● ●

قوله: «كانت نفسه فيها»، أي مات. ونفثَ الشيطان على لسانك، أي تكلّم بلسانك، وأصله النفخ بالفم، وهو أقل من التّفل؛ وإنّما نهى أمير المؤمنين القائل: «فهلاّ أنت يا أمير المؤمنين!» لأنه اعترض في غير موضع الاعتراض، وذلك أنه لا يلزم من موت العاميّ عند وعظ العارف أن يموتَ العارف عند وعظ نفسه، لأنّ انفعال العاميّ ذي الاستعداد التامّ للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند سماع كلام

(١) د: «فقد اختلف الناس».   (٢) ساقطة من ب.   (٣) الأصول: اختلف.
(٤) صفقة مطرب، من صفقت العود؛ إذا حركت أوتاره فأطرب (اللسان).

نفسه ، أو الفكر في كلام نفسه ، لأنّ نفس العارف قوية جدًّا ، والآلة التي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجَر .

فإن قلتَ : فإنّ جواب أمير المؤمنين عليه السلام السائل غيرُ هذا الجواب !

قلتُ : صدقت ، إنما أجابه من حيث يعلم هو والسامعون ، وتصِلُ أفهامهم إليه ، فخرج معه إلى حديث الآجال ، وأنّها أوقاتٌ مقدّرة لا تتعدّاها ، وما كان يمكنه عليه السلام أن يذكر الفرْق بين نفسه ونفوسهم ، ولا كانت الحال تقتضيه ، فأجابه بجواب مُسْكِتٍ ؛ وهو مع إسكاته الخصْم حقٌّ وعدل عن جواب يحصل منه اضطراب ، ويقع فيه تشويش ، وهذا نهاية السّداد وصحة القول .

(١٨٧)

الأصـل .

ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً .

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ ، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الْأَدْنَوْنَ ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصَوْنَ ، وَخَلَعَتْ عليه[1] الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا ، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا ، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ ، وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ .

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً ، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً ، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ .

قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ . يَمْشُونَ الْخَفَاءَ ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ ، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ ؛ حَسَدَةُ الرَّخَاءِ ، وَمُؤَكِّدُو الْبَلَاءِ ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ . لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ .

يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ ، وَيَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ ؛ إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا ، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا .

(١) د : إلى .

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً ، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ ؛ يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ ؛ فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ ، وَحُمَةُ النِّيرَانِ: ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) .

* * *

الشرح :

الضمير في « له » وهو الهاء راجعٌ إلى « ما » التي بمعنى « الذي » ، وقيل : بل هو راجع إلى الله سبحانه ، كأنه قال : « نحمده على ما وفّق من طاعته » ، والصحيح هو الأول، لأنّ « له » في الفقرة الأولى بإزاء « عنه » في الفقرة الثانية . والهاء في « عنه » ليست عائدة إلى « الله » وذاد : طرد ، والمصدر الذّياد .

وخاض كلّ غمْرة ، مثل قولك : ارتكب كلّ مهلكة ، وتقحّم كلّ هول .

والغَمْرة : ما ازدحم وكثر من الماء ، وكذلك من النّاس ، والجمع غِمار .

والغُصّة : الشّجا ، والجمع غُصَص .

وتلوّن له الأدنَوْن : تغيّر عليه أقاربه ألواناً .

وتألّب عليه الأقصوْن : تجمّع عليه الأبعدون عنه نسباً .

وخلعت إليه العرب أعنّتها ، مثل ، معناه أوْجَفُوا إليه مسرعين لمحاربته ، لأنّ الخيل إذا خلعتْ أعنّتها كان أسْرَع لجريها .

وضربتْ إلى محاربته بطونَ رواحلها ، كناية عن إسراع العرب نحوه للحرب ؛

---

(١) سورة المجادلة ١٩ .

لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها لتساق كانَ أوحى لها ؛ ومراده أنّهم كانوا فرساناً وركباناً .

قوله : « حتى أزلت بساحته عداوتها » ؛ أي حرْبها ، فعبّر عنها بالعداوة ؛ لأنّ العداوة سببُ الحرب ، فعبّر بالسّبب عن المسبّب ؛ مازلنا نطأ السّماء حتى أتيناكم ؛ يعنون الماء ، لمّا كان اعتقادُهم أنّ السماء سببٌ للماء .

وأسحق المزار ، أبعده ؛ مكان سَحيق ، أي ، بعيد ، والسُّحْق بضم السين : البعد ، يقال : « سُحْقاً له » ؛ ويجوز ضم الحاء ، كما قالوا : عُسْر وعُسُر ، وسَحُق الشيءُ ، بالضم ، أي بعد ، وأسحقه الله أبعده . والمزار : المكان الذي يُزار منه ، أو المكان الذي يُزار فيه ، والمراد هاهنا هو الأوّل ومن قرأ كتبَ السِّيرة علم مالاقى رسول الله صلى الله عليه وآله في ذاتِ الله سبحانه من المشقة ، واستهزاء قريش به في أوّل الدعوة ، ورميهم إياه بالحجارة ، حتى أدْمَوْا عَقِبَيه ، وصياح الصّبيان به ، وفَرْث الكرش على رأسه ، وفَتْل الثوب في عُنُقه وحَصْره وحَصْر أهله في شِعْب بني هاشم سنين عدّة ، محرّمة معاملاتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم ، حتى كادوا يموتون جوعاً ، لولا أنّ بعضَ مَنْ كان يحنو لرَحِمٍ أو لسبب غيره ، فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً ، ثم ضرْبهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوَثاق في الشمس ، وطردهم إياهم عن شِعاب مكة ، حتى خرج مَنْ خرج منهم إلى الحبشة ، وخرج عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف ، وتارة ببني عامر ، وتارة بربيعة الفَرَس ، وبغيرهم . ثم أجمعوا على قتله والفتك به ليلاً ، حتى هرب منهم لائذاً بالأوْس والخزرج ، تاركاً أهله وأولاده ، ولا حوته يده ، ناجياً بحُشاشة نفسه ، حتى وصل إلى المدينة ؛ فناصبوه الحرْب ورموْه بالمناسر [1] والكتائب ، وضربوا إليه آباط الإبل ،

---

(١) المنسر : قطعة من الجيش الكبير .

ولم يزل منهم فى عناء شديد ، وحروب متصلة ، حتى أكرمه الله تعالى ونَصَره ، وأيّد دينَه وأظهره . ومَنْ له أُنسٌ بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه .

سمّى النفاق نفاقًا من النافقاء ، وهى بيت اليَرْبُوع ، له بابان يدخلُ من أحدها ، ويخرج من الآخر ، وكذلك الذى يُظهر دينا ويبطن غيره .

والضالّون المضِلّون : الذين يُضِلّون أنفسهم ويُضِلّون غيرَهم ؛ وكذلك الزالّون المزلّون ؛ زلّ فلان عن الأمر ، أى أخطأ ، وأزلّه غيرُه .

قوله : « يفتنُّون » يتشعّبون فنونا ، أى ضروبا .

ويعمِدونكم ، أى يهدّونكم ويفدحونكم ؛ يقال : عمَده المرض يعمِده ، أى هدّه ، ومنه قولهم للعاشق : عميد القلب .

قوله : « بعماد » ، أى بأمر فادح وخطب مؤلم ، وأصل العَمَد انشداخُ سَنام البعير ، وماضيه : عمِد السنام بالكسر ، عَمَدا فهو عَمِد .

ويرصدونكم : يعدّون المكايد لكم ، أرصدت ، أعددت ، ومنه فى الحديث : « إلّا أن أُرْصِدَه لدَيْنٍ علىّ » .

وقلب دوٍ ، بالتخفيف ، أى فاسد ، من داء أصابه ، وامرأة دوِيَة ؛ فإذا قلت : رجل دوًى ، بالفتح ، استوى فيه المذكر والمؤنث والجماعة ، لأنه مصدر فى الأصل ، ومن روى : « دويّة » بالتشديد ، فلى مُعده ، فإنما شدده ليقابل « نقيّة » .

والصِّفاح : جمع صَفْحة الوجه وهى ظاهره ، يقول : بواطنهم عليل ، وظاهرهم صحيح . يمشون الخَفاء ، أى فى الخفاء ، ثم حذف الجار فنصب ، وكذلك يدبّون الضَّراء ،

والضَّرّاء : شجر الوادى الملتفّ ، وهذا مثل يضربُ لمن يختلُ صاحبه ،يقال : هو يدبُّ له الضَّرّاء ويمشى له الخَمَر ، وهو جَرْف الوادى .

ثم قال : « وصفهم داء ، وقولهم شفاء ، وفعلُهم الدّاء العَياء » ، أى أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين ، وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين . والدّاء العَياء : الذى يُعيى الأُساة .

ثم قال : « حَسَدة الرخاء » يحسُدون عَلَى النعم . « ومؤكِّدو البلاء » ،إذا وقع واحد من الناس فى بلاء أكَّدوه عليه بالسّعايات والنّمائم ، وإغراء السلطان به ، ولقد أحسن أبو الطيب فى قوله يذمّ البشر :

وَكَأَنَّا لَمْ يَرْضَ فينا بريب الدّ ... هر حَتّى أعانه مَنْ أعانا[1]
كُلَّما أنبت الزمانُ قَناةً ... ركّب المرءُ فى القناةِ سِنانا

« ومقنطو الرّجاء » ، أى أهل الرجاء ، أى يبدّلون بشرورهم وأذاهم رَجاء الراجى قنوطا .

قوله : « وإلى كلّ قلب شفيع » ، يصف خلابة ألسنتهم وشدة مَلَقهم، فقد استحوذوا عَلَى قلوب الناس بالرّياء والتصنّع .

قوله : « ولكل شجو دموع » ، الشجو : الحزن، أى يبكون تباكيًا وتعمّلا لاحقًّا عند أهل كلّ حزن ومصاب .

يتقارضون الثناء، أى يثنى زيد عَلَى عمرو ليثنىَ عمرٌو عليه فى ذلك المجلس،أو يبلغه فيثنى عليه فى مجلس آخر ، مأخوذ من القَرْض .

ويتراقبون الجزاء : يرتقب كلّ واحدٍ منهم عَلَى ثنائه ومدْحه لصاحبه جزاء منه

(١) ديوانه ٤ : ٢٤٠ .

إمّا بالمال أو بأمر آخر ، نحو ثناء يثنى عليه ، أو شفاعة يشفع له ، أو نحو ذلك .

والإلحاف فى السؤال : الاستقصاء فيه ، وهو مذموم ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾(١) .

قوله : « وإن عَذَلوا كشفوا » ، أى إذا عذلك أحدُهم كشف عيوبَك فى ذلك القوم والمَلَأ ، وجبَهك بها ، وربّما لايستحى أن يذكّرها لك بحضر ممّن لاتحبّ ذكرَها بحضرته ، وليسوا كالناصحين عَلَى الحقيقة ، الذين يرمِّضون عند العتاب بالأدب تعريضاً لطيفاً ليقلع الإنسان عنه .

وإن حكموا أسرفوا ، إذا سألك أحدُهم فوّضته فى مالك أسرفَ ولم يقنع بشىء ، وأحبّ الاستئصال .

قدأعدّوا لكلّ حقّ باطلا ؛ يقيمون الباطل فى معارضة الحقّ ، والشبهة فى مصادمة الحجّة .

ولكلّ دليلٍ قائم وقولٍ صحيح ثابت ، احتجاجا مائلا مضاداً لذلك الدليل ، وكلاما مضطرباً لذلك القول .

ولكلّ باب مفتاحا ؛ أى ألسنتهم ذَلِقةٌ قادرةٌ عَلَى فتح المغلقات ، لُطف توصّلهم ، وظَرْف منطقهم .

ولكل ليل مصباحا ؛ أى كلّ أمرٍ مظلم فقد أعدُّوا له كلاما ينيره ويضيئه ، ويجعله كالمصباح الطارد لليل .

يتوصلون إلى مطامعهم بإظهار اليأس عمّا فى أيدى الناس ، وبالزّهد فى الدنيا . وفى الأثر : شرُّكم مَنْ أخذ الدنيا بالدين .

ثم قال : إنّما فعلوا ذلك ليقيموا به أسواقهم ، أى لتنفق سِلَعُهم .

---

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

والأعلاق : جمع عِلْق ، وهو السلعة الثمينة .

يقولون فيشبّهون ، يوقعون الشُّبَه فى القلوب .

ويصفون فيموّهون ؛ التمويه التزيين ، وأصله أن تطلى الحديدة بذهب يحسّنها

قد هيّئوا الطريق ، أى الطريق الباطل قد هيئوها لتُسلك بتمويهاتهم .

وأضلعوا المضيق : أمالوه ، وجعلوه ضِلَعًا ، أى معوجًا ، أى جعلوا المسلك الضيّق وجًا بكلامهم وتلبيسهم ، فإذا أسلكوه إنسانا اعوجّ لاعوجاجه .

والحُمَة : بالتخفيف : الجماعة ، والحُمَة بالتخفيف أيضا : السمّ ، وكنى عن إحراق النار بالحمة المشابهة فى المضرّة .

(١٨٨)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ ، وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ ؛ مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ ؛ وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ !

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ ؛ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً ؛ عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ ؛ فَاسْتَفْتِحُوهُ وَاسْتَنْجِحُوهُ ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ ؛ فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ .

وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ ؛ وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ ، لَا يَثْلِمُهُ الْعَطَاءُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ ، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ ، وَلَا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ ، وَلَا تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ ، وَلَا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ .

قَرُبَ فَنَأَى ، وَعَلَا فَدَنَا ، وَظَهَرَ فَبَطَنَ ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ . لَمْ يَذْرَإِ الْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ ، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ .

أُوصِيكُمْ عِبادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ؛ فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا ، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا ، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ ، وَمَنَازِلِ الْعِزِّ ، فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، وَتُظْلِمُ لَهُ الْأَقْطَارُ ، وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ ؛ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ ؛ وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ ؛ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَاقاً ، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً ؛ فَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ ، وَلَا حَمِيمٌ يَنْفَعُ ، وَلَا مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ .

* * *

الشّرْحُ

أظهر سبحانه من آثار سلطانه ، نحو خلق الأفلاك ودخول بعضها فى بعض ، كالتَّميل الذى يشتمل على المسائل ، وفلك التدوير وغيرها ؛ ونحو خلق الإنسان وما تدلّ كتب التشريح من عجيب الحكمة فيه ؛ ونحو خلق النبات والمعادن ، وترتيب العناصر وعلاماتها ، والآثار العلوية المتجدّدة ، حسب تعدد أسبابها ، ما حيّر عقول هؤلاء ، وأشعر بأنها إذا لم يحط بتفاصيل تلك الحكم مع أنها مصنوعة [1] ، فالأولى ألا تحيط بالصانع الذى هو برئ عن المادة وعلائق الحسّ .

والمُقَل : جمع مُقْلة ؛ وهى شحمة العين التى تجمع السواد والبياض ؛ ومقلتُ الشىء : نظرت إليه بمقلتى ؛ وأضاف المقل إلى « العقول » مجازاً ، ومراده البصائر .

وردع : زجر ودفع . وهماهم النفوس : أفكارها وما يهمهم به عند التمثيل والرويّة فى الأمر ، وأصل الهمهمة ، صُوَيتٌ يسمع ، لايفهم محصوله

---

(١) ب : « موضوعة »

والعِرْفان : المعرفة ، وكُنْه الشيء : نهايته وأقصاه . والإيقـان : العِلْم القطعيّ ، والإذعان : الانقياد . والأعلام : المنار والجبال يستدلّ بها في الطرقات .

والمناهج : السُّبُل الواضحة والطامسة كالدارسة وصدَع بالحقّ : بيّن ، وأصله الشقّ يظهر ماتحته . ويقال . نَصحتُ لزيد ، وهو أفصح من قولك : نصحتُ زيدا .

والقَصْد : العدل .

والعَبَث . مالا غرض فيه ، أو ماليس فيه غرض مثله ، والهَمَل : الإبل بلا راع ؛ وقد أهمَلْتُ الإبل : أرسلتها سدًى .

قوله : « علِم مبلغ نعمه عليكم ، وأحصى إحسانه إليكم » ، أي هو عالم بكمّية إنعامه عليكم علما مفصَّلًا ؛ وكلُّ مَنْ علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن تشتدّ نقمته عليه عند عصيانه له وجرأته عليه ، بخلاف مَنْ يجهل قدر نعمته على الغير ؛ فإنه لا يشتدّ غضبه لأنه لا يعلم قدر نعمته المكفورة .

قوله : « فاستفتحوه » ، أي اطلبوا منه الفَتْح عليكم والنَّصر لكم .

واستنجحُوه : اطلبوا منه النجاح والظَّفَر .

واطلبوا إليه ، أي اسألوه ، يقال : طلبت إلى زيد كذا وفي كذا .

واستمنِحوه ، بكسر النون : اطلبوا منه المِنْحَة ، وهي العطيّة . ويروى : « واستميحوه » بالياء ، استمحتُ الرّجُل : طلبت عطاءه ، ومحتُ بالرجل : أعطيته .

ثم ذكر عليه السلام أنّه لا حجاب يمنع عنه ، ولا دونه باب يُغلَق ، وأنه بكلّ مكان موجود ، وفي كلّ حين وأوان ، والمراد بوجوده في كلّ مكان إحاطة علمه ؛ وهو معنى قوله

تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (٢) .

قوله : « لا يثلمه العطاء » بالكسر : لا ينقص قدرته .

والحباء : النوال ولا يستنفذه ، أى لا يفنيه .

ولا يستقصيه : لا يبلغ الجود أقصى مقدوره وإن عَظُمَ الجود ، لأنه قادر على مالا نهاية له .

ولا يلويه شخص عن شخص : لا يوجب ما يفعله لشخص أو مع شخص إعراضا وذهولا عن شخص آخر ؛ بل هو عالم بالجميع ، لا يشغله شأن عن شأن . لوى الرجل وجهه ، أى أعرض وانحرف ، ومثل هذا أراد بقوله : « ولا يلهيه صوت عن صوت » ، ألهاه كذا ، أى شغله .

ولا تحجزه - بالضم - هبة عن سلب ، أى لا تمنعه ، أى ليس كالقادرين بالقدرة ، مثلنا ؛ فإن الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطية زيد عن سلب مال عمرو ، حالما يكون مهتمًّا بتلك العطية ، لأنَّ اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر .

ومثل هذا قوله : « ولا يشغله غضب عن رحمة ، ولا تُولِهه رحمة عن عقاب » ، أي لا تحدث الرحمة لمستحقِّها عنده ولَهًا ، وهو التحيّر والتردّد ، وتصرفه عن عقاب المستحق ؛ وذلك لأنَّ الواحد منا إذا رحِمَ إنسانا حدث عنده رقّة ، خصوصا إذا توالت منه الرحمة لقوم متعدّدين ، فإنه تصير الرحمة كالملَكة عنده ، فلا يطيق مع تلك الحال أنْ ينتقم ، والبارئ تعالى بخلاف ذلك ؛ لأنه ليس بذى مزاج سبحانه .

ولا يجنّه البطون عن الظهور ، ولا يقطعه الظهور عن البطون ؛ هذه كلّها مصادر ؛ بطَن

---

(١) سورة المجادلة ٧ .
(٢) سورة الحديد ٤

بُطُونا أى خَفِىَ ، وظهر ظهورا ، أى تجلّى ، يقول : لا يمنعه خفاؤه عن العقول أن تدركه عند ظهوره بأفعاله وإنْ لم يكن ظاهرا بذاته ، وكذلك لا يقطعه ظهوره بأفعاله عن أن يخفى كُنْهه عن إبصار العقول وإدراكها له . ويقال : اجتننت كذا ، أى سترته ، ومنه الجنين ، والجُنَّة الترس ، وسمّى الجنّ جنًّا لاستتارهم .

ثم زاد المعنى تأكيدا فقال : « قَرُب فنأى » ؛ أى قرب فعلا فنأى ذاتا ، أى أفعاله قد تُعلَم ؛ ولكنّ ذاته لا تعلم .

ثم قال : « وعلا فدنا » ؛ أى لمّا علا عن أن تحيط به العقول عرفته العقول ، لأنّها عرفت ذاته ، لكن عرفت أنّه شىء لا يصحّ أن يعرف ، وذلك خاصّته سبحانه ، فإنّ ماهيّته يستحيل أن تتصوّر للعقل لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بخلاف غيره من الممكنات.

ثم أكّد المعنى بعبارة أخرى، فقال : «وظهر فَبطَن، وبطن فعلَن» ، وهذا مثل الأوّل. ودان : غلب وقَهر ، ولم يُدَنْ : لم يقهر ولم يغلب .

ثم قال : « لم يذرأ الخلق باحتيال » أى لم يخلقهم بحيلة توصّل بها إلى إيجادهم ، بل أوجدَهم على حسب علمه بالمصلحة خلقا مخترعا من غير سبب ولا واسطة .

قال : « ولا استعان بهم لِكَلَال » ، أى لإعياء ، أى لم يأمر المكلّفين بالجهاد لحاجته فى قهر أعدائه ، وجاحدى نعمته إليهم ؛ وليس بكالّ ولا عاجز عن إهلاكهم ، ولكنّ الحكمة اقتضتْ ذلك ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللّٰهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾[1] ، أى لبطل التكليف .

ثم ذكر أنّ التقوى قِوام الطاعات التى تقوم بها ، وزمام العبادات لأنها تمسك وتحصّن ؛ كزمام الناقة المانع لها من الخبط .

---

(١) سورة البقرة ٢٥١ .

والوثائق : جمع وثيقة ، وهى مايوثق به . وحقائقها جمع حقيقة ؛ وهى الراية ؛ يقال : فلان حامى الحقيقة .

قوله : « تؤَلْ » بالجزم ، لأنه جواب الأمر ؛ أى ترجع .

والأكنان : جمع كِنّ وهو الستر . والدَّعة : الراحة . السِّنة : الجِدَة . والمعاقل : جمع مَعْقِل ، وهو الملجأ . والحِرز : الحفظ . وتشخص الأبصار : تبقى مفتوحة لاتطرف .

والأقطار : الجوانب . والصُّروم : جمع صِرْم وصِرْمة ، وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثين .

والعِشار : النُّوق أتى عليها من يوم أرسل الفحل فيها عشرة أشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، والواحدة عُشَراء ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ (١) ، أى تركت مسيّبة مهملة لايلتفت إليها أربابها ، ولا يحلبونها لاشتغالهم بأنفسهم .

وترهق كلّ مهجة : تهلك . وتبكم كلّ لهجة ؛ أى تخرس ، رجل أبكم وبكيم ، واللغى بكِم بالكسر .

والشُّمّ الشوامخ : الجبال العالية ، وذُلّها : تدكدكها ؛ وهى أيضا الصمّ الرواسخ . فيصير صلدها — وهو الصلب الشديد الصلابة — سرابا ، وهو مايتراءى فى النهار فيظنّ ماء .

والرَّقراق : الخفيف . ومعهدها : ماجعل منها منزلا للناس . قاعا : أرضا خالية . والسَّملق : الصفصف المستوى ، ليس بعضه أرفع وبعضه أخفض .

(١) سورة التكوير ٤ .

(١٨٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَهُ حِينَ لَا عَلَمٌ قَائِمٌ ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ ، ولا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ .

أوصِيكُمْ عِبادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ، وأحَذِّرُكُمُ الدُّنيا ، فإنَّها دَارُ شُخُوصٍ ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ ، ساكِنُها ظاعِنٌ ، وَقاطِنُها بائِنٌ .

تَمِيدُ بِأَهْلِها مَيَدَانَ السَّفِينَةِ ، تَقْصِفُها العَوَاصِفُ في لُجَجِ البِحارِ ، فَمِنْهُمُ الغَرِقُ الوَبِقُ ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي على بُطُونِ الأمْوَاجِ ، تَحْفِزُهُ الرِّيـاحُ بِأذْيالِها ، وَتَحْمِلُهُ على أهْوَالِها ، فَما غَرِقَ مِنْها فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ ، وما نَجا مِنْها فإلَى مَهْلَكٍ .

عِبادَ اللهِ ؛ الآنَ فَاعْلَمُوا ، وَالألْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، والأبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، والأعْضاءُ لَدْنَةٌ ، وَالمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ، والمَجالُ عَرِيضٌ ؛ قَبْلَ إرْهاقِ الفَوْتِ ، وَحُلُولِ المَوْتِ ؛ فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ ، وَلا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ .

• • •

الشرح :

يقول : بعث الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وآله لمّا لم يبق عَلَمٌ يهتدى به المكلَّفون؛ لأنّه كان زمان الفترة وتبدّل المصلحه ، واقتضاء وجوب اللّطف عليه سبحانه تجديداً لبعثته ؛ ليعرّف المبعوثُ المكلّفين الأفعال التي تقرّبهم من فعل الواجبات العقلية، وتبعدهم عن المقبّحات العقلية .

والمنار الساطع : المرتفع . سطع الصُّبحُ سطوعا : ارتفع .

ودارُ شُخوص : دار رِحْلة شَخَص من البلد : رحل عنه .

والظاعن : المسافر . والقاطن : المقيم . والبائن : البعيد . يقول : ساكن الدنيا ليس بساكن على الحقيقة ، بل هو ظاعن فى المعنى وإن كان فى الصورة ساكناً ، والمقيم بها مفارق ؛ وإن ظَنّ أنه مقيم .

وتَميد بأهلها : تتحرّك وتَميل · والمَيَدان : حركة واضطراب .

وتصفّقها العواصف : تضربها بشدّة ، ضربا بعد ضرب . والعواصف : الرياح القوية.

واللُّجج : جمع لُجّة ، وهى معظم البحر .

الوبِق : الهالك ، وبَق الرجل بالفتح ، يَبِقُ وبوقا : هلك ، والموْبِق منه كالموعد « مفعِل » من وعد يعد ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾[1] ؛ وفيه لغة أخرى : وَبَق الرجل يَوْبَق وَبَقاً ، وفيه لغة ثالثة : وَبِق الرّجل ، بالكسر يبق بالكسر أيضاً وأوبقه الله ، أى أهلكه .

وتحفزه الرياح ، تدفعه . ضرب عليه السلام لأهل الدنيا مثلا براكبى السَّفينة فى البحر، وقد مادَتْ بهم ، فمنهم الهالك على الفور ، ومنهم مَنْ لا يتعجّل هلاكه ، وتحمله الرياح ساعة أو ساعات ، ثم مآله إلى الهلاك أيضا .

ثم أمَرَ عليه السلام بالعمل وقتَ الإمكان قبل ألّا يمكن العمل ، فكنَى عن ذلك بقوله : والألسن منطلقة ، لأنّ المحتضر يُعتقل لسانه ، والأبدان صحيحة ، لأنّ المحتضر سقيم البدن . والأعضاء لدْنة ، أى لينة ، أى قبل الشيخوخة والهرَم ويبس

(١) سورة الكهف ٥٢ .

الأعضاء والأعصاب . وللمنقلَب فسيح ، والمجال عريض ، أى أيام الشيبة وفى الوقت والأجل مهلة ، قبل أن يضيق الوقت عليكم .

قبل إرهاق الفوت ، أى قبل أن يحملكم الفوت ـ وهو فوات الأمر وتعذّر استدراكه عليكم ـ مرهَقين ، والمرهَق : الذى أدرك ليقتل ، قال الكميت :

تَنْدَى أَكُفُّهُمُ وَفِى أَبْيَاتِهِمْ ثِقَةُ الْمُجَاوِرِ والمضافِ المُرْهَقِ [1]

قوله : « فَتَقَّوا عليكم نزوله ، ولا تنتظروا قدومه » ، أى اعملوا عمل مَنْ يشاهد الموت حقيقة ، لا عمل مَنْ ينتظره انتظارا ويطاول الأوقات مطاولة ، فإنّ التسويف داعية التقصير .



(١) الصحاح واللسان (رهق) .

(١٩٠)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ ، أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ ، وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا .

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي ، وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي ، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي ؛ وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي ؛ فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَةُ : مَلَأٌ يَهْبِطُ ، وَمَلَأٌ يَعْرُجُ ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتاً !

فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ ، فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ .

•••

الشَّرْحُ :

يمكن أن يعني بالمستحفَظين الخلفاء الّذين تقدّموا؛ لأنهم الّذين استحفظوا الإسلام؛ أي جُعلوا حافظين له ، وحارسين لشريعته وحوزته ، ويجوز أن يعني به العلماء والفضلاء من الصّحابة ، لأنهم استحفظوا الكتاب ، أي كُلّفوا حفظَه وحراسته .

والظاهر أنه يرمز في قوله عليه السلام : « لم أردّ على الله ، ولا على رسوله ساعة قطّ » إلى أمور وقعتْ من غيره ، كما جرى يوم الحديبيَة عند سَطْر كتاب الصلح ؛ فإنّ بعض الصحابة[1] أنكر ذلك ، وقال : يارسولَ الله، ألسنا المسلمين ؟ قال : بلى ، قال: أوَليسُوا الكافرين ؟ قال : بلى ، قال : فكيف نُعطَى الدنيّة في ديننا ! فقال صلى الله عليه وآله: « إنّما أعمَلُ بما أومَر به » فقال قوم من الصحابة : ألم يكن قد وعدنا بدخول مكة ! وها نحن قد صُدِدنا عنها ثم ننصرف بعد أن أعطينا الدنيّة في ديننا ، والله لو أجد أعواناً لم أعطِ الدنيّة أبداً ، فقال أبو بكر لهذا القائل : ويحك ! الزَمْ غَرْزه[2] ، فوالله إنه لرَسُولُ الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ الله لا يضيّعه .

ثم قال له : أقال لك : إنه سيدخلها هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فسيدخلُها. فلما فتح النبيّ صلى الله عليه وآله مكة ، وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال : هذا الذى وُعدتم به .

* * *

واعلم أنّ هذا الخبر صحيحٌ لا ريبَ فيه ، والنّاس كلُّهم روَوْه ، وليس عندى بقبيحٍ ولا مستهجَن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله صلى الله عليه وآله عمّا سأله عنه على سبيل الاسترشاد ، والتماساً لطُمأنينة النفس ، فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[3] . وقد كانت الصّحابة تراجع رسول الله صلى الله عليه وآله في الأمور ، وتسأله عمّا يستبهم عليها وتقول له : أهذا منك أم من الله ؟ وقال له السّعدان[4] رحمهما الله يوم الخندق ، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعضِ تمر المدينة : أهذا مِنَ الله أم رأيٌ رأيته من نفسك ؟ قال : بل من نفسي ؛ قالا : لا ، والله لا نعطيهم منها تمرةً واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا !

(١) هو عمر بن الخطاب ، وانظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٣١ (طبعة الحلبي) .
(٢) الغرز في الأصل : ركاب كور الجمل ، والكلام هنا على المجاز ، أى اتبع قوله وفعله .
(٣) سورة البقرة ٢٦١ .
(٤) هما سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة الأنصاريان .

وقالت الأنصار له يوم بدر ، وقد نزل بمنزل لم يستصلحوه :أنزلت هذا المنزل عن رأي رأيت أم بوحي أوحيَ إليك ؟ قال : بل عن رأي رأيته ، قالوا : إنه ليس لنا بمنزل ، ارحل عنه فانزل بموضع كذا . ١

وأما قول أبي بكر له : « الزم غَرْزه ، فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم» فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه ، ولا يدل ذلك على الشك ، فقد قال الله تعالى لنبيه : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (١) ؛ وكل أحد لا يستغنى عن زيادة اليقين والطمأنينة . وقد كانت وقعت من هذا القائل أمورٌ دون هذه القصة ، كقوله : دعْني أضرب عُنُق أبي سفيان وقوله : دَعْني أضرب عُنق عبد الله بن أُبَيّ ، وقوله : دَعْني أضرب عُنق حاطب بن أبي بَلْتعة . ونَهى النبيّ صلى الله عليه وآله عن التسرع إلى ذلك ، وجذبه ثوبَ رسول الله صلى الله عليه وآله حين قام على جنازة ابن سَلُول يصلّي ، وقوله : كيف تستغفر لرأس المنافقين ! وليس في ذلك جميعه ما يدل على وقوع القبيح منه ، وإنما الرّجلُ كان مطبوعاً على الشدّة والشراسة والخشونة ، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجيّة التي طبِع عليها . وعلى أيّ حال كان ، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيراً .

* * *

قوله عليه السلام : « ولقد واسيتُه بنفسي » ؛ يقال : واسيته وآسيته ، وبالهمزة أفصح ، وهذا مما اختصّ عليه السلام بفضيلته غير مدافَع ، ثبت معه يوم أُحُد وفرّ الناس ، وثبت معه يوم حُنين وفرّ الناس ، وثبت تحت رايته يوم خَيْبر حتى فتحها وفرّ من كان بعث بها من قبله .

---

(١) سورة الإسراء ٧٤ .

وروى المحدّثون أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما ارتُثّ[1] يوم أُحد، قال الناس: قتل محمد، رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى، إلّا أنه حيّ، فصمدت له. فقال لعليّ عليه السلام : اكفنى هذه، فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة أخرى، فقال : ياعليّ اكفنى هذه، فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة ثالثة، فكذلك، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك يقول : قال لى جبريل : يامحمد، إنّ هذه للمواساة، فقلت : وما يمنعه وهو منّى وأنا منه! فقال جبريل: وأنا منكما.

وروى المحدّثون أيضاً أنّ المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادى : « لاسيف إلا ذو الفَقار، ولا فتى إلّا عليّ » فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن حضره: « ألا تسمعون! هذا صوتُ جبريل ».

وأما يومُ حنين فثبت معه فى نفرٍ يسير من بنى هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامَى عنه، وقتَل قوماً من هوازن بين يديه، حتى ثابتْ إليه الأنصار، وانهزمت هوازن وغنمت أموالها.

وأما يوم خيبرَ فقصّته مشهورة.

* * *

قوله عليه السلام : « نجدةً أكرمنى الله سبحانه بها »، النّجْدة: الشجاعة، وانتصابها هاهنا على أنّها مصدر، والعامل فيه محذوف.

ثم ذكر عليه السلام وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال : « لقد قبض وإنّ رأسَه لَعَلى صدرى، ولقد سالتْ نفسه فى كفّى، فأمررتُها على وجهى». يقال: إنّ رسول الله

---

(١) ارتث : حمل من المعركة جريحا وبه رمق.

صلى الله عليه وآله قاء دماً يسيراً وقت موته ، وإنّ علياً عليه السلام مَسّحَ بذلك الدّم وجهه .

وقد رُوِيَ أنّ أبا طيبة الحجّام شرب دمه عليه السلام وهو حيّ ، فقال له : إذن لا يجعُ بطنك .

قوله عليه السلام : « ضجّت الدار والأفنية » ، أى النازلون فى الدار من الملائكة ؛ أى ارتفع ضجيجهم وجلبهم ، يعنى أنى سمعت ذلك ولم يسمعه غيرى من أهل الدار .

والملأ : الجماعة ؛ يهبط قومٌ من الملائكة ويصعد قوم . والعروج : الصعود . والهينمة : الصوتُ الخفىّ . والضريح : الشقّ فى القبر .

***

[ذكر خبر موت الرسول عليه السلام]

وقد روى من قصّة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أنه عرضت له الشكاة التى عرضت ، فى أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة ، فجهز جيش أسامة بن زيد ، فأمرهم بالمسير إلى البلقاء حيث أصيب زيد وجعفر عليهما السلام من الرّوم ، وخرج فى تلك الليلة إلى البقيع ، وقال : إنى قد أمرت بالاستغفار لهم ، فقال عليه السلام : السّلام عليكم يأهل القبور ، ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع أوّلها آخرها . ثم استغفر لأهل البقيع طويلا ، ثم قال لأصحابه : إنّ جبريل كان يعارضنى القرآن فى كلّ عام مرّة ، وقد عارضنى به العامَ مرتين ، فلا أراه إلا لحضور أجلى. ثمّ انصرف إلى بيته ، فخطب الناس فى غده ، فقال[1] : معاشر الناس ، قد حان منّى خُفُوق من بين أظهركم ، فمن كان له عندى عِدَة ، فليأتنى أعطه إياها ، ومَنْ كان علىّ دين ، فليأتنى أقضه . أيّها الناس ، إنّه ليس بين الله وبين أحد نسبٌ ولا أمر يؤتيه به خيرا ،

(١) ساقطة من ب .

أو يصرف عنه شرًّا إلا العمل ، ألا لا يدّعين مدّعٍ ولا يتمنّين متمنٍّ . والذى بعثنى بالحق لا ينجّى إلّا عمل مع رحمة ، ولو عَصَيْت لهويت . اللهمّ قد بلّغت .

ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خفيفة ، ثم دخل بيت أم سلَمة ، ثمّ انتقل إلى بيت عائشة يعلّله النساء والرجال ، أمّا النساء فأزواجه وبنته عليها السلام ، وأمّا الرجال فعلىّ عليه السلام والعبّاس والحسن والحسين عليهما السلام ، وكانا غلامين يومئذ ، وكان الفضل بن العباس يدخل أحيانا إليهم ، ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مرَضه ، فأوّل ذلك التنازع الواقع يوم قال صلى الله عليه وآله : « ائتونى بدواة وقرطاس » ، وتلا ذلك حديث التخلّف عن جيش أسامة ، وقول عيّاش بن أبى ربيعة : أيولّى هذا الغلام على جلّة المهاجرين والأنصار !

ثم اشتدّ به المرض ، وكان عند خفّة مرضه يصلّى بالناس بنفسه ، فلما اشتدّ به المرض، أمر أبا بكر أن يصلّى بالناس .

وقد اختلف فى صلاته بهم ، فالشّيعة تزعم أنه لم يصلّ بهم إلّا صلاة واحدة ، وهى الصّلاة التى خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يتهادَى بين علىّ عليه السلام والفَضْل ، فقام فى المحراب مقامه ، وتأخّر أبو بكر .

والصحيح عندى — وهو الأكثر الأشهر — أنّها لم تكن آخر صلاة[1] فى حياته صلّى الله عليه وآله بالنّاس جماعة ، وأنّ أبا بكر صلّى بالناس بعد ذلك يومين ، ثم مات صلّى الله عليه وآله ؛ فمن قائل يقول : إنّه توفّى لليلتين بقيتا من صَفَر ، وهو القول الذى تقوله الشّيعة ؛ والأكثرون أنّه توفّىَ فى شهر ربيع الأول بعد مضىّ أيام منه .

وقد اختلفت الرّواية فى موته ، فأنكر عمر ذلك ، وقال : إنّه لم يَمُتْ ، وإنه غاب وسيعود ، فثناه أبو بكر عن هذا القول ، وتلا عليه الآيات المتضمّنة أنه سيموت ، فرجع إلى قوله .

(١) ب : « الصلاة » .

ثم اختلفوا فى موضع دفنه ، فرأى قوم أن يدفنوه بمكة لأنها مسقطُ رأسه ، وقال مَنْ قال : بل بالمدينة ؛ ندفنه بالبقيع عند شهداء أُحُد . ثم اتفقوا على دفنه فى البيت الذى قبض فيه ، وصلّوا عليه أرسالًا لا يؤمّهم أحد .

وقيل : إن عليًّا عليه السلام أشار بذلك فقبلوه .

وأنا أعجب من ذلك ؛ لأنّ الصّلاة عليه كانت بعد بَيْعة أبى بكر ، فما الذى منع من أن يتقدّم أبو بكر فيصلّى عليه إماما !

وتنازعوا فى تلحيده وتضريحه ، فأرسل العبّاس عمُّه إلى أبى عبيدة بن الجرّاح ـ وكان يحفر لأهل مكّة ويضرّح[1] على عادتهم ـ رجلا ، وأرسل على رجلًا إلى أبى طلحة الأنصارىّ ـ وكان يَلحد لأهل المدينة على عادتهم ـ وقال : اللهمّ اخترْ لنبيّك ، فجاء أبو طلحة فلحد له ، وأدخل فى اللّحد .

وتنازعوا فيمن ينزل معه القَبْر ، فمنع علىٌّ عليه السلام النّاس أن ينزلوا معه ، وقال : لا ينزل قبرَه غيرى وغير العبّاس ، ثم أذن فى نزول الفضل وأسامة بن زيد مولاهم ، ثم ضجّت الأنصار ، وسألت أن ينزل منها رجل فى قبره . فأنزلوا أوس بن خولى ـ وكان بدريًّا .

فأما الغسْل فإنّ عليًّا عليه السلام تولّاه بيده ، وكان الفضل بن العباس يصبّ عليه الماء .

وروى المحدّثون عن علىّ عليه السلام ، أنه قال : ما قلّبْتُ منه عُضْواً إلّا وانقلب، لا أجدُ له ثِقلاً ، كأنّ معى مَنْ يساعدنى عليه ، وما ذلك إلّا الملائكة .

وأما حديث الهينمة وسماع الصّوت ، فقد رواه خَلْق كثير من المحدّثين ، عن علىّ

(١) يضرح : أى يشق ويحفر له ضريحاً .

عليه السلام ، وتروى الشيعة أنّ عليًّا عليه السلام عَصَب عَيْنَي الفضْل بن العباس ، حين صبّ عليه الماء ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصاه بذلك ، وقال : إنه لايبصر عورتى أحدٌ غيرُك إلا عَمِيَ .

* * *

قوله عليه السلام : « فمن ذا أحقّ به منّى حيًّا وميتا ! » ، انتصابهما على الحال من الضمير المجرور فى « به » ، أى أىّ شخص أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله حال حياته وحال وفاته منّى ؛ ومراده من هذا الكلام أنه أحقّ بالخلافة بعده وأحقّ الناس بالمنزلة منه حيث كان بتلك المنزلة منه فى الدنيا ؛ وليس يجوز أن يكونا حالين من الضمير المجرور فى «منّى» لأنه لايحسن أن يقول : أنا أحقّ به إذا كنت حيًّا من كلّ أحد ، وأحقّ به إذا كنت ميتا من كلّ أحد ، لأنّ الميت لايوصَف بمثل ذلك ، ولأنه لا حال ثبتت له من الأحقّيّة إذا كان حيًّا إلّا وهى ثابتة له إذا كان ميتا ، وإن كان الميت يوصف بالأحقّيّة ، فلا فائدة فى قوله : « وميتا » على هذا الفرض ، ولا يبقى فى تقسيم الكلام إلى قسمين فائدة ، وأمّا إذا كان حالا من الضمير فى « به » ، فإنه لايلزم من كونه أحقّ بالمنزلة الرفيعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حىّ أن يكونَ أحقَّ بالخلافة بعد وفاته ، أى ليس أحدُهما يلزم الآخر ، فاحتاج إلى أن يبيّن أنّه أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله من كلّ أحد إن كان الرسول حيًّا ، وإنْ كان ميتا ، ولم يستهجن أن يقسِّم الكلام إلى القسمين المذكورين.

قوله عليه السلام : « فانفذوا إلى بصائركم » ، أى أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التى أنتم عليها ، ولا يدخلنّ الشكّ والرَّيب فى قلوبكم .

قوله عليه السلام : « إنى لعلى جادّة الحق ، وإنهم لعلى مزلة الباطل » ؛ كلام عجيب

على قاعدة الصناعة المعنوية ، لأنه لا يحسن أن يقول : وأبهم لَعَلَّ جادة الباطل ؛ لأن الباطل لا يوصف بالجادة ، ولهـذا يقال لمن ضلّ : وقع في بُنَيَّاتِ الطريق[١] ، فعوّض عنها بلفظ « المزلّة » ، وهي للموضع الذي يزلّ فيه الإنسان ، كالمزلقة : موضع الزَّلَق ، والمغرقة : موضع الغرق ، والمهلكة : موضع الهلاك .

---

(١) بنيات الطريق في الأصل : الطرق الصغار تتشعب من الجادة .

(١٩١)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ ، وَاخْتِلَافَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ ، وَتَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللهِ ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ ، وَطُهُورُ دَنَسِ أَنفُسِكُمْ ، وَجِلَاءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ .

* * *

الشَّـرْحُ :

العجيج : رفع الصوت ، وكذلك العَجّ ، وفي الحديث : « أفضل الحج العَجّ والثَّجّ » ، أى التلبية وإراقة الدم ، وعجيج ، أى صوت ، ومضاعفة اللفظ دليل على تكرير التصويت .

والنِّينان : جمع نُونٍ ، وهو الحوت ، واختلافها هاهنا : هو إصعادها وانحدارها .

ونجيب الله : منتجَبه ومختاره .

وسفير وحيه : رسول وحيه ، والجمع سفَراء ، مثل فقيه وفقهاء .

وإليه مرامى مفزعكم : إليه تفزعون وتلجئون ، ويقال : فلان مرمّى قصدى، أى هو للوضع الذى أنحوه وأقصده .

ويروى: « وجلاء عَشَى أبصاركم »، بالعين المهملة والألف المقصورة، والجأش : القلب، وتقدير الكلام : وضياء سواد ظلمة عقائدكم ، ولكنّه حذف المضاف للعلم به .

• • •

الأصْـلُ :

فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعاراً دُونَ دِثارِكُمْ ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعارِكُمْ ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاعِكُمْ ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ ، وَشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ ، وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ .

فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا ، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا ، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا ، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا ، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا ، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا ، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا .

فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ ، وَامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ . فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ .

• • •

الشَّرْحُ :

الشِّعار : أقرب إلى الجسد من الدِّثار . والدّخيل : ما خالط باطنَ الجسد، وهو[1] أقرب من الشعار .

ثم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يجعل التقوى لطيفا بين الأضلاع ، أى فى القلب، وذلك أمسّ بالإنسان من الدخيل ، فقد يكون الدّخيل فى الجسد وإن لم يخامر القلب .

ثم قال : « وأميرا فوق أموركم » ، أى يحكم على أموركم كما يحكم الأمير فى رعيّته .

والمنهل : الماء يرده الوارد من الناس وغيرهم .

وقوله : « لحين ورودكم » ، أى لوقت ورودكم .

والطِّلْبة بكسر اللام : ماطلبته من شىء .

قوله : « ومصابيح لبطون قبوركم » ، جاء فى الخبر : إن العمل الصالح يضىء قبرَ صاحبه كما يضىء المصباح الظلمة .

والسَّكن : مايسكن إليه .

قوله : « ونفَسًا لكرب مواطنكم » ؛ أى سعة ورَوْحا .

ومكتنفة : محيطة . والأُوَار : حرّ النار والشمس .

وعَزَبَت : بعُدت . واحلولت : صارت حلوة . وتراكُمها : اجتماعها وتكاثفها .

وأسهلت : صارت سهلة . بعد إنصابها ، أى بعد إتعابها لكم ؛ أنصبه : أتعبه .

وهطلت : سالت . وقحوطها : قلّتها وتَناحيها[2] .

وتحدّبت عليه : عطفت وحنّت .

نضوبها : انقطاعها . كنضوب الماء : ذهابه .

---

(١) ب : « فهو » . (٢) الرناحة : القلة .

ووبَلَ المطر : صار وابلا ، وهو أشدّ المطر وأكثره . وإرذاذها : إتيانها بالرَّذاذ وهو ضعيف المطر .

قوله : « فعبّدوا أنفسكم » ، أى ذلّلوها . ومنه طريق معبّد .

واخرجوا إليه من حقّ طاعته ، أى أدُّوا المفترَض عليكم من العبادة ، يقال : خرجت إلى فلانٍ من دَيْنه ، أى قضيته إياه .

* * *

الأصْلُ :

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الإِسْلَامَ دِينُ اللهِ الَّذِى اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ .

أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ ، وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ ، وَأَتْأَقَ الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ .

ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ ، وَلَا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ ، وَلَا انْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ ؛ وَلَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ ، وَلَا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ ، وَلَا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ ، وَلَا سَوَادَ لِوَضَحِهِ ، وَلَا عِوَجَ لِانْتِصَابِهِ ، وَلَا عَصَلَ فِى عُودِهِ ، وَلَا وَعْثَ لِفَجِّهِ ، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ .

فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِى الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا ، وَثَبَّتَ لَهَا آسَاسَهَا ؛ وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا ، وَمَصَابِيحُ شُبَّتْ نِيرَانُهَا ؛ وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا ، وَأَعْلَامٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا ، وَمَنَاهِلُ رَوِىَ بِهَا وُرَّادُهَا .

جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ ، مُضِيءُ النِّيرَانِ ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ ، مُعْوِذُ الْمَثَارِ .

فَشَرِّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ ؛ وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

اصطنعه على عينه ؛ كلمة تقال لما يشتدّ الاهتمام به ، تقول للصانع : اصنع لى كذا على عينى ، أى اصنعه صنعة كاملةً كالصنعة التى تصنعها وأنا حاضر أشاهدها بعينى ، قال تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[1] .

وأصفاه خيرَة خلقه ، أى آثر به خيرَة خلقه ، وهم المسلمون ؛ ويروى : «خِيرَة» مفتوحة.

قال : وأقام الله دعائم الإسلام على حب الله وطاعته .

والمحادّ : المخالف ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ ﴾[2] ، أى من يعادِ الله كأنه يكون فى حدّ وجهة ، وذلك الإنسان فى حدّ آخر وجهة أخرى ، وكذلك المشاقّ ؛ يكون فى شقّ والآخر فى شق آخر .

وأتأق الحياض : ملأها ، وَتَئِقَ السِّقاء نفسه يتأق تأقا ، وكذلك الرجل ، إذا امتلأ غضباً .

قوله : « بموانحه » ، وهى الدِّلاء يمتح بها ، أى يستقى بها .

والانفصام : الانكسار . والعفاء : الدُّروس .

والجَذّ : القطع ، ويروى بالدال المهملة ؛ وهو القطع أيضاً .

والضَّنْك : الضيق .

---

(١) سورة طه ٣٩ . (٢) سورة التوبة ٩ .

والوعوثة : كثرة فى السهولة توجب صعوبة المشى ؛ لأن الأقدام تبيث فى الأرض .

والوضَح : البياض .

والعوَج ، بفتح العين : فيما ينتصب كالنخلة والرمح ، والعِوَج بكسرها : فيما لا ينتصب ؛ كالأرض والرأى والدِّين .

والعَصَل : الالتواء والاعوجاج ، ناب أعصل وشجرة عصلة ، وسهام عُصْل .

والفَجّ : الطريق الواسع بين الجبلين ، يقول : لا وَعث فيه ؛ أى ليس طريق الإسلام بوعث ، وقد ذكرنا أنّ الوعوثة ماهى .

قوله : « فهو دعائم أساخ فى الحق أسناخها » ، الأسناخ : جمع سِنْخ ، وهو الأصل ، وأساخها فى الأرض : أدخلها فيها ، وساخت قوائم فرسه فى الأرض تسوخُ وتَسِيخ : دخلت وغابت .

والأساس بالمدّ : جمع أُسّ ، مثل عُسّ وعِساس ، والأَسَس والأُسّ والأساس واحد ، وهو أصل البناء .

وغَزُرت عيونها ، بضم الزاى : كثرت . وشُبّت نيرانها بضم الشين : أوقدت ، والنار : الأعلام فى الفلاة .

قوله : « قصد بها فجاجها » ، أى قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين فى تلك الفجاج ، فأضاف القصد إلى الفجاج .

وروى : « روّادها » جمع رائد ، وهو الذى يسبق القوم فيرتاد لهم الكلأ والماء .

والذُّرْوة : أعلى السنام والرأس وغيرهما .

قوله : « معوزة المثار » ، أى يعجز الناس إثارته وإزعاجه لقوّته ومتانته .

* * *

الأصل :

ثُمَّ إِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ ، حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الانْقِطَاعُ ؛ وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الاطِّلَاعُ ، وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا ، وَاقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا ، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا ، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا ، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا ، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا .

جَعَلَهُ اللّهُ سُبْحَانَهُ بَلَاغاً لِرِسَالَتِهِ ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ ، وَرَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ ، وَرِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ ، وَشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجاً لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَبَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ ، وَمِنْهَاجاً لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ ، وَشُعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ ، وَفُرْقَاناً لَا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ ، وَتِبْيَاناً لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ ، وَعِزّاً لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ ، وَحَقّاً لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ .

فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ ، وَأَثَافِيُّ الْإِسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ . وَبَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ ، وَعُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ، وَمَنَاهِلُ لَا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَنَازِلُ لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ ، وَأَعْلَامٌ لَا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ ، وَآكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ .

* * *

[اختلاف الأقوال في عمر الدنيا]

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « حين دنا من الدنيا الانقطاع » ، أى أزفت الآخرة وقرُب وقتها . وقد اختلف الناس فى ذلك اختلافا شديداً فذهب قوم إلى أنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، قد ذهب بعضها وبقى بعضها .

واختلفوا فى مقدار الذاهب والباقى ، واحتجّوا لقولهم بقوله تعالى : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] ، قالوا : اليوم هو إشارة إلى الدنيا ، وفيها يكون عروج الملائكة والروح إليه ، واختلافهم بالأمر من عنده إلى خلقه ، وإلى رسله ، قالوا : وليس قول بعض المفسّرين أنّه عنى يوم القيامة بمستحسَن ، لأنّ يوم القيامة لا يكون للملائكة والرّوح عروج إليه سبحانه ، لانقطاع التكليف ، ولأنّ المؤمنين إمّا أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة ، أو يكون هذا مختصاً بالكافرين فقط ، ويكون قصيراً على المؤمنين ، والأوّل باطل ؛ لأنّه أشدّ من عذاب جهنّم ، ولا يجوز أن يلقى المؤمن هذه المشقّة ، والثّانى باطل ؛ لأنّه لا يجوز أن يكون الزّمان الواحد طويلا قصيرا بالنّسبة إلى شخصين ، اللهمّ إلّا أن يكون أحدهما نائما ، أو ممنوًّا بعلّة تجرى مجرى النّوم ، فلا يحسّ بالحركة ، ومعلوم أنّ حال المؤمنين بعد البعث ليست هذه الحال .

قالوا : وليست هذه الآية مناقضة للآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[2] ، وذلك لأنّ سياق الكلام يدلّ على أنه أراد به الدّنيا ، وذلك لأنّه قد وَرَد فى الخبر أنّ

---

(١) سورة المعارج ٤ .
(٢) سورة السجدة ٥ .

بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام ، فإذا نزل الملك إلى الأرض ، ثم عاد إلى السماء، فقد قطع في ذلك اليوم مسيرة ألف عام ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، أي ينزل الملك بالوحي والأمر والحكم من السماء إلى الأرض،ثم يعود راجعاً إليه وعارجاً صاعداً إلى السماء ، فيجتمع من نزوله وصعوده مقدارُ مسير ألف سنة.

* * *

وذكر حمزة بن الحسن الأصفهانيّ في كتابه المسمى " تواريخ الأمم " : أنّ اليهود تذهب إلى أنّ عدد السنين من ابتداء التّناسل إلى سنة الهجرة لمحمد صلى الله عليه وآله أربعة آلاف واثنتان وأربعون سنة وثلاثة أشهر .

والنصارى تذهبُ إلى أنّ عدد ذلك خمسة آلاف وتسعمائة وتسعون سنة وثلاثة أشهر .

وأنّ الفرس تذهب إلى أنّ من عهد كيومَرْث والد البشر عندهم إلى هلاك يَزْدَجِرد ابن شهريار الملك أربعة آلاف ومائة واثنين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعةعشر يوماً، ويسندون ذلك إلى كتابهم الذي جاء به زرَدُشت ، وهو الكتاب المعروف بأبستا .

فأمّا اليهود والنصارى فيسندون ذلك إلى التوراة ويختلفون في كيفيّة استنباط المدّة .

وتزعم النّصارى واليهود أن مدة الدّنيا كلّها سبعة آلاف سنة ، قد ذهب منها ماذَهب وبقي ما بَقِيَ .

وقيل : إنّ اليهود إنما قصّرت المدّة لأنهم يزعمون أنّ شيخهم الذي هو منتظرُهم ، يخرج في أوّل الألف السابع ، فلولا تنقيصهم المدة وتقصيرهم أيامها لدجّل افتضاحهم ، ولكن سيفتضحون فيما بعد عند مَنْ يأتي بعدنا من البشر .

قال حمزة : وأما المنجّمون فقد أتوا بما ينمز هذا كلّه ، فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارتْ فيه الكواكب ، من رأس الحمل إلى اليوم الذى خرج فيه المتوكّل ابن معتصم بن الرشيدمن سامرّاء إلى دمشق ، ليجعلهادار الملك ، وهو أول يوم من المحرّم سنة أربع وأربعين ومائتين الهجرة المحمدية ، أربعة آلاف ألف ألف ألف ـ ثلاث لفظات ـ وثلاثمائة ألف وعشرون ألف سنة، بسنى الشمس

قالوا : والذى مضى من الطّوفان إلى صبيحة اليوم الذى خرج فيه المتوكّل إلى دمشق ثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوما .

* * *

وذكر أبو الريحان البيروني فى كتاب ''الآثار الباقية من القرون الخالية'' : أنّ الفرس والمجوس يزعمون أن عُمْر الدنيا اثنا عشر ألف سنة ، على عدد البروج وعدد الشهور ، وأنّ الماضىَ منها إلى وقت ظهور زَرَدُشْت صاحب شريعتهم ثلاثة آلاف سنة ، وبين ابتداء ظهور زَرَدُشْت وبين أول تاريخ الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة ، وبين تاريخ الإسكندر وبين سنته التى كتبنا فيها شرح هذا الفصل ـ وهى سنة سبع وأربعين وستمائة للهجرة النبويّة ـ ألف وخمسمائة وسبعون سنة ، فعلى هذا يكون الماضى إلى يومنا هذا من أصل اثنى عشر ألف سنة أربعة آلاف وثمانمائة وثمانى عشرة سنة ، فيكون الباقى من الدنيا على قولهم أكثر من الماضى .

وحكى أبو الريحان عن الهند فى بعض كتبه، أنّ مدّة عمر الدنيا مقدار تضعيف الواحد من أول بيت فى رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت .

* * *

فأما الأخباريّون من المسلمين ، فأكثرهم يقولون : إنّ عمر الدّنيا سبعة آلاف سنة

ويقولون إننا في السابع ، والحق أنه لايعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده ، كما قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا • فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا • إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾(١)، وقال : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾(٢).

ونقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾(٣) و ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾(٤) ، و ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾(٥).

ولا نعلم كمية الماضي ولا كمية الباقي ، ولكنا نقول كما أمرنا ، ونسمع ونطيع كما أدبنا ، ومن الممكن أن يكون مابقي قريبا عند الله ، وغير قريب عندنا ، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾(٦).

وبالجملة هذا موضع غامض يجب السكوت عنه

* * *

قوله عليه السلام : « وقامت بأهلها على ساق » ، الضمير للدنيا ، والساق الشدة،أى انكشفت عن شدة عظيمة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾(٧) أى التفت آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة .

والمهاد : الفراش ، وأزف منها قياد ، أى قرب انقيادها إلى التقضى والزوال .

وأشراط الساعة : علاماتها ، وإضافتها إلى الدنيا لأنها في الدنيا تحدث ، وإن كانت علامات للأخرى . والعفاء : الدروس

---

(١) سورة النازعات ٤٢ - ٤٤ .
(٢) سورة الأعراف ٨٧ .
(٣) سورة القمر ١ .
(٤) سورة الأنبياء ١ .
(٥) سورة النحل ١ .
(٦) سورة المعارج ٦ .
(٧) سورة القيامة ٢٩ .

وروى : « من طِوَلها » والطِّوَل : الحبل .

ثم عاد إلى ذكر النبي صلى الله عليه وآله فقال : جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته ؛ أى ذا بلاغ ، والبلاغ : التبليغ ، فحذف المضاف .

ولا تخبو : لا تنطفئ . والفرقان : مايُفَرَّق به بين الحقّ والباطل .

وأثافىّ الإسلام : جمع أُثفِيّة ، وهى الأحجار توضع عليها القِدْر ، شكل مثلّث .

والغيطان : جمع غائط ، وهو المطمئنّ من الأرض .

ولا يَغيضها ، بفتح حرف المضارعة ، غاض الماء ، وغِضتُه أنا ، يتعدّى ولا يتعدّى ، وروى « لا يُغيضها » بالضمّ على قول من قال : أغضت الماء ، وهى لغة ليست بالمشهورة

والإكام : جمع أَكَم ، مثل جِبال جمع جَبَل ، والأَكَم جمع إكَمة ، مثل عِنَب جمع عِنَبة ، والأكَمة : ماعلا من الأرض ، وهى دون الكثيب .

* * *

الأَصْـلُ :

جَعَلَهُ اللهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ ، وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى ، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى .

* * *

الشَّرْحُ :

الضمير يرجع إلى القرآن، جعله الله ريًّا لعطش العلماء، إذا ضلّ العلماء في أمر والتبس عليهم رجعوا إليه، فسقاهم كما يسقي الماء العطش، وكذا القول في « وربيعا لقلوب الفقهاء »، والربيع هاهنا: الجدول، ويجوز أن يريد المطر في الرّبيع، يقال: رَبِعتِ الأرض فهي مربوعة.

والمحاجّ: جمع محجّة، وهي جادّة الطريق. والمعقِل: الملجأ.

وسِلْمًا لمن دخله، أي مأمنا، وانتحله: دان به، وجعله نِحْلَته.

والبرهان: الحجّة، والفَلْج: الظَّفَر والفوز. وحاجّ به: خاصم.

قوله عليه السلام: « وحاملا لمن حمله » أي أنّ القرآن ينجّي يوم القيامة مَنْ كان حافظا له في الدنيا، بشرط أن يعمل به.

قوله عليه السلام: « ومطيّة لمن أعمله » استعارة، يقول: كما أنّ المطية تنجّي صاحبها إذا أعملها وبعثها على النّجاء، فكذلك القرآن إذا أعمله صاحبه أنجاه، ومعنى إعماله، اتّباع قوانينه والوقوف عند حدوده.

قوله: « وآية لمن توسّم »، أي لمن تفرّس، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1].

والجُنّة: ما يستَتَرُ به: واستلأم: لبس لأمة الحرب، وهي الدرع.

ووَعَى: حفظ.

قوله: « وحديثا لمن روى »، قد سمّاه الله تعالى حديثا فقال: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

---

(١) سورة الحجر ٧٥ .

الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾[1] ؛ وأصحابنا يحتجون بهذه اللفظة على أنّ القرآن ليس بقديم؛ لأنّ الحديث ضدّ القديم .

وليس للمخالف أن يقول : ليس المراد بقوله : ﴿ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ماذكرتم ؛ بل المراد أحسنُ القول ، وأحسن الكلام ، لأنّ العرب تسمّى الكلام والقول حديثا ، لأنا نقول : لعمرى إنه هكذا ، ولكن العرب ماسمّت القول والكلام حديثا إلّا أنه مستحدَث متجدِّد حالا فحالا ، ألاترى إلى قول عمرو لمعاوية : « قد ملّتُ كلّ شىء إلّا الحديث» فقال : إنّما يملّ العتيق ؛ فدلّ ذلك على أنّه فهم معنى تسميتهم الكلام والقول حديثا ، وفطِن لمرام ومقصدهم فى هذه التسمية ، وإذا كنّا قد كلّفنا أن نُجرى على ذاته وصفاته وأفعاله ماأجراه سبحانه فى كتابه ، ونطلق ما أطلقه على سبيل الوضع والكيفيّة التى أطلقها وكان قد وصف كلامه بأنه حديث ـ وكان القرآن فى عرف اللغة إنما سمّى حديثا لحدوثه وتجدّده ـ فقد ساغ لنا أن نُطلِقَ على كلامه أنه محدَث ومتجدِّد ؛ وهذا هو المقصود .

---

(١) سورة الزمر ٢٣ .

(١٩٢)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام كان يوصي به أصحابه :

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا ، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا ، وَتَقَرَّبُوا بِهَا ، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً . أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ • قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾[1] .

وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرِّبَقِ .

وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ !

وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ ، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾[2]

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِباً بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[3] ؛ فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ، وَيُصَبِّرُ نَفْسَهُ .

---

(١) سورة المدثر ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) سورة النور ٣٧ .
(٣) سورة طه ١٣٢ .

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا ؛ فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً ، وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً ؛ فَلَا يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ ، وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ ، مَغْبُونُ الْأَجْرِ ، ضَالُّ الْعَمَلِ ، طَوِيلُ النَّدَمِ . ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ ؛ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ ، وَالْأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ ؛ فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ ؛ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا . وَلَوِ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ ، أَوْ عَرْضٍ ، أَوْ قُوَّةٍ ، أَوْ عِزٍّ ، لَامْتَنَعْنَ ؛ وَلَكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (١) .

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، لَطُفَ بِهِ خُبْراً ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً ، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ .

• • •

الشَّرْحُ :

هذه الآية يستدلّ بها الأصوليّون من أصحابنا على أنّ الكفار يعاقبون في الآخرة على ترك الواجبات الشرعية ، وعلى فعل القبائح ، لأنّها في الكفار وردت ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ (٢) . فليس يجوز أن يعنى بالمجرمين هاهنا الفاسقين من أهل القبلة ، لأنه قال : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢ .
(٢) سورة المدثر ٤٢ ـ ٤٧ .

ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾(١) .

قالوا : وليس لقائل أن يقول : معنى قوله : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ ﴾ لم نكن من القائلين بوجوب الصلاة ؛ لأنه قد أغنى عن هذا التعليل قوله : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ لأنّ أحد الأمرين هو الآخر ، وحمل الكلام على مايفيد فائدة جديدة أولى من حمله على التكرار والإعادة ، فقد ثبت بهذا التقرير صحة احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على تأكيد أمر الصلاة ، وأنها من العبادات المهمة في نظر الشارع .

قوله عليه السلام : « وإنّها لتحتّ الذنوب » ، الحتّ : نثر الورق من الغصن ، وانحاتّ ، أي تناثر ؛ وقد جاء هذا اللفظ في الخبر النبوىّ بعينه .

والرِّبَق : جمع رِبْقة ، وهي الحبل ، أي تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحبال المعقّدة ، أي تحلّ ماانعقد على المكلّف من ذنوبه ، وهذا من باب الاستعارة .

ويروى : « تعهّدوا أمر الصلاة » بالتضعيف ، وهو لغة ، يقال : تعاهدت ضَيْعتى وتعهّدتها وهو القيام عليها ، وأصله من تجديد العهد بالشىء ، والمراد المحافظة عليه؛ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ ، أى واجبا ، وقيل موقوتا : أي منجّما كلّ وقت لصلاة معيّنة ؛ وتؤدّى هذه الصلاة في نجومها .

وقوله : « كتابا » أى فرضا واجبا ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾(٣) أى أوجب .

والحَمّة : الحفيرة فيها الحميم وهو الماء الحار ، وهذا الخبر من الأحاديث الصحاح ، قال صلى الله عليه وآله : « أيسرّ أحدكم أن تكون على بابه حَمّة يغتسل منها كلّ يوم خمس

(١) سورة المدثر ٤٢ — ٤٧ .
(٢) سورة النساء ١٠٣ .
(٣) سورة الأنعام ٣

مرات ، فلايبقى عليـه من دَرَنِهِ شىء ؟ قالوا نعم ، قال : فإنّهـا الصلوات الخمس » .
والدَّرَن : الوسخ .

والتجارة فى الآية ، إمّا أنْ يراد بها : لايشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر الله .
ثم أفرد البيع بالذكر ، وخصّه وعطفه على التجارة العامة ، لأنه أدخل فى الإلهاء ، لأنّ الربح
فى البيع بالكسب معلوم ، والرّبح فى الشراء مظنون ، وإمّا أن يريد بالتجارة الشراء
خاصة إطلاقا لاسم الجنس الأعمّ على النوع الأخصّ ، كما تقول : رزق فلان تجارة رابحة ،
إذا اتّجه له شراء صالح ، فأما إقام الصلاة فإنّ التاء فى « إقامة » عوض من العين الساقطة
للإعلال ، فإنّ أصله « إقوام » مصـدر أقام ، كقولك : أعرض إعراضاً ، فلما أضيفت
أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت التاء .

قوله عليه السـلام : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نصباً بالصلاة ، أى تَعِباً ، قال
تعالى: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾[1]
وروى أنه عليه السـلام قام حتى تورّمت قدماه مع التبشير له بالجنة .
وروى أنه قيل له فى ذلك فقال : « أفلا أكونُ عبدا شكورا ! » .
ويُصبر نفسه : من الصبر ، ويروى : « ويَصْبر بها نفسه » أى يحبس؛ قال سبحانه:
﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾[2] . وقال عنترة يذكر حربا كان فيها :
فَصَبَرْتُ عارِفَـةً لذلك حُرَّةً   تَرْسُو إذانفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ[3]

* * *

[فصل فى ذكر الآثار الواردة فى الصلاة وفضلها]

واعلم أنّ الصلاة قد جاء فى فضلها الـكثير الذى يُعجزنا حصره ، ولو لم يـكن

---

(١) سورة طه ٢ .   (٢) سورة الكهف ٢٨ .
(٣) اللسان (صبر) .

إلا ماورد في الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيد الوصاة بها والمحافظة عليها ، لكان بعضه كافياً .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « الصَّلاةُ عمودُ الدّين ، فمن تركها فقد هدَمَ الدين » .
وقال أيضاً عليه السلام : « عَلَمُ الإيمان الصَّلاة ، فمن فرّغ لها قلبه ، وقام بحدودها ؛ فهو المؤمن » .

وقالت أم سلمة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه ، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه .

وقيل للحسن رحمه الله : مابال المتهجّدين من أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : لأنّهم خلَوا بالرحمن ، فألبسهم نوراً من نوره .

وقال عمر : إنّ الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام ما أكمل الله له صلاة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتمّ خشوعها وتواضعها وإقباله على ربه فيها .

وقال بعض الصالحين : إنّ العبد ليسجُد السّجدة عنده أنه متقرّب بها إلى الله ، ولو قُسِم ذنبه في تلك السجدة على أهل مدينة لهلكوا ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : يكون ساجداً وقلبه عند غير الله ، إنّما هو مصغٍ إلى هوًى أو دنيا .

صلّى أعرابيّ في المسجد صلاة خفيفة ، وعمر بن الخطاب يراه ، فلمّا قضاها قال : اللهمّ زوّجني الحور العين . فقال عمر : يا هذا لقد أسأت النَّقْد ، وأعظمت الخِطْبة !

وقال عليّ عليه السلام : لايزال الشيطان ذَعِراً من المؤمن ما حافظ على الخمس ، فإذا ضيّعهنّ تجرّأ عليه ، وأوقعه في العظائم .

ورُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال : « الصلاة إلى الصلاة كفّارة لما بينهما ، ما اجتنبت الكبائر » .

وجاء فى الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا حزَبَه أمرٌ فزع إلى الصلاة .

وقال هشام بن عروة : كان أبى يطيل المكتوبة ويقول : هى رأس المال .

قال يونس بن عبيد : مااستخفّ أحد بالنوافل إلّا استخفّ بالفرائض .

يقال : إنّ محمد بن المنكدر جزّأ الليل عنه وعلى أمّه وأخته أثلاثاً ، فماتت أخته ، فجزأه عليه وعلى أمه نصفين ، فماتت أمّه فقام الليل كله

كان مسلم بن يَسار لا يسمع الحديث إذا قام يصلّى ، ولا يفهمه ، وكان إذا دخل بيته سكت أهلُه فلا يسمع لهم كلام حتى يقوم إلى الصلاة ، فيتحدّثون ويلغطون ، فهو لا يشعر بهم . ووقع حريق إلى جنبه وهو فى الصلاة ، فلم يشعر به حتى حرق .

كان حفص بن أيوب لا يطرُدُ الذباب إذا وقع على وجهه وهو فى الصلاة فى بلاد كثيرة الذّبان ، فقيل له : كيف تصبر ؟ فقال : بلغنى أنّ الشُّطّار يصبرون تحت السِّياط ليقال : فلان صبور ، أفلا أصبر وأنا بين يدى ربىّ على أذى ذباب يقع علىّ !

قال ابن مسعود : الصلاة مكيال ، فمن وَفّى وُفّىَ له ، ومن طفّف ،فويلٌ للمطفّفين !

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : يارسول الله ، ادع لى أن يرزقنى الله مرافقتك فى الجنّة ، فقال : « أعنّى على إجابة الدّعوة بكثرة السجود » .

* * *

قوله عليه السلام : « قربانا لأهل الإسلام » ، القربان : اسم لما يتقرّب به من نَسِيكة أو صدقة .

وروى : « ومن النار حجازا » بالزاى أى مانعا والتّلهّف : الحسرة، ينهى عليه السلام

عن إخراج الزكاة مع التسخّط لإخراجها والتلهف والتحسّر على دفعها إلى أربابها ، ويقول : إنّ من يفعل ذلك يرجو بها نَيْل الثواب ضالٌ مضيِّع لماله ، غير ظافر بما رجاه من المثوبة .

* * *

[ذكر الآثار الواردة في فضل الزكاة والتصدق]

وقد جاء في فضل الزكاة الواجبة وفضل صدقة التطوّع الكثير جداً ، ولو لم يكن إلّا أنّ الله تعالى قرنها بالصلاة في أكثر المواضع التي ذكر فيها الصلاة لكفى .

وروى بريدة الأسلمي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ما حَبَس قومٌ الزَّكاة إلا حبس الله عنهم القَطْر » .

وجاء في الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ما جاء في الذكر الحكيم ، وهو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ .. ﴾(١) الآية ، قال المفسرون : إنفاقها في سبيل الله إخراج الزكاة منها .

وروى الأحنف قال : قدمتُ المدينة ، فبينا أنا في حَلْقة فيها ملأ من قريش ، إذ جاء رجل خَشِنُ الجسد ، خَشِنُ الثياب ، فقام عليهم ، فقال : بشّر الكانزين برَضْف (٢) يحمى عليها في نار جهنم ، فتوضع على حَلَمة ثدي الرجل حتى تخرج من نُغْض (٣) كتفه ، ثم توضع على نُغْض كتفه حتى تخرج من حلمة ثديه ، فسألت عنه فقيل : هذا أبو ذرّ الغفاريّ ، وكان يذكره ويرفعه .

ابن عباس يرفعه : « مَنْ كان عنده ما يزكّي فلم يزكّ ، وكان عنده ما يحج فلم يحج سأل الرجعة ، يعني قوله : « رب ارجعون » .

(١) سورة التوبة ٣٤ .
(٢) الرضف : الحجارة المحماة
(٣) النغض : أعلى الكتف ؛ وقيل هو العظم الرقيق الذي على طرفه .

أبو هريرة : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله : أيّ الصدقة أفضل؟ فقال : أن تعطى وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل البقاء ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل ؛ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا[1] .

وقيل للشِّبلىّ : ما يجب فى مائتى درهم؟ قال: أمّا من جهة الشرع فخمسة ، وأمّا من جهة الإخلاص فالكلّ .

أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بعض نسائه أن تقسم شاة على الفقراء فقالت: يارسول الله ؛ لم يبق منها غير عُنُقها ؛ فقال عليه السلام : كلّها بقىَ غير عنقها . أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

يبكى على الذاهب من ماله ... وإنما يبقى الذى يذهبُ

السائب : كان الرجل من السلف يضع الصدقة ، ويمثُل قائما بين يدى السائل الفقير ويسأله قبولها ؛ حتى يصير هو فى صورة السائل .

وكان بعضهم يبسط كفّه ويجعلها تحت يد الفقير ؛ لتكون يدُ الفقير العليا .

وعن النبىّ صلى الله عليه وآله : «ما أحسن عبدٌ الصدقة إلاّ أحسنَ الله إليه فى مخلّفيه» .

وعنه صلى الله عليه وآله : « الصدقة تسدّ سبعين بابا من الشرّ » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « أذهبُوا مذمّة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » .

كان النبىّ صلى الله عليه وآله لا يَكِلُ خصلتين إلى غيره : لا يوضّئه أحد،ولا يعطى السائل إلّا بيده .

بعض الصالحين : الصلاة تبلغك نصفَ الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن .

الشّعبى : من لم يَرَ نفسه أحوجَ إلى ثواب الصّدَقة من الفقير إلى صدقته ،فقد أبطل صدقته ؛ وضرب بها وجهه .

---

(١) ساقط من ب .

كان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل ، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه ، فإن لم يكن ؛ أعطاه زيتا أو سمنا أو نحوهما مما ينتفع به ، فإن لم يكن ، أعطاه كحلا ، أو خرج بإبرة وخاط بها ثوب السائل ، أو بخرقة يرقّع بها ما تخرّق من ثوبه .

ووقف مرّة على بابه سائل ليلا ، ولم يكن عنده مايدفعه إليه ، فخرج إليه بقصبة فى رأسها شُعلة ، وقال : خذ هذه وتبلّغ بها إلى أبواب ناس لعلّهم يعطونك .

* * *

قوله عليه السلام : « ثم أداء الأمانة » ، هى العقد الذى يلزم الوفاء به ، وأصحّ ماقيل فى تفسير الآية أنّ الأمانة ثقيلة المحمل ، لأنّ حاملها معرّض لخطر عظيم ، فهى بالغة من الثقل وصعوبة المحمل مالوا أنها عرضت على السموات والأرض والجبال لامتنعت من حملها . فأمّا الإنسان فإنه حمَلها وألزم القيام بها ، وليس المراد بقولنا : إنهـا عرضت على السموات والأرض أى لو عرضت عليها وهى جمادات ، بل المراد تعظيم شأن الأمانة ، كما تقول : هذا الكلام لا يحمله الجبال ، وقوله :

* امتلأ الحوض وقال قطنى *[1]

وقوله تعالى : ﴿ قالَتَا أتينا طائعين ﴾[2] . ومذهب العرب فى هذا الباب . وتوسّعها ومجازاتها مشهور شائع .

---

(١) اللسان (قطن) ، وبقيته :

* مَلًا رُوَيدًا قَدْ مَلَأْتَ بَطْنِى *

(٢) سورة فصلت ١١ .

(١٩٣)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام:

وَٱللهِ مَامُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي؛ وَلَـٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَـٰكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ؛ وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ. وَٱللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ.

***

الشرح:

الغُدَرَة، على «فُعَلة» الكثير الغدر، والفُجَرة والكُفَرة: الكثير الفجور والكفر، وكلّ ما كان على هذا البناء فهو للفاعل، فإن سكّنت العين فهو للمفعول، تقول: رجل ضُحَكة أي يَضحك، وضُحْكة يُضحَك منه، وسُخَرة يَسْخر، وسُخْرة يُسخَر به، يقول عليه السلام: كلّ غادر فاجر، وكلّ فاجر كافر، ويروى: «ولكن كلّ غَدْرة فجْرة، وكلّ فَجْرة كُفْرة» على «فَعْلة» للمرة الواحدة.

وقوله: «لكلّ غادر لواء يعرَف به يوم القيامة» حديث صحيح مرويّ عن النبي صلى الله عليه وآله.

ثم أقسم عليه السلام أنه لايُستغفَل بالمكيدة، أى لاتجوز المكيدة عليّ، كما تجوز على ذوى الغفلة، وأنه لايستغمَز بالشديدة، أى لاأهين وألين للخطب الشديد.

***

[سياسة عليّ وجريها على سياسة الرسول عليه السلام]

واعلم أنّ قوماً ممّن لم يعرف حقيقة فضل أمير المؤمنين عليه السلام، زعموا أنّ عمر كان أسوس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح الرئيس أبو علي بن سينا بذلك في «الشفاء» في الحكمة، وكان شيخنا أبو الحسين يميل إلى هذا، وقد عرّض به في كتاب «الغرر»[1]، ثم زعم أعداؤه ومباغضوه أنّ معاوية كان أسوس منه وأصحّ تدبيرا، وقد سبق لنا بحث قديم في هذا الكتاب في بيان حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام وصحة تدبيره، ونحن نذكر هاهنا ما لم نذكره هناك مما يليق بهذا الفصل الذى نحن في شرحه.

اعلم أنّ السائس لا يتمكّن من السياسة البالغة إلّا إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه، وتمهيد أمره، وتوطيد قاعدته، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه؛ فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيّدا بقيود الشريعة، مدفوعا إلى اتّباعها ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقا، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممّن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب، ولا ناسبين إليه ما هو منزّه عنه، ولكنّه كان مجتهدا يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص عمومات النصّ بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسوط من

---

(١) هو كتاب الغرر لأبي الحسين البصري، في أصول الكلام، شرحه المؤلف، وسماه: «شرح مشكلات الغرر»، ذكره صاحب روضات الجنات

يغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك ، ويصفح عن آخرين قد اجترموا مايستحقون به التأديب ، كلّ ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره ، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك ، وكان يقف مع النصوص والظواهر ، ولا يتعدّاها إلى الاجتهاد والأقيسة ، ويطبّق أمورَ الدّنيا على أمور الدين ، ويسوق الكلّ مساقاً واحداً ، ولا يضيّع ولا يرفع إلّا بالكتاب والنصّ ، فاختلفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة ، وكان عمر مع ذلك شديد الغلظة والسياسة ، وكان عليّ عليه السلام كثير الحلم والصّفح والتجاوز ، فازدادت خلافة ذاك قوّة، وخلافة هذا لينا ؛ ولم يُمْنَ عمر بما مُنِيَ به عليّ عليه السلام من فتنة عثمان التي أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده ومقاربتهم ، للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة . ثم تلا ذلك فتنة الجمل ، وفتنة صفّين ثم فتنة النّهروان ، وكلّ هذه الأمور مؤثّرة في اضطراب أمر الوالي وانحلال معاقد ملكه ، ولم يتفق لعمر شيء من ذلك ، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة وصحّة تدبير الخلافة.

فإن قلت : فما قولك في سياسة الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيره ؟ أليس كان منتظماً سديداً مع أنه كان لايعمل إلّا بالنصوص والتوقيف من الوحي ؟ فهلّا كان تدبير عليّ عليه السلام وسياسته كذلك ، إذا قلتم : إنه كان لايعمل إلّا بالنصّ ؟ قلت : أما سياسة الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيره فخارج عمّا نحن فيه ؛ لأنه معصوم لا تتطرّق الغفلة إلى أفعاله ، ولا واحدٌ من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا. وأيضاً فإنّ كثيراً من الناس ذهبوا إلى أن الله تعالى أذن للرسول صلى الله عليه وآله أن يحكم في الشرعيات وغيرها برأيه ، وقال له : احكم بما تراه ، فإنّك لا تحكم إلّا بالحق ، وهذا مذهب يونس بن عمران ، وعلى هذا فقد سقط السؤال ، لأنه صلى الله عليه وآله يعمل بما يراه من المصلحة ، ولا ينتظر الوحيَ . وأيضاً فبتقدير فساد هذا المذهب ؛ أليس قد ذهب خلق كثير من علماء أصول الفقه إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان يجوز[1] له أن يجتهد في الأحكام والتدبير ، كما يجتهد

(١) ساقط من ب

الواحد من العلماء ، وإليه ذهب القاضي أبو يوسف رحمه الله ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾[1].

والسؤال أيضاً ساقط على هذا المذهب ، لأنّ اجتهاد عليّ عليه السلام لا يساوي اجتهادَ النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وبين الاجتهادين كما بين المنزلتين .

* * *

وكان أبو جعفر بن أبي زيد الحسنيّ نقيب البصرة رحمه الله إذا حدّثناه في هذا يقول : إنّه لافرقَ عندَ من قرأ السّيرتين : سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسياسة أصحابه أيام حياته ، وبين سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسة أصحابه أيّام حياته ، فكما أنّ عليّاً عليه السلام لم يزلْ أمرُه مضطرباً معهم بالمخالفة والعصيان والهرب إلى أعدائه ، وكثرة الفتن والحروب ، فكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله لم يزل ممنوّاً بنفاق المنافقين وأذاهم ، وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه ، وكثرة الحروب والفتن .

وكان يقول : ألست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم ، والتألّم من أذاهم له ؛ كما أنّ كلام علي عليه السلام مملوء بالشكوى من منافقي أصحابه والتألم من أذاهم له ، والتوبيخ لهم عليه ! وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾[3] الآية.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

---

(١) سورة النساء ١٠٥ (٢) سورة المجادلة ٨ (٣) سورة المجادلة ١٠ .

رَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ • اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ﴾ السورة بأجمعها (١).

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ • طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ • ﴾ (٣).

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ • وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٤).

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا • بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ (٥).

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ

(١) سورة المنافقين .
(٢) سورة محمد ١٦ .
(٣) سورة محمد ٢٠ .
(٤) سورة محمد ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) سورة الفتح ١١ ، ١٢ .

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ • وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

قال : وأصحابه هم الذين نازعوا فى الأنفال وطلبوها لأنفسهم ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وهم الذين ٱلتَوَوْا عَلَيْهِ فِى ٱلْحَرْبِ يوم بدر ، وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم ، وذلك قبل أن تتراءى الفئتان ، وأنزل فيهم : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (٤)

وهم الذين كانوا يتمنّون لقاء العير دون لقاء العدوّ ، حتى أنهم ظفروا برجلين فى الطريق ، فسألوهما عن العير ، فقالا لا علم لنا بها ، وإنما رأينا جيش قريش من وراء ذلك الكثيب ، فضربوهما ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم يصلى ، فلما ذاقا مسّ الضرب قالا : بل العير أمامكم فاطلبوها ، فلما رفعوا الضرب عنهما ، قالا : والله ما رأينا العير ولا رأينا إلا الخيل والسلاح والجيش ، فأعادوا الضرب عليهما مرة ثانية ، فقالا وهما يُضربان : العير أمامكم ، فخلّوا عنا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من الصلاة ، وقال : إذا صدقا كم ضربتموهما ، وإذا كذبا كم خليتم عنهما ! دعوهما ! ما رأيا إلا جيش أهل مكة ، وأنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ

(١) سورة الفتح ١٥ .
(٢) سورة الحجرات ٤ ، ٥ .
(٣) سورة الأنفال ١ .
(٤) سورة الأنفال ٦ .

دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾[1] . قال المفسرون : الطائفتان : العير ذات اللطيمة الواصلة إلى مكة من الشام صحبة أبي سفيان بن حرب ، وإليها كان خروج المسلمين ، والأخرى : الجيش ذو الشوكة ، وكان عليه السلام قد وعدهم بإحدى الطائفتين ، فكرهوا الحرب ، وأحبوا الغنيمة .

قال : وهم الذين فرّوا عنه صلى الله عليه وآله يوم أحُد ، وأسلموه وأصعدوا في الجبل ، وتركوه حتى شجّ الأعداء وجهه ، وكسروا ثنيّته ، وضربوه على بَيْضَته ، حتى دخل جماجه ، ووقع من فرسه إلى الأرض بين القتلى ، وهو يستصرخ بهم ، ويدعوهم فلا يجيبه أحدٌ منهم إلّا مَنْ كان جارياً مجرى نَفْسه ، وشديد الاختصاص به ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَاكُمْ ﴾[2] ، أي ينادي فيسمع نداءه آخر الفارين لا أوّلهم ؛ لأن أوّلهم أوغلوا في الفرار ، وبعدوا عن أن يسمعوا صوته ، وكان قصارى الأمر أن يبلغ صوته واستصراخه مَنْ كان على ساقة الفارين منهم .

قال : ومنهم الذين عَصَوْا أمره في ذلك اليوم ، حيث أقامهم على الشِّعْب في الجبَل ، وهو الموضع الذي خاف أن تكرّ عليه منه خيل العدوّ من ورائه ، وهم أصحاب عبدالله ابن جُبير ، فإنّهم خالفوا أمره وعصوه فيما تقدّم به إليهم ، ورغبوا في الغنيمة ، ففارقوا مركزَهم ؛ حتى دخل الوَهن على الإسلام بطريقهم ، لأنّ خالد بن الوليد كرّ في عصابة من الخيل ، فدخل من الشِّعب الذي كانوا يحرسونه ، فما أحسّ المسلمون بهم إلّا وقد غشوهم بالسيوف من خلفهم ، فكانت الهزيمة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ

---

(١) سورة الأنفال ٧
(٢) سورة آل عمران ١٥٣ .

وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (١) .

قال : وهم الذين عصوا أمره فى غزاة تبوك ، بعد أن أكد عليهم الأوامر ، وخذلوه وتركوه ولم يشخصوا معه ، فأنزل فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) ، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين ، وفيها أوضح دليل على أن أصحابه وأولياءه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه ، ويخالفون أمره ؛ وأكد عتابهم وتقريعهم وتوبيخهم بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٣)

ثم عاتب رسول الله صلى الله عليه وآله على كونه أذن لهم فى التخلف ، وإنما أذن لهم لعلمه أنهم لا يجيبونه فى الخروج ، فرأى أن يجعل المنة له عليهم فى الإذن لهم ، وإلا فعدواعيه ولم تصل له المنة ، فقال له : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٤) ، أى هلا أمسكت عن الإذن لهم حتى يتبين لك قعود مَنْ يقعد ، وخروج مَنْ يخرج ، صادقهم من كاذبهم ؛ لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه كلهم ، وكان بعضهم ينوى الغدر ، وبعضهم عزم على أن يخيس (٥) بذلك الوعد ، فلو لم يأذن لهم لعلم من يتخلف ومن لا يتخلف ، فعرف الصادق منهم والكاذب .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢ .
(٢) سورة التوبة ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) سورة التوبة ٤٢ .
(٤) سورة التوبة ٤٣ .
(٥) يخيس : يغدر .

ثم بيّن سبحانه وتعالى أنّ الذين يستأذنونه في التخلّف خارجون من الإيمان، فقال له: ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (١)

ولا حاجة إلى التطويل بذكر الآيات المتصلة فيما يناسب هذا المعنى ، فمنْ تأمّل الكتاب العزيز علِمَ حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت ، ولم ينقله الله تعالى إلى جواره إلاّ وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف مايضمرون من تصديقه في جهادٍ شديد، حتى لقد كاشفوه مراراً ، فقال لهم يوم الحديبيّة : احلقوا وانحروا . . . مراراً ، فلم يحلقوا ولم ينحروا ، ولم يتحرّك أحد منهم عند قوله ، وقال له بعضهم وهو يقسم الغنائم : « اعدل يا محمّد فإنك لم تعدل » .

وقالت الأنصار له مواجهة يوم حنين : أتأخذ ما أفاء الله علينا بسيوفنا فتدفعه إلى أقاربك من أهل مكّة ! حتى أفضى الأمر إلى أن قال لهم في مرض موته : « ائتوني بدواة وكتف أكتب لكم ما لا تضلّون بعده » ، فعصوه ولم يأتوه بذلك ، وليتهم اقتصروا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا ، وهو يسمع !

وكان أبو جعفر رحمه الله يقول من هذا ما يطول شرحه ، والقليل منه ينبئ عن الكثير ، وكان يقول : إنّ الإسلام ما حلا عندهم ولاثبت في قلوبهم إلاّ بعد موته ، حين فتحت عليهم الفتوح ، وجاءتهم الغنائم والأموال ، وكثرت عليهم المكاسب ، وذاقوا طعم الحياة ، وعرفوا لذّة الدّنيا ، ولبسوا الناعم ، وأكلوا الطيّب ، وتمتعوا بنساء الروم ، وملكوا خزائن كسرى ، وتبدلوا بذلك القشف والشظف والعيش الخشن وأكل

(١) سورة التوبة ٤٤ — ٤٥

الضِّبَاب والفنافذ واليرابيع ولبْس الصوف والكَرَابِيس[1] ، وأكل اللَّوْزِينجات والفالوذجات ولبس الحرير والديباج ، فاستدلّوا بما فتحه الله عليهم ، وأتاحه لهم على صحّة الدّعوة ، وصدْق الرسالة ، وقد كان صلى الله عليه وآله وعدَهم بأنّه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر ، فلمّا وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظّموه وبجّلوه ، وانقلبت تلك الشّكوك وذاك النّفاق وذلك الاستهزاء إيماناً ويقيناً وإخلاصاً ، وطاب لهم العيش ، وتمسّكوا بالدين ، لأنه زادهم طريقاً إلى نَيْل الدنْيا ، فعظّموا ناموسَه ، وبالغوا في إجلاله وإجلال الرّسول الذي جاء به ، ثم انقرض الأسلافُ وجاء الأخلاف على عقيدة ممهّدة ، وأمر أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين رُبُّوا في حجورهم ، ثم انقرض ذلك القرن ، وجاء مَن بعدهم كذلك ، وهلمّ جرّاً .

قال : ولولا الفتوح والنّصر والظَّفر الذي منحهم الله تعالى إياه ، والدّولة التي ساقها إليهم ، لانقرض دينُ الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان يذكر في التواريخ ، كما تُذكر الآن نبوّة خالد بن سنان العبسيّ حيث ظهر ودعا إلى الدّين . وكانَ النّاس يعجَبون من ذلك ويتذاكرونه كما يعجَبون ويتذاكرون أخبارَ مَنْ بعد من الرؤساء والملوك والدُّعاة الذين انقرض أمرهم ، وبقيت أخبارهم .

وكان يقول : مَنْ تأمّل حال الرّجلين وجدهما متشابهيْن في جميع أمورهما أو في أكثرها ؛ وذلك لأنّ حرْب رسول الله صلى الله عليه وآله مع المشركين كانتْ سِجَالاً ، انتصر يوم بدر ، وانتصر المشركون عليه يوم أُحُد ، وكان يوم الخندق كفافاً خرج هو وهم سواء ، لا عليه ولا له ، لأنهم قتلوا رئيسُ الأوْس وهو سعد بن معاذ ، وقتل منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبدوَدّ ، وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت ، ثم حارب بعدها قريشاً يوم الفتح ، فكان الظفر له .

وهكذا كانت حروبُ علي عليه السلام ، انتصر يوم الجمل ؛ وخرج الأمر بينه وبين

---

(١) الكرابيس : جمع كرباس ، وهو الثوب من القطن الأبيض .

معاوية على سواء ، قتل من أصحابه رؤساء ، ومن أصحاب معاوية رؤساء ، وانصرف كلّ واحد من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه ، ثمّ حارب بعد صفّين أهل النّهروان ، فكان الظّفَر له .

قال : ومن العَجَب أنّ أوّل حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كانت بدرا ، وكان هو المنصور فيها ، وأوّل حروب عليّ عليه السلام الجمل ، وكان هو المنصور فيهما . ثم كان من صحيفة الصّلح والحكومة يوم صِفّين نظير ما كان من صحيفة الصّلح والهدنة يوم الحديبيّة . ثم دعا معاوية فى آخر أيّام عليّ عليه السلام إلى نفسه وتسمَّى بالخلافة ، كما أنّ مسيلمة والأسود العنسيّ دَعَوَا إلى أنفسهما فى آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وتسمَّيا بالنبوّة ، واشتدّ على عليّ عليه السلام ذلك ، كما اشتدّ على رسول الله صلى الله عليه وآله أمرُ الأسود ومُسَيلمة ، وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، وكذلك أبطل أمر معاوية وبنى أميّة بعد وفاة عليّ عليه السلام . ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله أحد من العرب إلّا قريش ماعدا يوم حنين ، ولم يحارب عليا عليه السلام من العرب أحدٌ إلّا قريش ماعدا يوم النّهروان . ومات علي عليه السلام شهيداً بالسيف، ومات رسول الله صلى الله عليه وآله شهيداً بالسمّ . وهذا لم يتزوّجْ عَلَى خديجة أمّ أولاده حتى ماتت ، وهذا لم يتزوجْ على فاطمة أمّ أشرف أولاده حتى ماتت . ومات رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن ثلاث وستين سنة ، ومات عليّ عليه السلام عن مثلها .

وكان يقول : انظروا إلى أخلاقهما وخَصائصهما ، هذا شجاع وهذا شجاع ، وهذا فصيح وهذا فصيح ، وهذا سخيّ جواد وهذا سخيّ جواد ، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلٰهية ، وهذا عالم بالفقه والشريعة والأمور الإلٰهية الدقيقة الغامضة ، وهذا زاهد فى الدنيا غير نَهِم ولا مستكثر منها ، وهذا زاهد فى الدنيا تارك لها تارك لها غير متمتع بلذاتها. وهذا مُذيب[1] نفسَه فى الصّلاة والعبادة ، وهذا مثله. وهذا غير محبَّب إليه شيء من الأمور العاجلة

(١) ا : « مذنب » .

إلا النساء، وهذا مثله، وهذا ابن عبد المطلب بن هاشم، وهذا في قُعْدُده[1]، وأبواهما أخوان لأب واحد دون غيرهما من بني عبد المطلب؛ وربّى محمد صلى الله عليه وآله في حجر والدهما وهذا أبو طالب، فكان جارياً عنده مجرى أحد أولاده. ثم لما شب صلى الله عليه وآله وكبر استخلصه من بني أبي طالب وهو غلام، فربّاه في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به، فامتزج الخُلقان، وتماثلت السجيتان، وإذا كان القرين مقتدياً بالقرين، فما ظنك بالتربية والتثقيف الدهر الطويل! فواجب أن تكون أخلاق محمد صلى الله عليه وآله كأخلاق أبي طالب، وتكون أخلاقُ علي عليه السلام كأخلاق أبي طالب أبيه، ومحمد عليه السلام مربّيه، وأن يكون الكلّ شيمةً واحدة وسوساً[2] واحداً، وطينة مشتركة، ونفساً غير منقسمة ولا متجزّئة، وألا يكون بين بعض هؤلاء وبعض فرق ولا فصل، لولا أن الله تعالى اختص محمداً صلى الله عليه وآله برسالته، واصطفاه لوحيه، لما يعلمه من مصالح البرية في ذلك، ومن أن اللطف به أكمل، والنفع بمكانه أتم وأعم، فامتاز رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك عمن سواه، وبقي ما عدا الرسالة على أمر الاتحاد، وإلى هذا المعنى أشار صلى الله عليه وآله بقوله: «أخصمُك[3] بالنبوة فلا نبوة بعدي، وتخصمُ الناس بسبع»، وقال له أيضاً: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، فأبان نفسه منه بالنبوة، وأثبت له ما عداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما.

وكان النقيب أبو جعفر رحمه الله، غزير العلم، صحيح العقل، منصفاً في الجدال، غير متعصب للمذهب — وإن كان علوياً — وكان يعترف بفضائل الصحابة، ويثني على الشيخين. ويقول: إنهما مهّدا دين الإسلام، وأرسيا قواعده، ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنما مهداه بما تيسّر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما. وكان يقول في عثمان: إن الدولة في أيامه كانت على إقبالها وعلو جدّها، بل كانت الفتوح في أيامه أكثر، والغنائم أعظم، لولا أنه لم يراع ناموس الشيخين، ولم يستطع أن يسلك

(١) القعدد: القريب الآباء من الجد الأعلى (٢) أي أصلا واحدا (٣) أخصمك: أغلبك.

مسلكهما ، وكان مضعفاً فى أصل القاعدة ، مغلوبا عليه ، وكثير الحبّ لأهله ، وأتيح له من مَرْوان وزير سوء أفسد القلوب عليه ، وحَمَل النّاس على خلعه وقتله .

***

[كلام أبي جعفر الحسنيّ في الأسباب التي أوجبت محبة الناس لعليّ]

وكان أبو جعفر رحمه الله لايجحد الفاضل فضله ، والحديث شجون .

قلت له مرّة : ماسبب حبّ الناس لعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وعشقهم له ، وتهالكهم في هواه ؟ ودعْني في الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة ، وغير ذلك من الخصائص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيّب منها !

فضحك وقال لي : كم تجمع جراميزك عليّ !

ثم قال : هاهنا مقدّمة ينبغي أن تُعلَم ، وهي أنّ أكثر النّاس موتورون من الدنيا؛ أمّا المستحقون فلا ريب في أنّ أكثرهم محرومون ، نحو عالم يرى أنّه لاحظّ له في الدنيا ، ويرى جاهلا غيره مرزوقا وموسّعا عليه . وشجاعٍ قد أبلى في الحرب ، وانتُفع بموضعه ، ليس له عطاء يكفيه ، ويقوم بضروراته ، ويرى غيره وهو جبان فشِل ، يفرَقُ من ظلّه ، مالكاً لقُطْر عظيم من الدنيا ، وقطعة وافرة من المال والرزق . وعاقلٍ سديد التدبير ، صحيح العقل ، قد قُدِر[1] عليه رزقه ، وهو يرى غيره أحمق مائقا تدرّ عليه الخيرات ، وتتحلّب عليه أخلاف الرزق . وذي دين قويم ، وعبادة حَسَنة ، وإخلاص وتوحيد ، وهو محروم ضيّق الرزق ويرى غيره يهودياً أو نصرانياً أو زنديقاً كثيرَ المال حَسَنَ الحال؛ حتى إنّ هذه الطّبقات المستحقّة يحتاجون في أكثر الوقت إلى الطبقات التي لا استحقاق

(١) قدر عليه رزقه : ضيق .

لها ، وتدعوهم الضرورة إلى الذل لهم ، والخضوع بين أيديهم . إمّا لدفع ضرر ، أو لاستجلاب نفع ، ودون هذه الطبقات من ذوى الاستحقاق أيضاً ، ما نشاهده عياناً من نجار حاذق أو بنّاء عالم ، أو نقّاش بارع ، أو مصوّر لطيف ، على غاية ما يكون من ضيق رزقهم ، وقعود الوقت بهم ، وقلّة الحيلة لهم ، ويرى غيرهم ممن ليس يجرى مجراهم ، ولا يلحق طبقتهم ؛ مرزوقاً مرغوباً فيه ، كثير المكسب طيب العيش ، واسع الرزق . فهذا حال ذوى الاستحقاق والاستعداد . وأمّا الذين ليسوا من أهل الفضائل ، كحشو العامة ، فإنّهم أيضاً لا يخلُون من الحقد على الدنيا والذمّ لها ، والحنق والغيظ منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم وجيرانهم ، ولا يرى أحدٌ منهم قانعاً بعيشه ، ولا راضياً بحاله ، بل يستزيد ويطلب حالاً فوق حاله .

قال : فإذا عرفت هذه المقدّمة ؛ فمعلوم أنّ علياً عليه السلام كان مستحقاً محروماً ، بل هو أمير المستحقّين المحرومين ، وسيّدهم وكبيرهم ، ومعلوم أنّ الذين ينالهم الضيم ، وتلحقهم الذلة والضيمة ، يتعصّب بعضهم لبعض ، ويكونون إلْباً ويداً واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا ، ونالوا مآربهم منها ، لاشتراكهم فى الأمر الذى آلمهم وساءهم ، وعضّهم ومضّهم ، واشتراكهم فى الأنفة والحميّة والغضب والمنافسة لمن علا عليهم ، وقهرهم ، وبلغ من الدنيا ما لم يبلغوه ؛ فإذا كان هؤلاء ، أعنى المحرومين متساوين فى المنزلة والمرتبة ، وتعصّب بعضهم لبعض ، فما ظنّك بما إذا كان منهم رجلٌ عظيم القَدْر جليل الخطر كامل الشرف ، جامع للفضائل محتوٍ على الخصائص والمناقب ، وهو مع ذلك محروم محدود ، وقد جرّعته الدنيا علاقمها ، وعلّته عَلَلاً بعد نَهَل من صابها وصَبِرها ، ولقى منها بَرْحاً بارحاً ، وجهداً جهيداً ، وعلا عليه مَنْ هو دونه ، وحُكّم فيه وفى بنيه وأهله ورهطه مَنْ لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ، ولا دائراً فى خَلَده ، ولا خاطراً بباله ، ولا كان أحدٌ من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له . ثمّ كان فى آخر الأمر أن قتل هذا الرجل الجليل فى

محرابه ، وقتِل بنوه بعدَهُ ، وسُبِيَ حريمُهُ ونساؤه ، وتُتُبّع أهلُهُ وبنو عمّه بالقتل والطّرد والتشريد والسجون ، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم ، وانتفاع الخَلْق بهم . فهل يمكن ألّا يتعصب البَشَرُ كلّهم مع هذا الشخص ! وهل تستطيع القلوب ألّا تحبّه وتهواه ، وتذوبَ فيه وتفنى فى عشقه ، انتصارا له ، وحَمِيّةً من أجله ، وأَنَفَةً ممّا ناله ، وامتعاضا مما جرى عليه ! وهذا أمرٌ مركوز فى الطبائع ، ومخلوق فى الغرائز ، كما يشاهد الناس على الجُرُف إنسانا قد وقع فى الماء العميق ، وهو لا يحسن السباحة ، فإنّهم بالطّبع البشريّ يرقّون عليه رقّة شديدة ، وقد يُلقِي قومٌ منهم أنفسَهم فى الماء نحوه ، يطلبون تخليصَه ، لا يتوقّعون على ذلك مجازاةً منه بمال أو شكر ، ولا ثوابا فى الآخرة ؛ فقد يكون منهم مَنْ لا يعتقد أمرَ الآخرة ، ولكنها رقّة بشريّة ، وكأنّ الواحد منهم يتخيّل فى نفسه أنّه ذلك الغريق ، فكما يطلب خلاصَ نفسه لو كان هذا الغريق ؛ كذلك يطلب تخليصَ مَنْ هو فى تلك الحال الصعبة ؛ للمشاركة الجنسيّة . وكذلك لو أنّ ملكاً ظلم أهل بلد من بلاده ظلماً عنيفاً ، لكان أهلُ ذلك البلد يتعصّب بعضُهم لبعض فى الانتصار من ذلك الملك ، والاستعداء عليه ؛ فلو كان مِنْ جملتهم رجلٌ عظيمُ القدْر ، جليل الشأن ، قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إيّاهم ، وأخذَ أموالَه وضياعَه ، وقتَل أولادَه وأهلَه ، كان لِياذُهم به ، وانضواؤهم إليه ، واجتماعهم والتفافهم به أعظمَ وأعظم ؛ لأنّ الطبيعة البشريّة تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطراريّ ، ولا يستطيع الإنسان منه امتناعاً .

وهذا محصول قول النّقيب أبي جعفر رحمه الله ، قد حكيته والألفاظ لى والمعنى له ؛ لأنّى لا أحفظ الآن ألفاظه بعينها ، إلّا أنّ هذا هو كان معنى قوله وفحواه ، رحمه الله . وكان لا يعتقد فى الصّحابة مايعتقده أكثر الإماميّة فيهم ، ويسفّه رأيَ مَنْ يذهب فيهم إلى النّفاق والتّكفير . وكان يقول : حكمُهم حكمُ مسلم مؤمن ، عَصَى فى بعض الأفعال وخالف الأمر ، فحكمه إلى الله ، إنْ شاء آخذه ، وإن شاء غفر له .

قلت له مرة : أفتقولُ إنّهما من أهل الجنة ؟ فقال : إى والله ! أعتقد ذلك ، لأنّهما إمّا أن يعفوَ الله تعالى عنهما ابتداء أو بشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله ، أو بشفاعة علىّ عليه السلام ، أو يؤاخذهما بعقاب أو عتاب ، ثم ينقلهما إلى الجنة ؛ لا أستريب فى ذلك أصلا ، ولا أشكُّ فى إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وآله وصحّةِ عقيدتهما .

قلت له : فعثمان ؟ قال : وكذلك عثمان . ثم قال : رحم الله عثمان ! وهل كان إلا واحداً منّا وغصناً من شجرة عبدمناف ؟ ولكنّ أهله كدّروه علينا ، وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا .

قلت له : فيلزَمُك[1] على ما تراه فى أمر هؤلاء أن تجوِّزَ دخولَ معاوية الجنة ، لأنّه لم تكن منه إلّا المخالفة وترك امتثال الأمر النبوىّ !

فقال : كلاّ ؛ إنّ معاوية من أهل النار ، لا لمخالفته عليًّا ، ولا بمحاربته إيّاه ، ولكنّ عقيدتَه لم تكن صحيحة ، ولا إيمانه حقا ، وكان من رءوس المنافقين هو وأبوه ، ولم يسلمْ قلبُه قطّ ، وإنّما أسلم لسانه ؛ وكان يذكُر من حديث معاوية ومن فلتات قوله ، وما حفظ عنه من كلام يقتضى فساد العقيدة شيئا كثيرا ، ليس هذا موضعه فأذكره .

وقال لى مرّة : حاش لله أن يُثبتَ معاوية فى جَريدة الشيخَين الفاضلين أبى بكر وعمر ! والله ما هما إلا كالذّهب الإبريز ، ولا معاوية إلاّ كالدّرهم الزائف ـ أو قال : كالدرهم القَسِىّ[2] ـ ثم قال لى : فما يقول أصحابُكم فيهما ؟ قلت : أمّا الذى استقرّ عليه رأىُ المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم فى التفضيل وغيره ، أنّ عليا عليه السلام أفضلُ الجماعة ، وأنّهم تركوا الأفضلَ لمصلحة رأوها ؛ وأنه لم يكن هناك نصٌّ يقطع العُذْر ، وإنّما كانت إشارة وإيماء لا يتضمّن شىء منها صريحَ النّص ، وإنّ عليا عليه السلام نازَع ثم بايع ،

(١) ب : « فيلزم لك » .
(٢) درهم قسى ، وتخفف سينه ، أى ردىء .

وتَجَبّر ثم استجاب . ولو أقام على الامتناع لم نقل بصحّة البيعة ولا بلزومها ، ولو جرّد السيف كما جرّده فى آخر الأمر لقلنا بفسق كلّ مَنْ خالفه على الإطلاق كائنا مَنْ كان ، ولكنه رضىَ بالبيعة أخيراً ، ودخل فى الطاعة .

وبالجملة ، أصحابنا يقولون : إنّ الأمر كان له ، وكان هو المستحقّ والمتعين ، فإن شاء أخذه لنفسه ، وإن شاء ولّاه غيرَه ، فلمّا رأيناه قد وافَق على ولاية غيره ، اتّبعناه ورضينا ما رضىَ . فقال : قد بَقِىَ بينى وبينكم قليل ؛ أنا أذهب إلى النصّ وأنتم لا تذهبون إليه !

فقلت له : إنّه لم يثبت النصّ عندنا بطريق يوجب العلم ؛ وما تذكرونه أنتم صريحا فأنتم تنفردون بنقله ، وماعدا ذلك من الأخبار التى شاركناكم فيها ، فلها تأويلات معلومة .

فقال لى وهو ضَجِر : يافلان ، لو فتحنا باب التأويلات ، لجاز أن يُتناول قولنا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ؛ دعنى من التأويلات الباردة التى تعلم القلوب والنفوس أنها غيرُ مرادة ، وأنّ المتكلمين تكلّفوها وتعسّفوها ، فإنما أنا وأنت فى الدار ولا ثالث لنا ، فيستحيى أحدُنا من صاحبه أو يخافه .

فلما بلغنا إلى هذا الموضع ؛ دخل قوم ممّن كان يخشاه ، فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث ، وخضنا فى غيره .

* * *

[سياسة علىّ ومعاوية وإيرادُ كلام للجاحظ فى ذلك]

فأمّا القولُ فى سياسة معاوية ، وأنّ شَنَأَة علىّ عليه السلام ومُبغضيه زعموا أنها خير من سياسة أمير المؤمنين ، فيكفينا فى الكلام على ذلك ماقاله شيخنا أبو عثمان ، ونحن نحكيه بألفاظه .

قال أبو عثمان : وربّما رأيت بعضَ مَنْ يظنّ بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز، وهو من العامّة ويظنّ أنّه من الخاصّة ـ يزعم أنّ معاوية كان أبعدَ غَوْراً، وأصحّ فِكْراً، وأجود رويّة، وأبعدَ غاية، وأدقّ مسلكاً ؛ وليس الأمرُ كذلك، وسأرمي إليك بجملة تعرف بها موضع غَلَطِه. والمكانَ الذي دخل عليه الخطأُ من قِبَله.

كان عليّ عليه السلام لا يستعملُ في حَرْبه إلاّ ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلافَ الكتاب والسنة ؛ كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميعَ المكايد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب سيرة ملك الهند إذا لاقى كِسْرى، وخاقان إذا لاقى رُتْبيل[1]. وعليّ عليه السلام يقول : لاتبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم، ولاتتبعوا مدبِراً، ولا تُجْهزوا عَلَى جريح، ولا تفتحوا باباً مغلقاً ؛ هذه سيرته في ذي الكَلاع، وفي أبي الأعور السُّلَميّ، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مَسْلَمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية والحشْو والأتباع والسِّفْلة. وأصحاب الحروب، إنْ قَدَرُوا على البيَات بَيّتوا، وإن قَدَرُوا على رَضْخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طَرْفة عين لم يؤخروه إلى ساعة، وإن كان الحرق أعجَل من الغَرَق لم يقتصروا على الغَرَق ولم يؤخروا الحرْق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدْمُ لم يتكلفوا الحِصَار، ولم يدَعوا أن ينصبُوا المجانيق[2]، والعَرّادات[3]، والنقب، والتَّسريب، والدّبابات[4]، والكَمِين[5]، ولم يدَعُوا دسّ السّموم، ولا التضريب بين الناس بالكذب، وطرْح

---

(١) رتبيل : صاحب الترك.

(٢) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة.

(٣) العرادات : جمع عرادة ؛ وهي من آلات الحرب ؛ ترمى بالحجارة المرمى البعيد، إلا أنها أصغر من المنجنيق.

(٤) الدبابة : آلة تتخذ في الحصار، يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في أصل الحصن ؛ فينقبونه وهم في جوفها ؛ لأن وجهها دبابات.

(٥) الكمين : القوم يكمنون في الحرب حيلة ؛ وهو أن يستخفوا في مكمن ؛ بحيث لا يفطن لهم ثم يتبهروا غرة العدو فينقضوا عليهم.

الكذب في هسا كرهم بالسّعايات ، وتوهيم الأمور ، وإيحاش بعض من بعض ، وقتلهم بكلّ آلة وحيلة ! كيف وقع القتل ، وكيف دارت سهم الحال ! فن اقتصر ـ حفظك الله ـ من التدبير على مافي الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويلَ العريضَ من التدبير ؛ ومالا يتناهى من المكايد . والكذب ـ حفظك الله ـ أكثرُ من الصدق ، والحرامُ أكثر عدداً من الحلال ، ولو سمّى إنسانٌ إنسانا باسمه لكان قد صدق ، وليس له اسم غيره ، ولو قال : هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كلّ ماخطر على البال ، لكان كاذبا في ذلك ، وكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحقّ والباطل ، وكذلك السُّقم والصحّة ، وكذلك الخطأ والصواب ؛ فعليّ عليه السلام كان ملجَماً بالوَرَع عن جميع القول إلاّ ماهو لله عزّ وجلّ رضاً ، وممنوع اليدين من كلّ بطش إلا ما هو لله رضاً ، ولا يرى الرّضا إلا فيما يرضاه الله ويحبّه ، ولا يرى الرّضا إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة ، دون مايعول عليه أصحابُ الدّهاء والنكراء[1] والمكايد والآراء ، فلمّا أبصرت العوامّ كثرة نوادر معاوية في المكايد ، وكثرةَ غرائبه في الخداع ، وما اتفق له وتهيّأ على يده ، ولم يروا ذلك من عليّ عليه السلام ، ظنّوا ـ بقصَر عقولهم ، وقلة علومهم ـ أنّ ذلك من رجحانٍ عند معاوية ونقصان عند عليّ عليه السلام . فانظر بعدَ هذا كله ، هل يعدّ له من الخدع إلا رفع المصاحف ! ثم انظر هل خدَع بها إلا مَنْ عصى رأيَ عليّ عليه السلام ، وخالف أمره !

فإنْ زعمتَ أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت ، وليس في هذا اختلفنا ، ولا عَنْ غَرَارة أصحاب عليّ عليه السلام وعجلتهم وتسرّعهم وتنازعهم دفعنا ، وإنّما كان قولنا في التمييز بينهما في الدّهاء والنكراء وصحة العقل والرأي والبزلاء[2] ؛ على أنّا لا نصفُ الصالحين

(١) النكراء : الدهاء والفطنة .

(٢) يقال : خطة بزلاء ، أي تفصل بين الحق والباطل .

بالدّهاء والنّكراء ؛ لا تقول : ما كان أنكرَ أبا بكر بن أبي قحافة ! وما كان أنكر عمر بن الخطاب ! ولا يقول أحدٌ عنده شيء من الخيْر : كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدهى العرب والعجم ، وأنكر قريش وأنكر كنانة ؛ لأنّ هذه الكلمة إنما وُضِعَتْ في مديح أصحاب الأرب ومَنْ يتعمّق في الرأي في توكيد الدنيا وزِبْرِجها وتشديد أركانها ، فأمّا أصحاب الآخرة الّذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشَر ، وإنما يصلُحون عَلَى تدبير خالق البَشَر ، فإنّ هؤلاء لا يُمْدَحون بالدّهاء والنّكراء ، ولم يَمْنعوا هذا إلاّ ليُعطَوْا أفضلَ منه . ألا ترى أنّ المغيرة بن شُعبة — وكان أحدَ الدهاة — حين ردّ على عمرو بن العاص قوله في عمر بن الخطاب — وعمرو بن العاص أحد الدهاة أيضاً : أأنت كنتَ تفعل ، أو تُوهِم عمر شيئاً فيلقّنه عنك ! ما رأيت عمرَ مستخلياً بأحد إلاّ رحمته كائناً مَنْ كان ذلك الرجل ، كان عمر والله أعقلَ من أن يُخدَع ، وأفضلَ من أن يَخدَع . ولم يذكُرْه بالدّهاء والنّكراء ، هذا مع محبة بإضافة الناس ذلك إليه ، ولكنه قد علم أنه إذا أطلق على الأئمة الألفاظ التي لا تصلح في أهل الطهارة ، كان ذلك غير مقبول منه ، فهذا هذا .

وكذلك كان حُكْم قولِ معاوية الصحيح : أخرِجُوا إلينا قَتَلة عثمان ، ونحن لكم سِلْمٌ . فاجْهَد كلّ جَهْدِك ، واستعن بمَنْ شايعك إلى أن تتخلّص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله عليّ ؛ حتى نعلم أن معاوية خادع ، وأنّ عليًّا عليه السلام كان المخدوع .

فإن قلت : لقد بلغ ما أراد ، ونال ما أحبّ ، فهل رأيت كتابنا وُضِع إلا عَلَى أنّ عليًّا كان قد امتُحِن في أصحابه وفي دهره ، بما لم يمتَحَنْ إمام قبله من الاختلاف والمنازعة ، والتشاحّ من الرياسة والتسرّع والعجلة ! وهل أتِيَ عليه السلام إلا من هذا المكان ! أوَ لسنا قد فرغنا من هذا الأمر ، وقد علمنا أنّ ثلاثة نفر تواطئوا على قَتْل ثلاثة نفر ، فانفرد ابنُ مُلْجَم

بالتماس ذلك من عليّ عليه السلام ، وانفرد البَرْك الصريمي بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد الآخر — وهو عمرو بن بكر التميمي — بالتماس ذلك من معاوية ، فكان من الاتفاق أو من الامتحان ، أنْ كان عليّ من بينهم هو المقتول .

وفي قياس مذهبكم أن تزعموا أنّ سلامة عمرو ومعاوية إنّما كانتْ بحزْم منهما ، وأنّ قتل عليّ عليه السلام إنّما هو من تضييع منه ، فإذْ قد تبيّن لكم أنّه من الابتلاء والامتحان في نفسه بخلاف الذي قد شاهدتموه في عدوّه ، فكلّ شيء سوى ذلك ، فإنّما هو تبعٌ للنفس .

هذا آخر كلام أبي عثمان في هذا الموضع ، ومَنْ تأمّله بعين الإنصاف ، ولم يتّبع الهوى علم صحّة جميع ما ذكره ، وأنّ أمير المؤمنين مُنِيَ — من اختلاف أصحابه ، وسوء طاعتهم له ؛ ولزومه سَنن الشّريعة ، ومنهج العدل ، وخروج معاوية وعمرو بن العاص عن قاعدة الشّرع في استمالة الناس إليهم بالرّغبة والرّهبة — إلى ما لم يُدْفَع إليه غيره . فلولا أنّه عليه السلام كان عارفاً بوجوه السّياسة وتدبير أمر السلطان والخلافة ، حاذقاً في ذلك ، لم يجتمع عليه إلّا القليل من النّاس ، وهم أهلُ الآخرة خاصّة ؛ الذين لا ميْلَ لهم إلى الدنيا ، فلمّا وجدناه دبّر الأمر حين وَلِيَه ؛ واجتمع عليه من العساكر والأتباع ما يتجاوز العدّ والحصر ، وقاتل بهم أعداءه الذين حالُهم حالهم ، فظفر في أكثر حروبه ، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء ؛ وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار ، علمنا أنّه من معرفة تدبير الدول والسلطان بمكان مكين .

* * *

[ذكر أقوال من طعن فى سياسة علىّ والردّ عليها]

وقد تعلق مَنْ طَعن فى سياسته بأمور :

منها قولهم : لوكان حين بُويع له بالخلافة فى المدينة أقرّ معاوية على الشام إلى أن يستقرّ الأمر له ويتوطّد ، ويبايعه معاويةُ وأهلُ الشام ثم يعزله بعد ذلك ؛ لكان قد كُفِىَ ماجرى بينهما من الحرب

والجواب : أنّ قرائن الأحوال حينئذ ، قد كان علم أمير المؤمنين عليه السلام منها أنّ معاوية لايبايَع له وإن أقرّه على ولاية الشام ، بل كان إقرارُه له على إمْرَةِ الشّام أقوى لحال معاوية ، وآكد فى الامتناع من البَيْعة ؛ لأنّه لايخلو صاحب السؤال إمّا أن يقول : كان ينبغى أن يطالبه بالبيعة ويقرن إلى ذلك تقليده بالشام ، فيكون الأمران معاً ، أو يتقدّم منه عليه السلام المطالبة بالبيعة أو يتقدم منه إقراره على الشام وتتأخّر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان فإنْ كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاويةُ على أهل الشام تقليده بالإمْرَة ،فيؤكّد حاله عندهم ويقرّر فى أنفسهم لولا أنّه أهلٌ لذلك لما اعتمده علىّ عليه السلام معه ، ثم يماطله بالبيعة ، ويحاجزه عنها . وإن كان الثانى فهو الذى فعله أمير المؤمنين عليه السلام . وإن كان الثّالث فهو كالقسم الأول ؛ بل هو آكد فيما يريده معاوية من الخلاف والعصيان . وكيف يتوهّم مَنْ يعرف السِّيَر أنّ معاوية كان يبايع له ؛ لو أقرّه على الشام وبينه وبينه مالا تبرك الإبلُ عليه ، من التِّرات القديمة، والأحقاد ،وهو الذى قتل حنظلةَ أخاه ، والوليد خاله ، وعتبة جدّه فى مقام واحد ،ثم ماجرى بينهما فى أيّام عثمان ، حتى أغلظ كلٌّ واحد منهما لصاحبه ، وحتى تهدّده معاوية ، وقال له : إنّى شاخص إلى الشام وتاركٌ عندك هذا الشيخ — يعنى عثمان — والله لئن

انعصّت(١) منه شعرة واحدة لأضربنّك بمائة ألف سيف . وقد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم .

وأما قول ابن عباس له عليه السلام : ولّه شهراً واعزله دهراً ، وما أشار به المغيرة ابن شعبة ، فإنهما ما توهّماه ، وما غلب على ظنونهما وخطر بقلوبهما ، وعليّ عليه السلام كان أعلمَ بحاله مع معاوية ، وأنّها لا تقبل العلاج والتدبير . وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكْره ودهائه ، وما كان في نفسه من عليّ عليه السلام مِنْ قَتْل عثمان ومن قَبْل قتل عثمان ، أنه يقبل إقرار عليّ عليه السلام له على الشام ! وينخدع بذلك ، ويبايع ويعطى صَفْقته(٢) يمينه ! إنّ معاوية لأدهى من أن يُكاد بذلك ، وإن عليّاً عليه السلام لأعرفُ بمعاوية ممن ظنّ أنه لو استماله بإقراره لبايع له ، ولم يكن عند عليّ عليه السلام دواء لهذا المرض إلا السيف ؛ لأن الحال إليه كانت تئول لا محالة ، فجعل الآخر أولا .

وأنا أذكر في هذا الموضع خبراً رواه الزبير بن بكّار في " الموفقيّات " ليعلم من يقف عليه ، أنّ معاوية لم يكن لينجذب إلى طاعة عليّ عليه السلام أبداً ، ولا يعطيه البيعة ، وأنّ مضادّته له ، ومباينته إياه كمضادة السّواد للبياض ، لا يجتمعان أبدا وكمباينة السّلب للإيجاب ، فإنّها مباينة لا يمكن زوالها أصلاً . قال الزبير :

حدّثني محمد بن محمد بن زكريا بن بسطام ، قال : حدّثني محمد بن يعقوب بن أبي الليث ، قال : حدّثني أحمد بن محمد بن الفضل بن يحيى المكيّ ، عن أبيه ، عن جدّه الفضل بن يحيى عن الحسن بن عبد الصمد ، عن قيس بن عرفجة ، قال : لما حصِر عثمان أبرَدَ مروان بن الحكم بخبره بريدَيْن : أحدهما إلى الشام ، والآخر إلى اليمن — وبها يومئذ يعلى بن منية — ومع كلّ واحدٍ منهما كتاب ؛ فيه أنّ بني أمية في الناس كالشامة

(١) انعص الشعر : انجرد وتناثر . (٢) الصفقة هنا : المبايعة .

الحمراء ، وأنّ الناس قد قعدوا لهم برأس كلّ محجّة ، وعلى كلّ طريق ، فجلوهم مرمى العرّ والعضيهة⁽¹⁾ ، ومقذف القَشْب⁽²⁾ والأفيكة ؛ وقد علمتم أنّها لم تأتِ عثمان إلا كرْهاً ، تجبذ من ورائها . وإنّي خائف إن قتل أن تكون من بني أمية بمناط الثريّا ، إن لم تَصِرْ كرصيف الأساس المحكم ، ولئن وَهَى عمودُ البيت لتتداعَيَنَّ جدرانُه ، والذى عيب عليه إطعامكما الشام واليمن ، ولا شكّ أنكما تابعاه إن لم تحذرا ، وأما أنا فساعفُ كلَّ مستشير ، ومعين كلَّ مستصرخ ، ومجيبٌ كل داع ، أتوقّع الفرصة فأثب وثبة الفهْد أبصرَ غفلة مقتنصة ؛ ولولا مخافة عطَب البريد ، وضياع الكتب ، لشرحت لكما من الأمر ما لا تفزعان معه إلى أن يحدث الأمر ؛ فجدّا في طلب ما أنتما وليّاه ؛ وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله . وكتب في آخره :

وَمَا بَلَغَتْ عُثْمَانَ حَتَّى تَخَطَّمَتْ ... رِجَالٌ ودانَتْ للصَّغار رجالُ
لقد رجعتْ عوْداً على بدءِ كونها ... وإنْ لم تجِدّا فالمصيرُ زوالُ
سيبدى' مكنون الضمائر قولُهم ... ويظهر منهم بعد ذاك ضلالُ
فإنْ تقعدا لا تطلبا ما ورثتما ... فليس لنا طول الحياة مقالُ
نعيش بدار الذلّ في كلّ بلدةٍ ... وتظهر منا كأبةٌ وهزالُ

فلمّا ورد الكتاب على معاوية ، أذّن في الناس : الصلاة جامعة ! ثم خطبهم خطبة المستنصر المستصرخ .

وفي أثناء ذلك وَرَد عليه قبل أن يكتب الجواب ، كتابُ مروان بقتل عثمان ، وكانت نسخته : وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوّة العزْم ، وصلاحَ النيّة ، ومنّ عليك بمعرفة الحقّ واتّباعه ؛ فإنّي كتبت إليك هذا الكتاب بعد قَتْل عثمان أمير المؤمنين عليه السلام

(١) العضيهة : الإفك والبهتان .
(٢) القشب من الكلام : الفرى ، وعن ابن الأعرابي : القاشب : الذي يعيب الناس بما فيه

وأىّ قتلةٍ قُتِل ! نُحِر كما يُنْحَر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بالحمل ، بعد أن نُثِيت صفحتُه بطئ الرواحل وسَيْر المجير ، وإنى منبئك من خبره غير مقصّر ولا مطيل: إنّ القوم استطالوا مدّته ، واستقلّوا ناصرَه ، واستضعفوه فى بدنه ، وأمّلُوا بقتله بَسْطَ أيديهم فيما كان قَبَضه عنهم ، واعصوصبوا[1] عليه ، فظلّ محاصَرًا ، قد مُنِع من صلاة الجماعة، وردّ المظالم ، والنظر فى أمور الرعيّة ، حتى كأنّه هو فاعل لما فعلوه . فلما دام ذلك أشرف عليهم ، فخوّفهم الله وناشدهم ، وذكّرهم مواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلّم له ، وقوله فيه ، فلم يجحدوا فضله ، ولم ينكروه ، ثم رمَوْه بأباطيلَ اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعةً إلى قتله ، فوعدهم التوبة عمّا كرهوا ، ووعدهم الرّجعة إلى ما أحبّوا . فلم يقبلوا ذلك ، ونهبوا دارَه ، وانتهكوا حرمتَه ، ووثبوا عليه ، فسفكوا دَمه ، وانقشعوا عنه انقشاعَ سحابة قد أفرغَتْ ماءها ، منكفئين قِبَلَ ابن أبى طالب ، انكفاء الجرَاد إذا أبصر المرعى. فأخلِقْ ببنى أميّة أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العَيُوق إن لم يثأره ثائر ! فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكنْه . والسلام .

فلما ورد الكتاب على معاوية ، أمر بجمع الناس ، ثمّ خطبهم خطبة أبكى منها العيون ، وقلقل القلوب ، حتى علت الرّنّة ، وارتفع الضّجيج ، وهمّ النساء أن يتسلّحن ، ثم كتب إلى طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوّام ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر بن كريز ، والوليد بن عُقْبة ، ويعلَى بن مُنْية — وهو اسم أمّه — وإنّما اسم أبيه أميّة .

فكان كتاب طلحة : أما بعد ، فإنّك أقلّ قريش فى قريش وِترا ، مع صباحة وجهك وسماحة كفّك ، وفصاحة لسانك . فأنت بإزاء مَنْ تقدّمك فى السابقة ، وخامس المبشَّرين بالجنّة ، ولك يوم أُحُد وشرفه وفضلُه ، فسارع رحمك الله إلى ماتقلّدك الرعيّة من أمرها مما لا يسعك التخلّف عنه ، ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به ، فقد أحكمتُ لك الأمر

---

١) اعصوصب القوم : اجتمعوا وصاروا عصائب .

قِبَلِي ، والزبير غير متقدّم عليك بفضل ، وأيكما قدّم صاحبه فالمقدّم الإمام ، والأمر من بعده للمقدَّم له ، سلك الله بك قصد المهتدين ، ووهب لك رشد الموفقين . والسلام .

وكتب إلى الزبير : أما بعد،فإنك الزبير بن العوام،ابن أبي خديجة وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، وسلفه،وصهر أبي بكر ، وفارس المسلمين،وأنت الباذل في الله مهجته بمكة عند صيحة الشيطان ؛ بعثك المنبعث ، فخرجت كالثعبان المنسلخ . بالسيف المنصلت،تخبط خَبْط الجمل الرديع[1] ؛ كل ذلك قوة إيمان،وصدق يقين،وسبقت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم البشارة بالجنة ، وجعلك عمر أحد المستخلفين على الأمة . واعلم ياأبا عبد الله ، أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعي،فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولمِّ الشعث ، وجَمْع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، قَبْل تفاقم الأمر وانتشار الأمة ، فقد أصبح الناس على شفا جُرُف هارٍ عمّا قليل ينهار إن لم يُرْأب . فشمّر لتأليف الأمة ، وابتغ إلى ربك سبيلا ، فقد أحكمتُ الأمر على من قِبَلي لك ولصاحبك على أن الأمر للمقدَّم ، ثم لصاحبه من بعده . جعلك الله من أئمة الهدى ، وبُغاة الخير والتقوى . والسلام .

وكتب إلى مروان بن الحكم :

أما بعد ، فقد وصل إليّ كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين ، وما رَكِبُوه به ، ونالوه منه،جهلاً بالله وجراءة عليه ، واستخفافاً بحقه،ولأمانيّ لوّح الشيطانُ بها في شَرَك الباطل ليدَهْدِهَهم[2] في أهْوِيَات الفتن ، ووهَدات الضلال ، ولعمري لقد صدق عليهم ظنه ، ولقد اقتنصهم بأنشوطة فخّه.فعلى رِسْلك أبا عبد الله ، يمشي الهوينى ويكون أولا، فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالفَهْد لا يصطاد إلّا غِيلةً ، ولا يتشازر[3] إلا عن حيلة ،

(١) الرديع ، أي المردوع ؛ من ردعه ؛ إذا كفه .
(٢) أي « ليرديهم » .
(٣) تشازر : نظر بمؤخر العين .

وكالثعلب لايخلِتُ إلّا رَوَغَانا ، وأخفِ نفسَك منهم إخفاء القنفذ رأسَه عند لمس الأكف، وامتهن نفسَك امتهان مَنْ ييأس القوم من نصره وانتصاره ، وابحثْ عن أمورهم بحثَ الدَّجاجة عن حَبِّ الدّخن عند فقاسها ، وأنغِل [1] الحجاز فإنى منغل الشام . والسلام .

وكتب إلى سعيد بن العاص :

أما بعد ، فإنّ كتابَ مَرْوان ورد علىّ من ساعة وقعت النازلة، تَقْبِلُ به البُرُد بسير المطىّ الوجيف [2] ، تتوجّس توجُّس الحيّة الذَّكر خوف ضربة الفأس ، وقبصة الحاوِى [3] ، ومروان الرائد لا يكذِبُ أهلَه، فعلام الإفكاك يابن العاص، ولات حينَ مَناص، ذلك أنكم يابنى أميّة عمّا قليلٍ تسألون أدنى العيشِ من أبعد المسافة، فيُنكركم مَنْ كان منكم عارفا، ويصدّ عنكم مَنْ كان لكم واصلاً، متفرّقين فى الشعاب تتمنّون لمظة [4] المعاش. إنّ أمير المؤمنين عُتِب عليه فيكم ، وقتِل فى سبيلكم ، ففيمَ القعود عن نصرته والطلب بدمه ، وأنتم بنو أبيه، ذوو رحمه وأقربوه ، وطلاّب ثأره ! أصبحتم متمسّكينَ بشظَف معاشٍ زهيد ، عمّا قليل يُنزع منكم عند التخاذُل وضعف القوى . فإذا قرأتَ كتابى هذا فدبَّ دبيبَ البُرْء فى الجسَد النحيف ، وسِرْ سَيْرَ النجوم تحت الغَمَام ، واحشد حشد الذرّة [5] فى الصيف لانجحارها فى الصَّرْد ، فقد أيّدتكم بأسد وتيْم . وكتب فى الكتاب :

تالله لا يذهبُ شَيْخِى باطِـــلاً حتى أبِيرَ مالـكاً وكاهِـلا [6]

---

(١) أنغلهم ، أى أحملهم على الضغن .
(٢) الوجيف : للسير السريع .
(٣) الحاوى : الذى يرق الحية .
(٤) اللمظة فى الأصل : اليسير من السمن ؛ تأخذه بإصبعك ؛ يقال : صده لمظة من سمن ، ثم أطلق على كل شئ قليل .
(٥) الذر : صغار النمل .
(٦) لامرئ القيس ، ديوانه ١٣٤ : أبير : أهلك . ومالك وكاهل من بنى أسد .

القائلين الملكَ الحُلاحِـلا [(١)] خـــير معدّ حسباً ونائلا [(٢)]

وكتب إلى عبد الله بن عامر :

أمّا بعد ، فإنّ الغيّ مركبٌ ذلول ، سهل الرِّياضة ، لاينازعك اللِّجام. وهيهات ذلك إلا بعـد ركوب أثباج المهالك ، واقتحام أمواج المعاطب . وكأنّى بكم يابنى أميّة شَمَارِيرُ [(٣)] كالأوارك ، تقودها الحُداة ، أو كرَخَمِ الخندمة [(٤)] تذرق [(٥)] خوف العُقاب، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشرىَ الفساد ونَدْب [(٦)] السوط جديد ، والجرح لمّا يندمل ؛ ومن قبل استضراء الأسَد، والتقاء لحيَيْه على فريسته، وساوِرِ الأمرَ مساورة الذئب الأطلس كسيرةَ القطيع . ونازل الرأىَ ، وانصب الشَّرَك ، وارم عن تمكّن ، وضع الهناء مواضعَ النَّقْبَ [(٧)] ، واجعل أكبر عدّتك الحذر ، وأحدّ سلاحك التحريض . واغضض عن العوراء ، وسامح اللَّجُوج ، واستعطف الشارد ، ولاين الأشْوَس ، وقوّ عزم المريد، وبادر العَقَبة ، وازحف زَحْفَ الحيّة . واسبق قبل أن تُسبَق ، وقمْ قبل أن يقام لك . واعلم أنّك غير متروك ولا مهمَل ، فإنّى لكم ناصح أمين . والسّلام .

وكتب فى أسفل الكتاب :

---

(١) الحلاحل : السيد الشريف ؛ يعنى أباه .

(٢) قال شارح ديوانه : قوله : « خير معد » ؛ هو راجع إلى قوله : « مالكا وكاهلا » ؛ لأن بنى أسد من معد ؛ وإنما يريد : حتى أعطاه أشرف معد وخيرهم ؛ انتصارا لأبى . النائل : العطاء .

(٣) شمارير : متفرقون . والأوارك : جمع أركة ، وهى الناقة التى تلزم الأراك وترعاه ، وخصّها الشرق لعلم الأراك .

(٤) الخندمة : موضع .

(٥) ذرق الطائر : سلح .

(٦) ندب السوط : أثره .

(٧) هنأ البعير : طلاه بالهناء ؛ وهو القطران. والنقب جمع نقبة ؛ وهى أول مايبدو من الجرب ؛ وأصله قول دريد بن الصمة :

متبذّلاً تبدُو محاسنُهُ يضعُ الهناء مواضعَ النُّقْبِ

وانظر اللسان (نقب) .

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ قيسَ بن عاصمٍ ... ورحمتُهُ ما شاء أنْ يترحَّما (١)
تحيةَ مَنْ أهـــدى السلام لأهلهِ ... إذا شَطَّ دارا عن مزارك سلَّما
فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ... ولكنّه بنيان قـــوم تهدّما

وكتب إلى الوليد بن عقبة :

يابن عقبة ، كُنِ الجيش ، وطيب العيش أطيب من سَفْع سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس فى أفقها ؛ إنّ عثمان أخاك أصبح بعيداً منك فاطلب لنفسك ظلاً تستكنّ به ؛ إنى أراك على التراب رَقُوداً ؛ وكيف بالرقاد بك ! لا رقاد لك ! فلو قد استتبّ هذا الأمر لمريده ألفيت كشريد النعام ، يفزع من ظلّ الطائر ؛ وعن قليل تشرب الرّنق ، وتستشعر الخوف . أراك فسيح الصَّدر ، مسترخيَ اللَّبَبِ ، رِخْو الحزام ، قليل الاكتراث ؛ وعن قليل يُجتثّ أصلك . والسلام .

وكتب فى آخر الكتاب :

حترت نومك أنْ هبّت شآمية ... عند الهجير وشرباً بالعشيّاتِ
على طلابك ثأراً من بنى حكَمٍ ... هيْهاتَ مِنْ راقدٍ طلاّب ثاراتِ

وكتب إلى يعلى بن أميّة :

حاطك الله بكلاءته ، وأيّدك بتوفيقه . كتبتُ إليك صبيحة ورد علىّ كتاب مروان بخبر قتل أمير المؤمنين ، وشرح الحال فيه . وإنّ أميرَ المؤمنين طال به العمرُ حتى نقصتْ قواه ، وثقلت نهضتُه ، وظهرت الرَّعشة فى أعضائه ، فلمّا رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعا للإمامة والأمانة وتقليد الولاية ، وثبوا به ، وألّبوا عليه ؛ فكان أعظم ما نقَموا عليه وعابوه به ، ولايتك اليمن وطول مدّتك عليها . ثم ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال ،

---

(١) لعبدة بن الطبيب يرثى قيس بن عاصم ، الشعر والشعراء ٧٠٧ .

حتى ذبحوه ذبحَ النَّطيحه[1] مبادراً بها الموْت ، وهو مع ذلك صائم معانقٌ المصحف ، يتلو كتابَ الله . فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرّسول ، والإمام المقتول . على غير جرْم منه سفكوا دمه ، وانتهكوا حرمته ، وأنت تعلم أنّ بيعته في أعناقنا ، وطلب ثأره لازم لنا ، فلا خيرَ في دنيا تعدلُ بنا عن الحقّ ، ولا في إمْرة توردُنا النار . وإن الله جلّ ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه ، فشمِّر لدخول العراق .

فأما الشام فقد كفيتُك أهلها ، وأحكمتُ أمرها ، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكّة ، حتى يجتمع رأيُكما على إظهار الدعوة ، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم ، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهّد لكم العراق ، ويسهل لكم حُزونة عِقابها[2] .

واعلم يا بن أمية أن القوم قاصدُوك بادِئ بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال ، فاعلم ذلك واعمل على حسَبه إن شاء الله .

وكتب في أسفل الكتاب :

ظلّ الخليفة محصوراً يناشدُهُمْ ... بالله طوراً ، وبالقرآن أحيانَا

وقد تألّب أقــوامٌ على حَنَقٍ ... عن غير جُرْمٍ وقالوا فيه بُهْتانَا

فقام يُذكِرهم وعدَ الرّسول له ... وقوله فيه إسراراً وإعـــلانَا

فقال كُفّوا فإنّي معتب لكمُ ... وصارف عنكُمُ يَعْلَى ومَرْوانَا

فكذّبوا ذاك منه ثُمّ ساوَرهُ ... من حاض لبّته ظلما وعدوانا

قال : فكتب إليه مروان جوابا عن كتابه :

أما بعد ، فقد وصل كتابُك ، فنعمَ كتابُ زعيم العشيرة ، وحامي الذّمار ؛ وأخبرُك

---

(١) النطيحة : الشاة المنطوحة .

(٢) العقاب ، بالكسر : جمع عقبة ، وهي في الأصل : المرقى الصعب من الجبال

أن القوم على سَنَنِ استقامةٍ إلّا شظايا شعب مُشَتَّتٍ بينهم يتقوّل على غير مجابهة، حسب ماتقدّم من أمرك ؛ وإنما كان ذلك رسيس[1] العُصاة ، ورمى أخذر من أغصان الدوحة ؛ ولقد طويت أديمَهم على نَغَلٍ يَحْلَمُ[2] منه الجلد . كذبتْ نفس الظانّ بنا ترك المظلمة ، وحبّ الهجوع ؛ إلّا تهويمة الراكب العَجِل ، حتى تُجذّ جماجم وجماجم ؛ جذّ العراجين المهدّلة حين إيناعها ، وأنا على صحة نيتى ، وقوة عزيمتى وتحريك الرّحِم لى ، وغَلَيان الدم منّى ؛ غيرُ سابقك بقول ، ولا متقدّمك بفعل ، وأنت ابن حرب ، طلّاب التِّرات ، وآبى الضيم .

وكتابى إليك وأنا كحِرْباء السَّبْسَب فى الهَجِير ترقب عين الغَزَالة[3] ، وكالسَّبُع المفلت من الشَّرَك يَفْرَق من صوت نفسه ؛ منتظرًا لما تصحّ به عزيمتك ؛ ويَرِدُ به أمرك ؛ فيكون العمل به ، والمحتذَى عليه .

وكتب فى أسفل الكتاب :

أَيُقْتَلُ عثمانٌ وتَرْقَا دموعُنا   ونرقدُ هــذا الليلَ لا نتفزّعُ !
ونشرب بَرْدَ الماء رِيًّا وقد مَضَى   على ظمأ يتلو القرآنَ ويركعُ
فإنّى ومَنْ حَجّ الملبّون بيتَه   وطافوا بِمَسْعىً، وذو العرش يسمعُ
سأَمنعُ نفسى كلَّ ما فيه لذّةٌ   من العَيْش حتى لا يُرى فيه مطمعُ
وأقتلُ بالمظلوم مَنْ كان ظالمًا   وذلك حكمُ الله ما عنه مَدْفَعُ

وكتب إليه عبد الله بن عامر :

---

(١) الرسيس : الشىء الثابت ، يريد أن ذلك دأبهم وعادتهم .
(٢) حلم الجلد ، إذا فسد .
(٣) السبسب : المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة . والهجير : شدة الحر ، والغزالة : الشمس .

أمّا بعد ، فإنّ أمير المؤمنين كان لنا الجناح الحاضنة تأوى إليها فراخها تحتها ، فلما أقصده[1] السهم صرنا كالنعام الشارد . ولقد كنت مشترك الفكر ، ضالّ الفهم ، ألتمس دريئةً أستجنّ بها من خطأ الحوادث ، حتّى وقع[2] إلىّ كتابُك ، فانتبهت من غفلة طال فيها رقادى ، فأنا كواجد المحجّة كان إلى جانبها حائرا ، وكأنى أعاين ما وصفتَ من تصرّف الأحوال .

والذى أخبرك به أنّ الناس فى هذا الأمر ، تسعة لك وواحد عليك . ووالله لَلموتُ فى طلب العزّ أحسنُ من الحياة فى الذلّة ، وأنت ابنُ حَرْب فتَى الحروب ، ونُضار[3] بنى عبد شمس ، والهِمَمُ بك منوطةٌ وأنت مُنهِضها ، فإذا نهضتَ فليس حين قعود ، وأنا اليوم على خلاف ما كانتْ عليه عزيمتى من طلب العافية ، وحبّ السلامة قبل قَرْعك سويداء القلب بسوط الملام ، ولنعم مؤدّب العشيرة أنت ! وإنّا لنرجوك بعد عثمان ، وها أنا متوقّع مايكون منك لأمتثله ، وأعمل عليه إن شاء الله .

وكتب فى أسفل الكتاب :

لاخيرَ فى العيشِ فى ذلّ ومنقصةٍ ... وللموتُ أحسنُ من ضَيْمٍ ومن عارِ
إنّا بنُو عبدِ شمس معشرٌ أُنُفٌ ... غُرٌّ جَحاجِحةٌ طُلّابُ أوتارِ
واللهِ لو كانَ ذِمّيًّا مجاورُنا ... ليطلب العزّ لم نقعدْ عن الجارِ
فكيف عثمان لم يُدْفَنْ بمزْبَلةٍ ... على القُمامة مطروحًا بهــا عارِ !
فازحفْ إلىّ فإنّى زاحفٌ لهمُ ... بكلّ أبيضَ ماضى الحدّ بتّارِ

وكتب إليه الوليد بن عُقْبة :

أما بعد ، فإنّك أسدُ قريش عقلًا ، وأحسنُهم فهمًا ، وأصوبهم رأيا ؛ معك حسن

---

(١) أقصده : أصابه . (٢) ه : « دفع » . (٣) ب : « نضار » .

السياسة ، وأنت موضع الرياسة ، نوردُ بمعرفة ، ونُصْدِر عن منهل رويّ . مُناوئك كالمتقلب من العيّوق⁽¹⁾ يَهْوِي به عاصف الشمال إلى لُجّة البحر .

كتبتَ إليّ تذكرُ طيب الخيش ، ولين العيش ، فمَنْ طوى عليّ حرام الامْسَكة الرَّمَق⁽²⁾ حتى أفرِيَ⁽³⁾ أوداج قَتَلة عثمان فَرْيَ الأُهُب⁽⁴⁾ بشَباة الشِّفار . وأما اللين فهيهات إلا خيفة المرتقب يرتقب غفلة الطالب ، إنّا على مُداجاة ، ولمّا تَبْدُ صفحاتنا بعدُ؛ وليس دون الدم بالدم مزحَل . إنّ العار منقصة ، والضعف ذل . أيخبط قتلة عثمان زَهْرة الحياة الدنيا ، ويسقَوْن بَرْد المعين ، ولمّا يمتطُوا الخوف ، ويستحلسوا الحذَر ، بعد مسافة الطرْد وامتطاء العقبة الكئود في الرحلة ! لا دعيتُ لعقبة إن كان ذلك حتى أنصب لهم حرباً تضع الحوامل لها أحمالها ! قد ألوتْ بنا المسافة ، ووردنا حياض المنايا ، وقد عقلتُ نفسي على الموت عَقْلَ البعير ، واحتسبت أني ثاني عثمان أو أقتل قاتله ! فعجّل عليّ مايكون من رأيك ، فإنّا منوطون بك ، متبعون عقبك ، ولم أحسب الحال تتراخى بك إلى هذه الغاية ؛ لما أخافه من إحكام القوم أمرَهم !

وكتب في أسفل الكتاب :

نومي عليّ محـــرّمٌ إن لم أقم ... بدم ابن أمي مِنْ بَني العَلّاتِ

قامت عليّ - إذا قعدتُ ولم أقُمْ ... بطلاب ذاك - مناحةُ الأمواتِ

عَذُبَتْ حياضُ الموت عندي بعدما ... كانتْ كريهةَ مَوْرِدِ النَّهَلاتِ

وكتب إليه يعلَى بن أميّة :

---

(1) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريا ، لا يتقدمها ، يضرب مثلا للبعد .
(2) الرمق : بقية الروح .
(3) فرى الجلد : شقه .
(4) الأهب : جمع إهاب ، وهو الجلد ما لم يدبغ .

إنّا وأنتم يابني أميّة كالحجر لا يُبنَى بغير مَدَر ، وكالسّيف لا يَقطع إلاّ بضاربه .

وصل كتابُك بخبر القوم وحالهم ، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النَّطيحة بُودِرَ بها الموت لَيُنْحَرَنّ ذابحُه نحرَ البَدَنة وافَى بها المدَى الأجل ! ثكلتني مَنْ أنا ابنُها إن نمت عن طلب وتر عثمان ، أو يقال : لم يبق فيه رَمَق ! إنّى أرى العيش بعد قتل عثمان مرًّا ، إن أدلج القوم فإنّي مدلج . وأما قصدهم ماحوته يدي من المال ، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان ، وإن أبوْا ذلك أنفقنا المال على قتالهم ، وإنّ لنا ولهم لمركَةً نتناحر فيها نحرَ القُدار النقائع[1] ، عن قليل تصل لحومها .

وكتب في أسفل الكتاب :

لمثل هذا اليَوم أوصى النّاس لا تعط ضيماً أو يخـــرّ الراسُ

* * *

قال : فكلّ هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرّضونه ، ويُغرونه ، ويحرّكونه ، ويهيجونه ، إلّا سعيد بن العاص ، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء ؛ كان كتابه :

أما بعدُ ؛ فإنّ الحزمَ في التثبّتِ ، والخطأَ في العجلة ، والشؤم في البِدَار ؛ والسهمُ سهمك مالم ينبض به الوتر ، ولن يردَّ الحالبُ في الضَّرع اللّبن . ذكرتَ حقَّ أمير المؤمنين علينا ، وقرابتنا منه ، وأنّه قُتِل فينا . فخصلتان ذكرهما نقص ، والثالثة تكذب ، وأمرتنا بطلب دم عثمان ، فأيّ جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن ! رُدِيت الفِجاج ، وأحكِم الأمرُ عليك ، ووَلِي زمامَه غيرُك ، فدعْ مناواةَ مَنْ لو كان افترش فراشَه صَدْر الأمر لم يعدل به غيره . وقلت : كأنّا عن قليل لا نتعارف ، فهل نحن إلّا حيٌّ من قريش ، إن لم تَنلنا الولاية لم يضق عنّا الحقّ ، إنها خلافة مَنافيّة ، وبالله أقسم قسماً مبروراً ؛ لئن صحّت عزيمتُك على

---

(١) القدار : الجزار ، والنقائع : جمع نقيعة ؛ وهي ما نحر من إبل النهب .

ماورد به كِتابُك ، لألقيتك بين الحالَين ؛ طليحاً . وعبنى إخالُك بعد خَوْض الدماء تنال الظَّفر ، هل فى ذلك عوَض من ركوب للأثم ونقص الدِّين !

أمّا أنا فلا عَلَىّ بنى أميّة ولا لهم ، أجعل الحزم دارِى ، والبيت سجنى ، وأتوسَّد الإسلام ، وأستشعر العافيــة . فاعدِل أبا عبد الرحمن زمامَ راحلتِك إلى محجّة الحق ، واستوهب العافية لأهلك ، واستعطف الناس على قومِك ، وهيهات من قبولك ما أقول حتى يفجِّر مَرْوانُ ينابيعَ الفِتَن تأجّج فى البلاد ، وكأنى بكما عند ملاقاة الأبطال تعتذران بالقَدَر ، ولبئس العاقبة الندامة ! وعمّا قليلٍ يَضِحُ لك الأمر . والســلام .

هــذا آخرُ مانــكاتب القوم به ، ومَنْ وقف عليه علم أنّ الحال لم يــكن حالا يقبل العلاج والتدبير ، وأنه لم يكن بدٌّ من السيف ، وأنّ عليا عليــه السلام كان أعرَف بما عَمِل

وقد أجاب ابن سنان فى كتابه الذى سمّاه « العادل » عن هذا السؤال ، فقال: قدعلم النّاس كافّة أنه عليه الســلام فى قصّة الشورى عرض عليه عبدُ الرحمن بن عوف ، أن يعقد له الخلافة على أن يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة أبى بكر وعمر ، فلم يستجب إلى ذلك ، وقال : بل عَلَىّ أنْ أعمل بكتاب الله وسنّة رسوله ، وأجتهد رأيى.

وقد اختلَف النّاسُ فى ذلك ، فقالت الشِّيعة : إنّما لم يدخل تحت الشَّرْط ، لأنه لم يستصوب سيرتَهما . وقال غيرهم : إنّما امتنع لأنّه مجتهد ، والمجتهد لايقلّد المجتهد ، فأيّهما أقرب على القولين جميعا إثمًا ، وأيسر وزرا ! أن يقرّ معاوية على ولاية الشام مدّة إلى أن تتوطّد خلافته ، مع ماظهر من جَوْر معاوية وعداوته ، ومدّ يَده إلى الأموال والدّماء أيامَ سلطانه ، أو أن يعاهد عبدَ الرحمن على العمل بسيرة أبى بكر وعمر ، ثم يخالف بعضَ أحكامِهما إذا استقرّ الأمر له ، ووقع العقد ! ولا رَيْبَ أنّ أحداً لايخفى عليــه فضلُ مابين

للوصيين ، وفضل مابين الأمين ، فمن لايجيب إلى الخلافة والاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمّح بلفظة يتلفظ بها ، يجوز أن يتأوّلها أو يورّى فيها ، كيف يستجيب إلى إقرار الجائر ، وتقوية يده مع تمكينه فى سُلطانه ، لتحصّل له طاعة أهل الشام واستضافة طرَف من الأطراف ! وكأنّ معنى قول القائل : هلّا أقرّ معاوية على الشّام ؛ هو هلّا كان عليه السلام متهاوناً بأمر الدّين راغباً فى تشديد أمر الدّنيا !

والجواب عن هذا ظاهر ، وجهل السائل عنه واضح .

واعلم أنّ حقيقة الجواب هو أنّ علياً عليه السلام ، كان لايرى مخالفة الشرع لأجل السياسة ، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيوية ، أما الدنيويّة فنحو أن يتوهّم الإمام فى إنسان أنه يروم فساد خلافته من غير أنْ يثبت ذلك عليه يقيناً ، فإنّ علياً عليه السلام لم يكن يستحِلّ قتله ، ولا حَبْسَه ، ولا يعمل بالتوهّم وبالقول غير المحقّق ، وأما الدينيّة فنحو ضرب المتّهم بالسّرقة ، فإنّه أيضاً لم يكن يعمل به ، بل يقول : إن يثبت عليه بإقرار أو بيّنة ، أقمت عليه الحدّ ، وإلا لم أعترضه . وغيرُ عليّ عليه السلام قد كان منهم مَنْ يرى خلاف هذا الرّأى ، ومذهب مالك بن أنس العملُ على المصالح المرسَلة ، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمّة لإصلاح الثلثين ، ومذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأى وبغالب الظنّ ، وإذا كان مذهبه عليه السلام ماقلناه ، وكان معاوية عنده فاسقاً ، وقد سبق عنده مقدّمة أخرى يقينية ، هى أنّ استعمال الفاسق لا يجوز ولم يكن ممّن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة ، فقد تعين مجاهرته بالعزْل ، وإنْ أفضى ذلك إلى الحرب .

* * *

فهذا هو الجواب الحقيقىّ ، ولو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقىّ ، لكان لقائل أن

يقول لابن سنان القولَ فى عُدُوله عن الدّخول تحت شرط عبد الرحمن ، كالقول فى عدوله عن إقرار معاوية على الشّام ، فإنّ مَنْ ذهب إلى تغليطه فى أحد الموضعَيْن ، له أن يذهب إلى تغليطه فى الموضع الآخر.

قال ابن سنان : وجواب آخر ، وهو أنّا قد علمنا أنّ أحدَ الأحداث التى نُقِمت على عثمان . وأفضت بالمسلمين إلى حِصاره وقتله ، توْليةُ معاوية الشّام ، مع ماظهر من جَوْره وعُدوانه ، ومخالفة أحكام الدين فى سلطانه ، وقد خوطب عثمان فى ذلك ، فاعتذر بأنّ عمر ولّاه قبله ، فلم يقبل المسلمون عذرَه ، ولا قنعوا منه إلّا بعزله ، حتى أفضى الأمرُ إلى ماأفضى ، وكان علىّ عليه السلام من أكثر المسلمين لذلك كراهيَة ، وأعرفهم بما فيه من الفَساد فى الدّين .

فلو أنّه عليه السلام افتتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشام ، وإقراره فيه ، أليس كان يبتدئ فى أوّل أمره بما انتهى إليه عثمان فى آخره ، فأفضى إلى خلعه وقتله ولو كان ذلك فى حكم الشريعة سائغاً ، والوِزْر فيه مأموناً ، لكان غلطاً قبيحاً فى السياسة ، وسبباً قويّاً للعصيان والمخالفة ، ولم يكن يمكنه عليه السلام أن يقولَ للمسلمين : إنّ حقيقةَ رأيى عزلُ معاوية عند استقرار الأمر ، وطاعة الجمهور لى ، وإنّ قصدى بإقراره على الولاية مخادعته ، وتعجيل طاعته ، ومبايعة الأجناد الذين قِبَله ، ثم استأنف بعد ذلك فيه مايستحقّه من العزل ، وأعمل فيه موجب العدْل ؛ لأنّ إظهارَه عليه السلام لهذا العزْم كان يتصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذى شرع فيه وينتقض الرأى الذى عوّل عليه .

* * *

ومنها قولهم : إنّه ترك طلحةَ والزُّبير حتى خرجا إلى مكّة ، وأذِنَ لهما فى العُمْرة ، وذهب عنه الرأى فى ارتباطهما قِبَله ، ومنعهما من البعد عنه .

والجواب عنه : أنّه قد اختلفت الرّواة في خروج طلحة والزبير من المدينة : هل كان بإذن عليّ عليه السلام أم لا ! فمنْ قال : إنّهما خرجا عن غير إذنه ولا علمه ، فسؤاله ساقطٌ ، ومن قال : إنّهما استأذناه في العُمرة ، وأذِنَ لهما ، فقد روى أنه قال : والله ماتريدان العُمرة ، وإنّما تريدان الغَدْرة ! وخوّفهما الله من التسرّع إلى الفتنة . وما كان يجوز له في الشّرْع أن يحبسهما ، ولا في السياسة . أما في الشّرع فلأنّه محظور أن يعاقَبَ الإنسان بمالم يفعَل ، وعلى مايُظَنّ منه ، ويجوز ألّا يقع . وأمّا في السياسة فلأنّه لو أظهر التهمة لهما ـ وهما من أفاضل السابقين ، وجلّة المهاجرين ـ لكان في ذلك من التنفير عنه مالا يخفى ، ومن الطّعن عليه ماهو معلوم ، بأن يقال : إمّليس من إمامته على ثقة ؛ فلذلك يتّهم الرؤساء ، ولا يأمن الفضلاء ، لاسيّما وطلحة كانَ أوّلَ مَنْ بايعه ، والزبير لم يزلْ مشتهرا بنصرته ؛ فلو حبسهما ، وأظهر الشكّ فيهما لم يسكن أحدٌ إلى جهته ، ولنفَر النّاس كلّهم عن طاعته .

فإن قالوا : فهلّا استصلحهما وولّاهما ، وارتبطهما بالإجابة إلى أغراضهما ؟

قيل لهم : فحوى هذا أنّكم تطلبون من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون في الإمامة مغلوبا على رأيه ، مفتاتاً عليه في تدبيره ، فيقرّ معاوية على ولاية الشام غصبا ، ويولّي طلحة والزبير مِصْر والعراق كُرْها ؛ وهذا شيء ماد خَلَ تحته أحد ممّن قبله ، ولا رضوا أن يكون لهم من الإمامة الاسم ، ومن الخلافة اللفظ ؛ ولقد حورب عثمان وحُصِر على أن يَعْزِل بعض ولاته فلم يجب إلى ذلك ، فكيف تسومون عليّاً عليه السلام أن يفتتح أمره بهذه الدنيّة ويرضى بالدخول تحت هذه الخطة ! وهذا ظاهر .

* * *

ومنها تصلّفهم بتولية أمير المؤمنين عليه السلام محمدَ بن أبي بكر مِصْر ، وعزله قيسَ ابن سعد عنها ؛ حتى قتل محمّد بها ؛ واستولى معاوية عليها .

والجواب أنه ليس يمكن أن يقال : إنّ محمداً رحمه الله لم يكن بأهلٍ لولاية مصر؛ لأنه كان شجاعاً زاهداً فاضلاً ، صحيح العقل والرأى ؛ وكان مع ذلك من المخلصين فى محبة أمير المؤمنين عليه السلام، والمجتهدين فى طاعته ؛ وممن لا يتّهم عليه ، ولا يُرتاب بنصحه، وهو ربيبه وخرِّيجه ، ويجرى مجرى أحد أولاده عليه السلام ، لتربيته له ، وإشفاقه عليه .

ثمّ كان المصريون على غاية المحبة له ، والإيثار لولايته ، ولما حاصروا عثمانَ وطالبوه بعزل عبدالله بن سعد بن أبى سرْح عنهم؛ اقترحوا تأميرَ محمد بن أبى بكر عليهم. فكتب له عثمان بالعهد على مِصر وصار مع المصريين حتى تعقَّبه كتابُ عثمان إلى عبدالله بن سَعْد فى أمره وأمر المصريين بما هو معروف. فعادُوا جميعاً، وكان من قتل عثمان ما كان؛ فلم يكن ظاهرُ الرأى ووجهُ التدبير إلّا تولية محمد بن أبى بكر على مصر، لما ظهرَ من ميل المصريين إليه ، وإيثارهم له ؛ واستحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه ؛ فكان الظنُّ قوياً باتفاق الرعيّة على طاعته ، وانقيادهم إلى نصرته ، واجتماعهم على محبته ، فكان من فساد الأمر واضطرابه عليه حتى كان ما كان ، وليس ذلك يعيب على أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فإنّ الأمور إنما يعتمدها الإمامُ على حسب ما يظنّ فيها من المصلحة ، ولا يعلم الغيبَ إلّا الله تعالى. وقد ولّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى مؤتة جعفراً فقتل ،وولّى زيداً فقتل ، وولّى عبدالله ابن رواحة فقتل ، وهزم الجيش، وعاد مَنْ عاد منهم إلى المدينة بأسوأ حال ، فهل لأحد أن يعيبَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بهذا ، ويطعن فى تدبيره !

***

ومنها قولهم : إنّ جماعةً من أصحابه عليه السلام فارقوه ؛ وصاروا إلى معاوية ، كعقيل ابن أبى طالب أخيه، والنّجاشىّ شاعره ، ورقَبة بن مَصْقلة أحد الوجوه من أصحابه؛ ولولا أنه

كان يُوحشهم ولا يستميلُهم لم يفارقوه ويصيروا إلى عدوّه ، وهذا يخالِفُ حكمَ السياسة ، وما يجب من تألُّف قلوب الأصحاب والرعيّة .

والجواب : إنّا أولا لا ننكر أنْ يكون كلّ من رَغب فى حطام الدّنيا وزخرفها ، وأحبّ العاجل من ملاذّها وزينتها يميل إلى معاوية الذى يبذُل منها كلّ مطلوب ، ويسمَحُ بكلّ مأمول ، ويطعِم خراج مصر عمرو بن العاص ، ويضمَن لذى الكَلاع وحبيب ابن مسلمة ما يوفى على الرجاء والاقتراح ، وعلىّ عليه السلام لا يعدل فيما هو أمينٌ عليه من مال المسلمين عن قضية الشريعة وحكم الملّة ، حتى يقول خالد بن معمر السدوسى لعلباء ابن الهيثم ، وهو يحمله على مفارقة علىٍّ عليه السلام ، واللحاق بمعاوية : اتّقِ الله ياعلباء فى عشيرتك ، وانظر لنفسك ولرَحِمك ؛ ماذا تؤمل عند رجل أردته على أن يزيدَ فى عطاء الحسن والحسين دريهمات يسيرة ريثما يرأبان بهما ظلَف عيشهما ، فأبى وغضب فلم يفعل .

فأما عَقِيل ، فالصحيح الذى اجتمع ثقاتُ الرُّواة عليه أنّه لم يجتمع مع معاوية إلّا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولكنه لازم المدينة ، ولم يحضر حرب الجمل وصِفِّين ، وكان ذلك بإذن أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد كتب عَقِيل إليه بعد الحكمين يستأذنه فى القدوم عليه الكوفة بولده وبقية أهله ، فأمره عليه السلام بالمقام ، وقد رُوى فى خبر مشهورٍ ، أنّ معاوية وبّخ سعيد بن العاص على تأخيره عنه فى صِفِّين ، فقال سعيد : لو دعوتنى لوجدتنى قريبا ، ولكنى جلست مجلس عَقِيل وغيره من بنى هاشم ، ولو أوعبنا لأوعَبُوا[1] .

وأما النجاشىّ ، فإنه شرِبَ الخمرَ فى شهر رمضان ، فأقام علىٌّ عليه السلام الحدّ عليه ،

---

(١) أوعب القوم : إذا خرجوا جميعهم للغزو .

وزاده عشرين جَلْدة فقال النَّجاشيّ : ماهذه العِلاَوة (١) ؟ قال : لجرأتك على الله فى شهر رمضان . فهرب النجاشيّ إلى معاوية .

وأمّا رَقَبة بن مَصْقَلة ، فإنه ابتاع سَبْيَ بنى ناجية وأعتقهم ، وألطّ بالمال (٢) وهرب إلى معاوية ، فقال عليه السلام:فَعَل فِعْل السادة،وأبق إباق العبيد ؛ وليس تعطيل الحدود وإباحة حكم الدين وإضاعة مال المسلمين من التألف والسياسة لمن يريد وجه الله تعالى ، والتلزّم بالدين ، ولا يُظَنُّ بعليّ عليه السلام التساهل والتسامح فى صغير من ذلك ولا كبير .

• • •

ومنها شبْهة الخوارج وهى التحكيم،وقد يحتجّ به على أنه اعتمد مالايجوز فى الشرع، وقد يحتج به على أنه اعتمد ماليس بصواب فى تدبير الأمر . أما الأول فقولهم : إنه حكّم الرِّجال فى دين الله ، والله سبحانه يقول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (٣) وأما الثانى فقولهم: إنه كان قد لاحَ له النصر ، وظهرت أمارات الظَّفر بمعاوية ، ولم يبق إلّا أن يأخذ برقبته فترك التَّصميم على ذلك ، وأخلد إلى التَّحكيم . وربما قالوا : إنّ تحكيمه يدلّ على شكّ منه فى أمره ، وربّما قالوا : كيف رضيَ بحكومة أبى موسى وهو فاسق عنده بتثبيطه أهل الكوفة عنه فى حرب البصرة ؟ وكيف رضيَ بتحكيم عمرو بن العاص وهو أفسق الفاسقين؟

والجواب : أمّا تحكيم الرجال فى الدِّين فليس بمحظور،فقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين المرأة وزوجها ، فقال:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا

---

(١) العلاوة ، بالكسر : ما زاد على الشيء .
(٢) ألط بالمال ، أى أخذه وجحده .
(٣) سورة الأنعام ٥٧ .

مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (١) . وقال فى جزاء الصَّيد : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (٢) .

وأمّا قولهم : كيف ترك التصميم بعد ظهور أمارات النصر ؟ فقد تواتر الخبرُ بأنّ أصحابه لما رفَع أهلُ الشام المصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم ، ومشارفة هلاك معاوية وأصحابه ، انخدعوا برفْع المصاحف ، وقالوا : لايحلّ لنا التّصميم على حربهم ، ولايجوز لنا إلّا وضع السّلاح ورفع الحرب والرّجوع إلى المصاحف وحكمها . فقال لهم : إنّها خديعة ، وإنّها كلمة حقّ يُراد بهما باطل ، وأمرهم بالصّبر ولو ساعةً واحدة ، فأبوْا ذلك ، وقالوا : أرسلْ إلى الأشتر فليعُدْ ، فأرسل إليه ، فقال : كيف أعود وقد لاحت أمارات النصر والظفر ! فقالوا له : ابعث إليه مرّةً أخرى ، فبعث إليه ، فأعاد الجواب بنحو قوله الأول وسأل أن يُمهل ساعةً من النهار ، فقالوا : إنّ بينك وبينه وصيّة ألّا يقبل ، فإن لم تبعث إليه مَنْ يعيدُه ، وإلّا قتلناك بسيوفنا كما قتلنا عثمان ، أو قبضنا عليك وأسلمناك إلى معاوية فعاد الرّسول إلى الأشتر ، فقال : أيحبّ أن تظفر أنت هاهنا وتكسر جنود الشام ويقتل أمير المؤمنين عليه السلام فى مَضْرِبِه ! قال : أوَ قد فعلوها ! لا بارك الله فيهم ! أبعد أن أخذت بمخنَق (٣) معاوية ، ورأى الموت عيانا أرجع ! ثم عاد فشتم أهلَ العراق وسبّهم ، وقال لهم وقالوا له ، ماهو منقول مشهور ، وقد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم .

فإذا كانت الحال وقعت هكذا ، فأىّ تقصير وقع من أمير المؤمنين عليه السلام ! وهل ينسَب المغلوب على أمره ، المقهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير !

وبهذا نجيب عن قولهم : إنّ التحكيم يدلّ على الشكّ فى أمره ، لأنّه إنّما يدلّ على ذلك لو ابتدأ هو به ؛ فأمّا إذادعاه إلى ذلك غيرُه ، واستجاب إليه أصحابُه ، فمنعهم وأمرهم

---

(١) سورة النساء ٣٥ .
(٢) سورة المائدة ٩٥ .
(٣) المخنق : موضع الخنق من العنق .

أن يمرّوا على وتيرتهم وشأنهم ، فلم يفعلوا ، وبيّن لهم أنها مكيدة فلم يتبيّنوا ، وخاف أن يقتَل أو يسلّم إلى عدوّه ، فإنه لا يدلّ تحكيمهُ على شكّه ؛ بل يدلّ على أنه قد دفع بذلك ضرراً عظيماً عن نفسه ، ورجا أن يحكم الحكمان بالكتاب ؛ فتزول الشبهة عمّن طلب التحكيم من أصحابه .

وأمّا تحكيمه عمراً مع ظهور فسقه ، فإنّه لم يرض به ، وإنما رضيَ به محالفةً ؛ وكرهه هو فلم يقبل منه . وقد قيل : إنّه أجاب ابن عباس رحمه الله عن هذا ، فقال للخوارج : أليس قد قال الله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [1] ! أرأيتم لو كانت المرأة يهودية فبعثت حكماً من أهلها ، أكنّا نسخط ذلك !

وأما أبو موسى فقد كرهه أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وأراد أن يجعل بدله عبد الله ابن عبّاس ، فقال أصحابه : لا يكون الحكمان من مُضر ، فقال : فالأشتر . فقالوا : وهل أضرم النّار إلّا الأشتر ! وهل حرّ ما ترى إلّا حكومة الأشتر ! ولكن أبا موسى ، فأباه فلم يقبلوا منه ، وأثنوا عليه ، وقالوا : لا نرضى إلّا به ؛ فحكّمه على مضض .

* * *

ومنها قولهم : ترك الرأى لمّا دعاه العبّاس وقتَ وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله إلى البيعة ، وقال له : امْدُدْ يدَك أبايعْك ، فيقول النّاس : عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله بايعَ ابنَ عمّه ، فلا يختلف عليك اثنان ؛ فلم يفعل ، وقال : وهل يطمع فيها طامع غيرى ! فما راعه إلا الضّوضاء والّلغط فى باب الدار ، يقولون : قد بويع أبو بكر ابن أبى قُحافة .

الجواب : إنّ صوابَ الرأى وفساده فيما يرجع إلى مثل هذه الواقعة ، يستندان إلى

---

(١) سورة النساء ٣٥ .

ما قد كان غلب على الظنّ ، ولا ريب أنه عليه السلام لم يغلبْ على ظنه أنّ أحداً يستأثر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهدّها له رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وما توهّم إلا أنه ينتظر ويرتقب خروجَه من البيت وحضوره ، ولعلّه قد كان يخطر له أنه إمّا أن يكون هو الخليفة أو يشاوَر في الخلافة إلى مَنْ يفوض . وما كان يتوهمّ أنّه يجرى الأمر على ما جرى من الفلتة عند ثوران تلك الفتنة ، ولا يشاوَر هو ولاَ العبّاس ولا أحدٌ من بنى هاشم ، وإنما كان يكون تدبيره فاسداً لو كان يحاذِرُ خروجَ الأمر عنه ، ويتوهمّ ذلك ، ويغلِب على ظنّه إن لم يبادر تَعصيه بالبيعة للمعجّلة فى الدار من وراء الأبواب والأغلاق ، وإلاّ فاته ، ثم يهمل ذلك ولا يفعله وقد صرح هو بما عنده ، فقال : وهل يطمع فيها طامعٌ غيرى ؟ ثم قال : إنى أكره البيعة ها هنا وأحبّ أن أصْحِر[1] بها ؛ فبين أنه يستهجن أن يبايع سرًّا خلف الحُجُب والجدران ، ويحب أن يبايع جَهْرةً بمحضَر من الناس كما قال ، حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبايعهم فى داره ، فقال : لا ، بل فى المسجد ، ولا يعلم ولا خطر له ما فى ضمير الأيام ، وما يُحدث الوقتُ من وقوع ما لا يتوهمّ العقلاء وأرباب الأفكار وقوعه .

***

ومنها قولهم : إنّه قصّر فى طلب الخلافة عند بيعة أبى بكر ، وقد كان اجتمع له من بنى هاشم وبنى أميّة وغيرهم من أفناء الناس مَنْ يتمكّن بهم من المنازعة وطلب الخلافة ، فقصّر عن ذلك ، لا جبناً ، لأنه كان أشجع البشر ، ولكن قصور تدبير وضعف رأى ، ولهذا أكفرته الكامليّة[2] وأ كفرت الصحابة ، فقالوا : كفرت الصحابة لتركهم بيعتَه ، وكفر هو بترك المنازعة لهم !

(١) أصحر بالأمر : أظهره .

(٢) الكاملية : أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبى كامل ؛ وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة على ، وكفر على بترك قتالهم ؛ وكان يلزمه قتالهم كما لزم قتال أصحاب صفين . الفرق بين الفرق ٣٩ .

والجواب : أمّا على مذهبنا ، فإنّه لم يكن عليه السلام منصوصاً عليه ، وإنّما كان يدّعيها بالأفضلية والقرابة والسابقة والجهاد ونحو ذلك من الخصائص ، فلمّا وقعت بيعةُ أبي بكر رأى هو عليّ عليه السلام أنّ الأصلح للإسلام تركَ النّزاع ، وأنّه يخاف من النّزاع حدوثَ فتنة تحلّ معاقد الملّة وتزعزع أركانها ، فحضر وبايع طوعاً، ووجب علينا بعد مبايعته ورضاه أن نرضى بمن رضيَ هو عليه السلام ، ونطيع مَن أطاعه ، لأنّه القدوة، وأفضل مَنْ ترك صلّى الله عليه وآله بعده .

وأما الإمامية ، فلهم عن ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم .

* * *

ومنها قولهم : إنّه قصّر في الرأي حيث دخل في الشّورى ، لأنه جعل نفسه بدخوله فيها نظيراً لعثمان وغيره من الخمسة ، وقد كان الله تعالى رفعه عنهم وعلى من كان قبلهم ، فوهن بذلك قدرُه ، وطأطأ من جلالته ، ألا ترى أنه يُستهجن ويقبُح من أبي حنيفة والشافعيّ رحمهما الله أن يجعلا أنفسهما نظراء لمن يدّعي من بدأ[1] طرفاً من الفقه، ويستهجَن ويقبح من سيبويه والأخفش أن يوازيا أنفسهما بمن يعلم أبواباً يسيرة من النحو !

الجواب : أنّه عليه السلام وإن كان أفضلَ مِنْ أصحاب الشورى ، فإنه كان يظنّ أنّ وليّ الأمر أحدهم بعد عمر ، لا يسير سيرة صالحة ، وأن تضطرب بعض أمور الإسلام ، وقد كان بنى على سيرة عمر ويحمدها ، فواجب عليه بمقتضى ظنّه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر فيه ، توقّعاً لأن يفضيَ الأمرُ إليه ، فيعمل بالكتاب والسنّة ، ويحيي معالمَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس اعتماد ما يقتضيه الشرع ممّا يوجب نقصاً في الرأي ، فلا تدبير أصحّ ولا أسدّ من تدبير الشرع .

* * *

ومنها قولهم : إنه ما أصاب حيث أقامَ بالمدينة وعثمان محصور ، وقد كان يجب في الرأي أن يخرج عنها بحيث لا تتورط بنو أمية به دمَ عثمان ، فإنه لو كان بعيداً عن المدينة لـكان من قذفهم إياه بذلك أبعدَ ، وعنه أنزه .

والجواب : أنه لم يكن يخطر له مع براءته من دم عثمان ، أن أهل الفساد من بني أمية يرمونه بأمره ، والغيب لا يعلمه إلا الله ، وكان يرى مقامه بالمدينة أدعى إلى انتصار عثمان على الحاصرين له ، فقد حضر هو بنفسه مرارا ، وطرد الناس عنه ، وأنفذ إليه ولديه وابن أخيه عبد الله ، ولولا حضور علي عليه السلام بالمدينة لقتل عثمان قبل أن يقتل بمدة ، وما تراخى أمره وتأخره قتله ، إلا لمراقبة الناس له حيث شاهدوه ينتصر له ، ويحامي عنه .

* * *

ومنها قولهم : كان يجب في مقتضى الرأي حيث قتل عثمان ، أن يغلق بابه ، ويمنع الناس من الدخول إليه ، فإن العرب كانت تضطرب اضطرابة ثم تئول إليه ، لأنه تعين للأمر بحكم الحال الحاضرة ، فلم يفعل ، وفتح بابه ، وترشح للأمر ، وبسط له يده ؛ فلذلك انتقضت عليه العرب من أقطارها .

والجواب : إنه عليه السلام كان يرى أن القيام بالأمر يومئذ فرضٌ عليه لا يجوز له الإخلال به ، لعدم مَنْ يصلح في ظنه للخلافة ، فما كان يجوز له أن يغلق بابه ويمتنع . وما الذي كان يومئذ أن يبايع الناسُ طلحة أو الزبير أو غيرهما ممن لا يراه أهلاً للأمر ؛ فقد كان عبدُ الله بن الزبير يومئذ يزعم أن عثمان عهد إليه بالخلافة وهو محصور . وكان مروان يطمع أن ينحاز إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة ، وله من بني أمية شيعة وأصحاب ، بشبهة أنه ابنُ عم عثمان ، وأنه كان يدبر أمر الخلافة على عهده . وكان معاوية يرجو أن ينال الخلافة ، لأنه من بني أمية وابن عم عثمان ، وأمير الشام عشرين سنة ، وقد كان قومٌ من بني أمية يتعصبون لأولاد عثمان المقتول ، ويرومون إعادة الخلافة فيهم

وما كان يسوغ لعليّ عليه السلام في الدين إذا طلبه المسلمون للخلافة أن يمتنع عنها ، ويعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء ، فذلك فتح بابه ، وامتنع امتناع مَنْ يحاول أن يعلم ما في قلوب الناس ؛ هل رغبتهم إليه حقيقة أم لا ! فلمّا رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه ؛ وقد قال في خطبته : « لولا حضورُ الحاضر ووجوب الحجّة بوجود الناصر . . . لألقيتُ حبلَها على غاربها ، ولسقيت آخرَها بكأس أولها[1] » ؛ وهذا تصريح بما قلناه .

* * *

ومنها قولهم : هلا إذْ ملك شريعة الفرات على معاوية ، بعد أنْ كان معاوية ملكها عليه ، ومنعه وأهلَ العراق منها ، مَنَع معاوية وأهل الشام منها ؛ فكان يأخذهم قبضاً بالأيدي ! فإنه لم يصبر على منعهم عن الماء ؛ بل فسح لهم في الورود ؛ وهذا يخالف ما يقتضيه تدبير الحرب .

الجواب ، أنه عليه السلام لم يكن يستحلّ ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعطش ؛ فإن الله تعالى ما أمر في أحد من العصاة الذين أباح دماءهم بذلك ؛ ولا فسح فيه في نحو القصاص أو حد الزاني المحصن أو قتل قاطع الطريق ، أو قتل البغاة والخوارج ، وما كان أمير المؤمنين ممّن يترك حكم الله وشريعته ، ويعتمد ما هو محرّم فيها لأجل الغلبة والقهر والظفَر بالعدوّ ، ولذلك لم يكن يستحلّ البيات[2] ولا الغدر ولا النكث .

وأيضا فمن الجائز أنْ يكونَ عليه السلام غلب على ظنه أنّ أهلَ الشام إن مُنعوا من الماء كان ذلك أدعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكرة على عسكره ، وأن يصموا فيهم السيوف ، فيأتوا عليهم ويكسِروهم بشدّة حَنَقهم وقوّة عزمهم إلى ورود الماء ، فإنّ ذلك من أشدّ الدّواعي إلى يستميت القوم ويستقتلوا . ومَن الذي يقف بين يديْ جيش عظيم عرَمرم حَنِق قد اشتدّ بهم العطش ، وهم يروْن الماء كبطون الحيّات ، لا يحول بينهم وبينه

(١) من الخطبة الشقشقية ؛ وقد تقدمت في الجزء الأول ص ١٥١ — ٢٠٣

(٢) يقال : بيت العدو ؛ إذا أوقع به ليلا .

إلا قوم مثلهم ، بل أقل منهم عِدّةً وأضعف عُدّة ، وقالك لما حال معاوية بين أهل العراق وبين الماء وقال : لأمنعنّهم وروده فأقتلهم بشِفار الظمأ ، قال له عمرو بن العاص : خلّ بين القوم وبين الماء ، فليسوا ممّن يرى الماء ويصبر عنه . فقال : لا والله لا أخلّي لهم عنه . فسفّه رأيه وقال : أتظنّ أنّ ابن أبي طالب وأهل العراق يموتون بإزائك عطشا ، والماء بمَقعد الأُزُر ، وسيوفهم في أيديهم ! فلجّ معاوية ، وقال : لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عثمان عطشا . فلما مسّ أهلَ العراق العطش ، أشار عليّ عليه السلام إلى الأشعث أن احمِل ، وإلى الأشتر أن احمل ، فحملا بمن معهما فضربا أهل الشام ضرباً أشاب الوليد ، وفرّ معاوية ومَنْ رأى رأيه وتابعه على قوله عن الماء كما تفرّ الغنمُ خالطَتْها السِّباع ، وكان قصارى أمره ، ومنتهى همّته أن يحفظ رأسه ، وينجو بنفسه . وملك أهلُ العراق عليهم الماء ودفعوهم عنه ، فصاروا في البرّ القفر ، وصار عليّ عليه السلام وأصحابه على شريعة الفرات ، مالكين لها ، فما الذي كان يؤمّن عليّاً عليه السلام لو أعطش القومَ أن يذوق هو وأصحابه منهم مثل ما أذاقوهم ! وهل بعد الموت بالعطش أمرٌ يخافه الإنسان ! وهل يبقى له ملجأ إلا السيف يحمل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما !

***

ومنها قولهم : أخطأ حيثُ محا اسمه بالخلافة من صحيفة الحكومة ، فإنّ ذلك مما وهّنه عند أهل العراق ، وقوّى الشبهة في نفوس أهل الشام .

والجواب ، أنه عليه السلام احتذى في ذلك — لمّا دعي إليه واقترحه الخصم عليه — فعلَ رسول الله صلى الله عليه وآله في صحيفة الحديبية ، حيث محا اسمه من النبوّة لمّا قال له سهيل بن عمرو : لو علمنا أنّك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حاربْناك ، ولا منعناك عن البيت ، وقد قال له صلى الله عليه وآله وهو يومئذ كاتب تلك الصحيفة : ستدعَى إلى مثلها فتجيب . وهذا من أعلام نبوّته صلوات الله عليه ، ومن دلائل صدقه ، ومثله جرى له حذْو القُذّة بالقذّة .

***

ومنها قولهم : إنه كان غيرَ مصيب في ترك الاحتراس ، فقد كان يعلم كثرة أعدائه ، ولم يكن يحترس منهم ؛ وكان يخرج ليلًا في قميص ورداء وحده ؛ حتى كمن له ابنُ ملجم في المسجد فقتله ، ولو كان احترس وحفِظ نفسَه ولم يخرج إلّا في جماعة . ولو خرج ليلاً كانت معه أضواء وشُرْطة ، لم يوصل إليه .

والجواب ، أنّ هذا إن كان قادحا في السياسة والتدبير ، فليكن قادحا في تدبير عمر وسياسته ؛ وهو عند الناس في الطبقة العليا في السّياسة وصحّة التدبير ، وليكن قادحا في تدبير معاوية ، فقد ضربه الخارجيّ بالسّيف ليلةَ ضرب أمير المؤمنين عليه السلام فجرحه ولم يأت على نفسه ، ومعاوية عند هؤلاء سديدُ التدبير؛ وليكن قادحاً في صحة تدبير رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقد كان يخرج وحده في المدينة ليلا ونهارا مع كثرة أعدائه ؛ وقد كان يأكل ما دُعِيَ إليه ولا يحترس ؛ حتى أكل من يهوديّة شاة مشويّة قد سمّتها فيها فمرض ، وخيف عليه التلف ، ولما برأ لم تزل تنتقض عليه حتى مات منها وقال عند موته : إنّي ميت من تلك الأُكلة ، ولم تكن العرب في ذلك الزمان تحترس ، ولا تعرف الغيلة والفَتْك ، وكان ذلك عندهم قبيحاً يعيَّر به فاعله ؛ لأن الشجاعة غير ذلك ، والغيلة فعل العَجَزة من الرجال ؛ ولأنّ عليا عليه السلام كانت هيبته قد تمكّنت في صدور الناس ، فلم يكن يظنّ أنّ أحدا يقدم عليه غيلة أو مبارزة في حرب ، فقد كان بلغ من الذّكر بالشجاعة مبلغا عظيماً لم يبلغه أحد من الناس ، لا مَنْ تقدّم ولا مَنْ تأخّر ، حتى كانت أبطال العرب تفزعُ باسمه ؛ ألاترى إلى عمر بن معد يكرب وهو شجاع العرب ، الذي تُضرب به الأمثال ، كتب إليه عمر بن الخطاب في أمر أنكره عليه ، وغدر تخوّفه منه : أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه ، لأبعثنّ إليك رجلا تستصغرُ معه نفسَك ، يضع سيفَه على هامَتك فيخرجه من بين فخذيك ! فقال عمرو لما وقف على الكتاب : هدّدني بعليّ والله ! ولهذا قال شبيب بن بجرة لابن مُلجم ، لما رآه يشدّ الحرير على بطنه وصدره : ويلك ! ما تريد

أن تصنع! قال: أقتل عليا، قال هَبِلتك الهبُول، لقد جئت شيئا إدًّا! كيف تقدر على ذلك؟! فاستبعد أن يتمّ لابن مُلجم ما عزم عليه، ورآه مراماً وعرا. والأمر في هذا وأمثاله مسند إلى غَلَبات الظُّنون، فمن غلبت على ظنّه السلامة مع الاسترسال لم يجب عليه الاحتراس، وإنما يجب الاحتراس على مَنْ يغلب على ظنّه العطب إن لم يحترس.

فقد بان بما أوضحناه فسادُ قول من قال: إنّ تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحة، وبان أنّه أصحّ الناس تدبيرا وأحسنهم سياسة، وإنّما الهوى والعصبية لا حيلة فيهما!

(١٩٤)

الأصـل :

ومن كلام له عليه السلام :

أيُّها النَّاسُ، لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ.

أيُّها النَّاسُ ؛ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ.

أيُّها النَّاسُ ؛ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ!

* * *

الشّـرح :

الاستيحاش : ضدّ الاستئناس ، وكثيراً ما يحدثه التوحّد وعدم الرفيق ؛ فنهى عليه السلام عن الاستيحاش في طريق الهدى لأجل قلّة أهله ، فإنّ المهتدى ينبغى أن يأنس بالهداية ، فلا وحشة مع الحقّ .

وعنى بالمائدة : الدّنيا ، لذّتها قليلة، ونغصتها كثيرة ، والوجود فيها زمان قصير جداً ، والعدم عنها زمان طويل جدا .

ثم قال : ليست العقوبة لمن اجترم ذلك الجرم بعينه ، بل لمن اجترمه ومَنْ رضى به، وإن لم يباشره بنفسه ، فإنّ عاقر ناقة صالح إنّما كان إنسانا واحدا ، فعمّ الله ثمود بالسخط

لما كانوا راضين بذلك الفعل كلّهم ، واسم «كان» مضمر فيها ، أي ما كان الاعتقام منهم إلا كذا .

وخارت أرضهم بالخسفة : صوّتت كما يخور الثور ، وشبّه عليه السلام ذلك بصوت السكّة المحماة في الأرض الخوّارة ، وهي الليّنة ، وإنما جعلها محماة لتكون أبلغ في ذهابها في الأرض . ومن كلامه عليه السلام يوم خيبر ، يقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد بعثه بالراية : أكون في أمرك كالسكّة المحماة في الأرض ، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ فقال له : بل يرى الشاهد ما لا يرى الغائب .

وقال له أيضاً هذه اللفظة لمّا بعثه في شأن مارية القبطية ، وما كانت اتُّهمت به من أمر الأسود القبطيّ ، ولهذا علّة في العلم الطبيعي ، وذلك أن السكّة المحماة تخرق الأرض بشيئين : أحدهما تحدُّد رأسها ، والثاني حرارتها ، فإنّ الجسم المحدّد الحارّ إذا اعتُمِد عليه في الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدد على النفوذ بتحليلها ما تلاقي من صلابة الأرض ، لأنّ شأن الحرارة التحليل ، فيكون غوص ذلك الجسم المحدّد في الأرض أوحى وأسهل .

والتيه : المفازة يتحيّر سالكها .

* * *

[قصة صالح وثمود]

قال المفسّرون : إن عاداً لما أهلكت عَمَرتْ ثمودُ بلادها ، وخلفوهم في الأرض ، وكثروا وعُمِّروا أعماراً طوالاً ، حتّى إنّ الرّجُل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته ، فنحتوا البيوت في الجبال ، وكانوا في سَعة ورخاء من العيش فعتوا على الله ، وأفسدوا في الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله إليهم صالحاً ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم

شبيا ، فما آمن به إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال : أية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا — في يوم معلوم لهم من السنة — فتدعو إلهك وندعو إلهنا ، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعتنا .

قال : نعم ، فخرج معهم ، ودعوا أوثانهم ، وسألوها الاستجابة فلم تجب ، فقال سيدهم جندع بن عمرو — وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يسمونها الكاثبة : أخرج لنا في هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء — والمخترجة : التي شاكلت البخت[1] — . فإن فعلت صدقناك وأجبناك .

فأخذ عليهم المواثيق ؛ لئن فعلتُ ذلك لتؤمنُنّ ولتصدقُنّ ؟ قالوا : نعم ، فصلّى ودعا ربّه ، فتمخضت الصخرة تمخضَ النَّتُوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عُشَراء[2] جوفاء وبراء كما وصفوا ، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله ، وعظماؤهم ينظرون . ثم نُتِجت ولدا مثلها في العظم ، فآمن به جندع ورهطٌ من قومه ، ومنع أعقابهم ناس من رءوسهم أن يؤمنوا ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترد غِبًّا ؛ فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر ، فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها ثم تتفحّج ؛ فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم ، فيشربون ويدّخرون ، وإذا وقع الحرّ تصيّفت بظهر الوادى ، فتهرُب منها أنعامهم ، فتهبط إلى بطنه ، وإذا وقع البرد تشتّت ببطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم ؛ وزيّنت عقرها لهم امرأتان : عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار ؛ لما أضرّت به من مواشيهما ، وكانتا كثيرتي المواشي ، فعقروها ؛ عقرها قدار الأحمر ، واقتسموا لحمها وطبخوه .

---

(١) البخت : الإبل الخراسانية .
(٢) العشراء من النوق : التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، وجمعها عشار ، بكسر العين .

فانطلق سَقْبها[١] حتى رقى جبلا اسمه قارة ، فرغا ثلاثا ؛ وكان صالح قال لهم : أدركوا الفَصِيل عسى أن يُرْفَع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه ؛ وانفجّت الصخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال لهم صالح : تصبحون غدا ووجوهكم مصفرّة ، وبعد غدٍ وجوهكم محمرّة ، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة ؛ ثم يغشاكم العذاب .

فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه ، فأنجاه الله سبحانه إلى أرض فلسطين ، فلمّا كان اليوم الرابع ، وارتفعت الضحوة ، تحنّطوا بالصَّبِر ، وتكفّنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء وخسف شديد وزلزال ، فتقطعت قلوبهم فهلكوا .

وقد جاء في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ بالحِجْر في غزوة تَبُوك ، فقال لأصحابه : لا يدخلنّ أحدٌ منكم القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلاّ أن تمرّوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

وروى المحدّثون أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام : أتدري مَن أشقى الأولين ؟ قال : نعم ، عاقر ناقة صالح ، قال : أفتدري مَن أشقى الآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : مَنْ يضربك على هذه ، حتى تخضب هذه .

---

(١) السقب : ولد الناقة ، خاص بالذكر

(١٩٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

روى عنه أنه قاله عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام ، كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وسلّم عند قبره .

السّلامُ عَلَيْكَ يارَسُولَ اللهِ عَنّي ، وَعَنِ ابْنَتِكَ النّازِلَةِ فِي جِوارِكَ ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحاقِ بِكَ ! قَلَّ يارَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي ، وَرَقَّ عَنْها تَجَلُّدِي ، إِلَّا أَنَّ فِي التَّأَسّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ ، وَفادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ . فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ ، وَفاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ ، فَإِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ! فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ !

أَمّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ ، وَأَمّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ ، إِلَى أَنْ يَخْتارَ اللهُ لِي دارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِها مُقِيمٌ . وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِها ، فَأَحْفِها السُّؤالَ ، وَاسْتَخْبِرْها الْحالَ ؛ هَذا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ . وَالسَّلامُ عَلَيْكُما سَلامَ مُوَدِّعٍ ، لا قالٍ وَلا سَئِمٍ ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلا عَنْ مَلالَةٍ ، وَإِنْ أُقِمْ فَلا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِما وَعَدَ اللهُ الصّابِرِينَ !

* * *

الشَّرْحُ

أما قول الرضي رحمه الله : « عند دفن سيدة النساء » ، فلأنه قد تواتر الخبر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « فاطمة سيدة نساء العالمين » إما هذا اللفظ بعينه ، أو لفظ يؤدي هذا

الحق ، روى أنه قال وقد رآها تبكى عند موته : « ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة ! » . وروى أنه قال : « سادات نساء العالمين أربع : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » .

قوله عليه السلام : « وسريعة اللحاق بك » جاء فى الحديث : أنه ، آها تبكى عند موته فأسرّ إليها : « أنتِ أسرع أهلى لحوقا بى » ، فضحكت .

قوله : « عن صفيّتك » أجلّه صلى الله عليه وآله عن أن يقول : « عن ابنتك » ، فقال : « صفيّتك » ، وهذا من لطيف عبارته ، ومحاسن كنايته ، يقول عليه السلام : ضَعُفَ جلدى وصَبْرى عن فراقها ؛ لكنى أتأسّى بفراقى لك فأقول : كلُّ عظيم بعد فراقك جَلَل ، وكلُّ خطب بعد موتك يسير .

ثم ذكر حاله معه وقتَ انتقاله صلواتُ الله عليه إلى جوار ربّه ، فقال : لقد وسّدْتُك فى ملحودة قبرك ، أى فى الجهة المشقوقة من قبرك ، واللَّحْد : الشَّقّ فى جانب القبر ، وجاء بضمّ اللّام فى لمقبر مشهورة .

قال : « وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك » ، يروى أنه صلى الله عليه وآله قذف دما يسيرا وقت موته . ومَنْ قال بهذا القول زعم أنّ مرضه كان ذات الجنب ، وأنّ القُرحة التى كانت فى الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت فى تلك الحال ، وكانت فيها نفسُه صلّى الله عليه وآله . وذهبَ قومٌ إلى أنّ مرضه إنما كان الحمّى والسرسام الحارّ ، وأنّ أهل داره ظنوا أنّ به ذاتَ الجنب فلدُّوه وهو مغمًى عليه ، وكانت العرب تداوى باللَّدود[1] مَنْ به ذات الجنب ، فلما أفاق علم أنهم قد لدُّوه ، فقال : « لم يكن الله ليسلّطها علىّ ، لُدّوا كلّ من فى الدار » ، فجعل بعضهم يَلُدّ بعضا .

---

(١) فى اللسان عن الفراء : « اللدأن يؤخذ بلسان الصبى فيمد الى أحد شقيه ، ويوجر فى الآخر الدواء فى الصدف . بين اللسان وبين الشدق ؛ وفى الحديث أنه لد فى مرضه » .

واحتجّ الذاهبون إلى أن مرضه كان ذات الجنب بما روى من انتصابه وتعذّر الاضطجاع والنوم عليه ، قال سلمان الفارسيّ : دخلتُ عليه صبيحةَ يوم قبل اليوم الذى مات فيه ، فقال لى : يا سلمان ، ألا تسألُ عمّا كابدتُه الليلةَ من الألم والسهر أنا وعليّ ! فقلت : يا رسول الله ، ألا أسهرُ الليلةَ معك بَدَله ؟ فقال : لا هو أحقّ بذلك منك .

* * *

وزعم آخرون أنّ مرضه كان أثراً لأكلة السمّ التى أكلها عليه السلام ، واحتجّوا بقوله صلى الله عليه وآله : « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى ؛ فهذا أوانُ قطعت أبهَرى » [1] .

ومَن لم يذهبْ إلى ذات الجنب ، فأوّلوا قولَ عليّ عليه السلام : « فاضت بين نحرى وصدرى نفسُك » فقالوا : أراد بذلك آخر الأنفاس التى يخرجُها الميّت ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنها ، ولا بدّ لكل ميّت من نفخةٍ تكون آخر حركاته .

ويقول قوم : إنّها الروح ، وعبّر عليّ عليه السلام عنها بالنفس ، لمّا كانت العرب لا ترى بين الرّوح والنفس فَرْقاً .

واعلم أن الأخبار مختلفة فى هذا المعنى ، فقد روى كثير من المحدّثين عن عائشة أنها قالت : توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله بين سَحْرِى [2] ونحرى .

وروى كثير منهم هذا اللفظ عن عليّ عليه السلام ، أنه قال عن نفسه ، وقال فى رواية أخرى : «ففاضت نفسُه فى يدى ، فأمررتُها على وجهى » .

---

(١) الأبهر : عرق إذا انقطع مات صاحبه ، وهما أبهران يخرجان من القلب ، ثم يتشعب منهما سائر الشرايين .
(٢) السحر هنا : الرئة .

والله أعلم بحقيقة هذه الحال ، ولا يبعد عندي أن يصدُق الخبران معاً ، بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وقت الوفاة مستنداً إلى عليّ وعائشة جميعاً ، فقد وقع الاتفاق على أنه مات وهو حاضر لموته ، وهو الذي كان يقلبه بعد موته ، وهو الذي كان يعلّله ليالِيَ مرضه ، فيجوز أن يكون مستنداً إلى زوجته وابن عمّه ، ومثل هذا لا يبعد وقوعه في زماننا هذا ، فكيف في ذلك الزمان الذي كان النساء فيه والرجال مختلطين ، لا يستتر البعض عن البعض .

فإن قلت . فكيف نعمل بآية الحجاب ، وما صحّ من استتار أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله عن الناس بعد نزولها ؟

قلت : قد وقع اتفاق المحدثين كلّهم على أنّ العباس كان ملازماً الرسول صلى الله عليه وآله أيامَ مرضه في بيت عائشة ، وهذا لا ينكره أحدٌ ، فعلى القاعدة التي كان العباس ملازمه صلى الله عليه وآله كان عليّ عليه السلام ملازمه ، وذلك يكون بأحد الأمرين : إمّا بأن نساءه لا يستترن من العباس وعليّ لكونهما أهلَ الرجل وجزءاً منه ، أو لعلّ النساء كن يحضرن متأخّرتهنّ ، ويخالطن الرجال فلا يرون وجوههنّ ، وما كانت عائشة وحدَها في البيت عند موته ، بل كان نساؤه كلّهن في البيت ، وكانت ابنته فاطمة عند رأسه صلى الله عليه وآله .

فأما حديثُ مرضه صلوات الله عليه ووفاته ، فقد ذكرناه فيما تقدم .

قوله : « إنا لله » إلى آخره ؛ أي عبيده ، كما تقول : هذا الشيء لزيد ، أي ملكه . ثم عقّب الاعترافَ بالمَلَكيّة بالإقرار بالرّجعة والبعث ، وهذه الكلمة تقال عند المصيبة ، كما أدّب الله تعالى خَلقَه وعباده .

والوديعة والرهينة ، عبارة عن فاطمة ، ومن هذا الموضع أخذ ابن ثوابة الكاتب قولَه عن قَطْر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ، لما حملتْ من مصر إلى المعتضد أحمد بن

طلحة بن المتوكل : « وقد وصلت الوديعة سالمة ، ولله المحمود ، وكيف يوصى الناظر بنوره أم كيف يحضّ القلب على حفظ سروره » !

وأخذ الصابى هذه اللفظة أيضا ، فكتب عن عزّ الدولة بختيار بن بويه ، إلى عدّة الدّولة أبى تغلب بن حمدان ، وقد نقل إليه ابنته : « قد وجّهت الوديعة ياسيّدى ، وإنما تقلب من وطن إلى سكن ، ومن مغرس إلى مغرس ، ومن مأوى برّ واستعطاف ، إلى مثوى كرامة وألطاف » .

فأما الرّهينة فهى المرتهنة ، يقال للمذكر : هذا رهين عندى على كذا ، وللأنثى : هذه رهينة عندى على كذا ، كأنها عليها السلام كانت عنده عوضاً من رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله ، كما تكون الرهينة عوضاً عن الأمر الذى أخذت رهينة عليه

ثم ذكر عليه السلام أنّ حزنه دائم ، وأنه يسهر ليله ولاينام إلى أن يلتحق برسول الله صلى الله عليه وآله ويجاوره فى الدار الآخرة ، وهذا من باب المبالغة ، كما يبالغ الخطباء والكتاب والشعراء فى المعانى ، لأنه عليه السلام ما سهر منذ ماتت فاطمة ودام سهره إلى أن قتل عليه السلام ، وإنما سهر ليلة أوشهرا أوسنة ، ثم استمرّ مريره ، وارعوى رسنُه ، فأمّا الحزن فإنه لم يزل حزينا إذا ذكرت فاطمة ، هكذا وردت الرواية عنه .

قوله عليه السلام : « وستنبئك ابنتُك » ، أى ستعلمك .

فأحفها السؤال ، أى استقص فى مسألتها ، واستخبرها الحال ، أحفيت إحفاء فى السؤال : استقصيت ، وكذلك فى الحجاج والمنازعة ، قال الحارث بن حلّزة :

إنّ إخواننا الأراقم يَغلُو   ن علينا فى قيلهم إحفاء(١)

ورجل حفىّ ، أى مستقص فى السؤال .

---

(١) المعلقات بشرح التبريزى ٢٤٠ . يغلون : أى يرتفعون . والإحفاء : الاستقصاء .

واستخبرْها الحال ، أى عن الحال ، لحذف الجار ، كقولك : اختِرت الرجال زيداً أى من الرجال ، أى سَلْها عمّا جرى بعدك من الاستبداد بعقد الأمر دون مشاورتنا ولا يدلّ هذا على وجود النصّ ، لأنه يجوز أن تكون الشكوى والتألّم من اطّراحهم وترك إدخالهم فى المشاورة ، فإنّ ذلك مما تكرهه النفوس وتتألّم منه ، ولهذا الشاعر قوماً ، فقال :

وَيُقْضَى الأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ(١)

قوله : « هذا ولم يَطُل العهد ، ولم يَخْلُق الذّكر » ، أى لم ينس .

فإن قلت : فما هذا الأمر الذى لم ينسَ ولم يخلُق ، إن لم يكن هناك نصّ ؟

قلت : قوله صلى الله عليه وآله : « إنّى مُخلّف فيكم الثّقلين » ، وقوله : « اللّهمّ أدِرِ الحقّ معه حيث دار » ، وأمثال ذلك من النصوص الدالة على تعظيمه وتبجيله ومنزلته فى الإسلام ، فهو عليه السلام كان يريد أن يؤخّر عَقْد البيعة إلى أن يحضر ويُستشار ، ويقع الوفاق بينه وبينهم ، على أن يكون العَقْد لواحد من المسلمين بموجبه ، إمّا له أو لأبى بكر ، أو لغيرها ، ولم يكن ليليقَ أن يبرم الأمروهو غير حاضر له ، مع جلالته فى الإسلام،وعظيم أثره، وما ورد فى حقّه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله،فهذا هو الذى كان يذكره عليه السلام ، ومنه كان يتألّم ويُطيل الشّكوى ،وكان ذلك فى موضعه. وما أنكر إلّا منكراً . فأمّا النصّ فإنّه لم يذكره عليه السلام ، ولا احتجّ به ، ولما طال الزمان صَفَح عن ذلك الاستبداد الّذى وقع منهم ، وحضر عندهم فبايعهم ، وزال ما كان فى نفسه .

---

(١) لجرير ، من قصيدة له فى ديوانه ١٦٠ – ١٦٦ ، يهجو فيها التيم ، قبيل عمر بن لجأ . وشهود ، أى حاضرون .

فإن قلت : فهل كان يسوغُ لأبى بكر ، وقد رأى وثوبَ الأنصار على الأمر أن يؤخِّره إلى أن يخرج عليه السلام ويحضر المشورة !

قلت : إنّه لم يَلُمْ أبا بكرٍ بعينه ، وإنّما تألّم من استبداد الصّحابة بالأمر دون حضوره ومشاورته . ويجوز أن يكون أكثر تألّمه وعتابه مصروفاً إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبداد ، والتغلّب .

• • •

[ما رواه أبو حيان فى حديث السقيفة]

وروى القاضى أبو حامد أحمد بن بشير المرورّوذىّ العامرىّ فيما حكاه عنه أبو حيّان التوحيدىّ ، قال أبو حيّان : سمرنا عند القاضى أبى حامد ليلةً ببغداد بدار ابن جيشان ، فى شارع المادِيان ، فتصرّف الحديث بنا كلَّ متصرّف ، وكان والله مِصْقعاً[1] مِزْيلاً مِعْلطاً[2] مِزْيز[3] الرواية ، لطيف الدّراية [له] فى كلّ جوٍّ متنفَّس ، وفى كل نار مقتبَس ، فجرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فركب كلٌّ منّا فنّاً ، وقال قولاً ، وعرّض بشىء ، ونزع إلى مذهب ، فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر إلى علىّ ، وجواب علىّ له ومبايعته إيّاه عَقِيب تلك الرسالة ؟ فقالت الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من دُرَر الحِقاق المصونة[4] ، ومخبّآت الصناديق فى الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتُها إلّا المهلّبى[5] فى وزارته ، فكتبها عنّى فى خلوة بيده ، وقال : لا أعرف فى الأرض رسالةً

(١) المِصقع : الخطيب المتصرف .
(٢) يقال : رجل مزيل مِعلط : أى فائق رائق .
(٣) فى صبح الأعشى : « عزيز » .
(٤) صبح الأعشى : « من بنات الحقائق » . والحقائق : جمع حق ، بالضم ؛ وهو الوعاء .
(٥) صبح الأعشى : « لأبى محمد المهلبى » .

أعقل منها، ولا أبين، وإنّها لتدلّ على عِلم وحُكْم، وفصاحة وفقاهة، في دين ودهاء وبعد غَوْر، وشدّة غَوْص.

فقال له واحدٌ من القوم: أيها القاضي، فلو أتممت المِنّة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك؛ فنحنُ أوْعَى لها من المهارِيّ؛ وأوجب ذِماماً عليك!

فقال [١]: هـذه الرسالة رواها عيسى بن دأب، عن صالح بن كيسان، عن هشام بن عُروة، عن أبيه عُروة بن الزبير، عن أبي عبيدة بن الجراح [١].

قال أبو عبيدة: لما استقامت الخلافة لأبي بكر بين المهاجرين والأنصار، ولحظ بعين الوقار والهيبة ـ بعد هَنَةٍ [٢] كادَ الشيطان بها يُسَرّ فدفع الله شرّها، وأدحض عسرها. فركد كَيْدها، وتيسّر خيرها، وقصَم ظهر النفاق والفسق بين أهلها ـ بَلَغَ أبا بكر عن عليّ عليه السلام تلكّؤٌ وشِماس، وتَهَمْهُمٌ [٣] ونِفاس، فكره أن يتمادى الحال وتبدُوَ له العورة، وتنفرج [٤] ذاتُ البين، ويصيرَ ذلك دريئة لجاهـل مغرور، أو عاقل ذي دَهاء، أو صاحب سلامة ضعيف القلب، خوّارِ العنان؛ دعاني في خلوة بحضرته، وعنده عمر وحدَه ـ وكان عمر قبساً له وظهيراً معه، يستضيء بناره، ويستملي من لسانه ـ فقال لي:

يا أبا عبيدة، ما أيْمَنَ ناصيتك، وأبيَنَ الخيرَ بين عارضَيْك! لقد كنتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحلّ المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة»، وطالما أعزّ الله الإسلام بك، وأصلح ثَلْمه على يديك، ولم تزلْ للدّين ناصرا وللمؤمنين رَوْحا، ولأهلك رُكنا، ولإخوانك مَرَدّا! قد أردتُك

(١–١) في صبح الأعشى: «حدثنا الخزاعي بمكة، عن أبي ميسرة، قال: حدثنا محمد بن أبي مليح، عن عيسى بن دأب للتاج، قال: سمعت مولاي أبا عبيد يقول: ...».

(٢) صبح الأعشى: «بعد فتنة».

(٣) همهم الرجل: تكلم كلاماً خفيا، والنفاس: مصدر نافس؛ أي رغب في الشيء. وفي نهاية الأرب وصبح الأعشى: «تهمم».

(٤) نهاية الأرب: «وتفرق».

لأمر لَهُ ما بعده ؛ خطرُه (١) مَخوف ، وصلاحه معروف، ولئن لم يندَمِل جرحُه بِيَسارك (٢) ورِفْقِك ، ولم تُجَبْ حيّته (٣) بُرقيتك ، لقد وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعدك إلى ماهو أمرّ من ذلك وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على يدك (٤) . فتأتّ (٥) له يا أبا عبيدة ، وتلطّف فيه ، وانصح لله ولرسوله ؛ ولهذه العصابة ، غير آلٍ جهداً ، ولا قالٍ حمداً ؛ والله كالئك وناصرك ، وهاديك ومبصّرك .

امض إلى عليّ ، واخفض جناحك له ، واغضُض من صوتك عنده ؛ واعلم أنه سُلالة أبي طالب ؛ ومكانه ممّن فقدناه بالأمس مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبرّ مفرقة ، والجوّ أكْلَف ، والليل أغْلَف ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصّعود متعذّر ، والهبوط متعسّر ، والحقّ عَطوف رءوف ، والباطل نَسوف عصوف ؛ والعُجْب مقدحة الشّرّ ، والضِّغن رائد البوار ، والتّعريض شِجار (٦) الفتنة ، والقِحة مفتاح العداوة ، والشيطان متّكئ على شماله ، باسط ليمينه ، نافجٌ (٧) حِضْنَيه لأهله : ينتظر الشّتات والفرقة ، ويدبّ بين الأمة بالشّحناء والعداوة ، (٨ عناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوِسُ بالفُجور ٨) ؛ ويدلي بالغرور ، ويمنّي أهل الشرور ، ويوحي إلى أوليائه بالباطل ، دأباً له مذ كان على عهد أبينا

---

(١) د : « خطر مخوف » . صبح الأعشى : « لأمر خطر مخوف » .

(٢) اليسار : الميل الذى يسبر به الجرح . وفى صبح الأعشى : « بيسارك » .

(٣) الحب : القطع عامة .

(٤) صبح الأعشى : « بيديك » .

(٥) تأت : تهيأ للأمر برفق وحسن حيلة . ، وفى ب : « تأن » .

(٦) الشجار : مركب أصغر من الهودج ، ضربه مثلا .

(٧) فى اللسان : « كل ما ارتفع فقد نفج وانتفج ونفج ، ونفجه هو . . . ونفجت الشىء فانتفج أى رفعته وعظمته . . . وفى حديث على : « نافجا حضنيه » كنى به عن التعاظم والتكبر والخيلاء . والحضن : الجنب ؛ وهما حضنان .

(٨ـ٨) صبح الأعشى : « عنادا لله عز وجل أولا ، ولآدم ثانيا ، ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولدينه ثالثا ؛ يوسوس بالفجور » .

آدم ، وعادة منه منذ أهانه الله فى سالف الدّهر ؛ لايُنْجَى [١] منه إلا بعضّ الناجذ على الحقّ ، وغضّ الطرف عن الباطل ، ووطء هامة عدوّ الله والدّين : بالأشدّ فالأشدّ ، والأجدّ فالأجدّ ، وإسلام النّفس لله فيا حاز رضاه ، وجنّب سخطه .

ولا بدّ من قولٍ ينفع إذ قد أضرّ السكوت وحيف غِبُّه ، ولقد أرشدك من أفاء ضالّتك ، وصافاك مَنْ أحيا مودّته لك بعتابك ، وأراد الخيرَ بك مَنْ آثر البُقيا معك .

ما هـذا الذى تسوّل لك نفسُك ، ويَدْوَى [٢] به قلبُك ، ويلتوى عليه رأيُك ، ويتخاوص [٣] دونه طرفك ، ويستشرى به ضغنك ، ويترادُّ معه نَفَسُك ، وتكثر لأجله صُعَداؤك ، ولا يفيض به لسانُك ! أعُجمة بعد إفصاح ؛ أَلَبْساً بعد إيضاح أدِيناً غير دين الله ! أخُلُقاً غير خُلُق القرآن ! أهَدْياً غير هدى محمد أمثلى يُمشَى له الضّراء ويدَبّ له الخَمَر [٤] أم مِثلُك يَغَصّ عليه الفضاء ، ويكسف فى عينه القمر ! ما هـذه القَعْقعة بالشّنان [٥] ، والوَعْوعة باللّسان ! إنك لجِدّ عارف [٦] باستجابتنا لله ولرسوله ، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبّتنا ، هجرةً إلى الله ونُصرةً لدينه ، فى زمان أنت منه فى كِنّ الصّبا وخِدْر الغَرارة غافل ، تُشَبّب وتُربّب . لا تعِى مايُشاد ويراد ، ولا تحصّل مايساق ويقـاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك ، وسجايا الفتيان أشكالك ، حتى بلغت إلى غايتك هذه التى إليها أجريت [٧] ، وعندها حُطّ رحلك ، غير مجهولِ القَدْر

---

(١) صبح الأعشى : « لا منجى » .
(٢) دوى الصدر يدوى ؛ من باب علم : ضغن .
(٣) تخاوص : غض بصره من الأمر شيئا .
(٤) مثل يضرب للرجل يختل صاحبه ويمكر به . ويقال : ما واراك من أرض فهو الضراء ، وماواراك من شجر فهو الخمر .
(٥) يقال فلان لايقعقع له بالشنان ، أى لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع .
(٦) صبح الأعشى : « إنك والله » .
(٧) صبح الأعشى : « التى إليها عدل بك » .

ولا مجحود الفضل ، ونحن في أثناء ذلك نعانى أهوالًا تزيل الرواسى ، ونقاسى أهوالًا تُشيب النواصى ؛ خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرّع صابها ، ونُشرِج[1] عيابها ، ونُحكِم آساسها ، ونبرم أمراسها ، والعيون تحدّج[2] بالحسد ، والأنوف تعطس بالكِبْر ، والصُّدُور تستعِر بالغَيْظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والأسنة[3] تشحذ بالمكر ، والأرض تميدُ بالخوف ، لا ننتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع في نَحْر أمر إلّا بعد أن نحسُوَ الموت دونه ، ولا نبلغ إلى شىء إلّا بعد تجرّع العذاب قبله ، ولا نقوِّم منآداً إلّا بعد اليأس من الحياة عنده ، فادين في كلّ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأمّ ، والخال والعمّ ، والمال والنَّشَب ، والسَّبَد[4] واللَّبَد ، والهِلّة والبِلّة[5] ، بطيب أنفُس وقُرّة أعين ، ورُحب أعطان ، وثَبَات عزائم ، وصحّة عُقول ، وطلاقة أوجُه ، وذلاقة ألسن . هذا إلى خبيئات أسرار ، ومكنونات أخبار ؛ كنت عنها غافلًا ، ولو لا سنّك لم تكُ عن شىء منها ناكلا . كيف وفؤادك مشهوم[6] ، وعودك معجوم ؛ وغيبك مخبور ، والخير منك كثير ! فالآن قد بلغ الله بك ، وأرهص[7] الخيرَ لك ، [وجعل مرادك بين يديك][8] ، فاسمع ما أقول لك[9] ، واقبل مايعودُ قبوله عليك[10] ، ودع التعبّس ، والتعبّس[11]

---

(١) أشرج العيبة : شد عراها . (٢) تحدج : تحدق .

(٣) صبح الأعشى : « والشفار » .

(٤) في اللسان : « السبد الوبر ، وقيل : الشعر ؛ والعرب تقول : « ماله سبد ولا لبد » ، أي ماله ذو وبر ولا صوف متلبد ؛ يكنى بهما عن الإبل والغنم ، وقيل : يكنى به عن المعز والضأن ... وقال الأصمعى : ماله سبد ولا لبد ، أي ماله قليل ولا كثير » .

(٥) في اللسان : « ما جاء بهلة ولا بلة ؛ الهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة : أدنى بلل من الخير ، وحكاهما كراع جميعا بالفتح . ويقال : ما أصاب عنده هلة ولا بلة ، أي شيئا » .

(٦) مشهوم ، أي ذكى متوقد .

(٧) أرهص الخير لك : هيأه ، وجعله دانيا منك .

(٨) من صبح الأعشى .

(٩) في صبح الأعشى : « ومن علم أقول ما تسمع » .

(١٠) في صبح الأعشى : « فارتقب زمانك ، وقلص أردانك » .

(١١) نهاية الأرب : « التقاعس » .

لمن لا يظلع[1] لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غض ، وفى النفوس مضض ، وأنت أديمُ هذه الأمّة فلا تَحلَمْ[2] لجاجا ، وسيفها العضب فلا تنبُ اعوجاجا ، وماؤها العذْب فلا تَحُلْ أجاجا ، والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا لمن هو ؟ فقال هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يجاحش[3] عليه ، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمخ اليه ، وهو لمن يقال له : هو لك ، لا لمن يقول : هولى .

ولقد شاورنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الصّهر ، فذكر فتيانا من قريش ،فقلت له . أين أنت من علىّ ؟ فقال: إنّى لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه[4] ، وحِدّة سنّه . فقلت : متى كنفته يدُك ، ورعته عينُك ، حفّتْ بهما البركة ، وأسبِغت عليهما النّعمة ؛ مع كلام كثير خطبتُ به رغبته فيك ، وما كنتُ عرفت منك فى ذلك حَوْجاء ولا لَوْجاء[5] ؛ ولكنى قلت ماقلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنتُ لك إذْ ذاك خيراً منك الآن لى . ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، فقد كنّى عن غيرك[6] ، وإن قال فيك ، فما سكت عن سواك ، وإن اختلج فى نفسك شيء ، فهلمّ فالحكم مرضىّ ، والصواب مسموع ، والحق مُطاع .

ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ماعند الله[7] وهو عن هذه العصابة راض وعليها حَدِب ، يسرّه ماسرّها ، ويكيده ما كادها ، ويُرضيه ما أرضاها ، ويسخطه

---

(١) الظلع : الاعوجاج ، وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب : « يطلع » .
(٢) لا تحلم ، لا تفسد ، وأصله فى الجلد .
(٣) يجاحش ، أى يدفع الناس عنه ليحصى به لنفسه .
(٤) ميعة الشباب : أوله .
(٥) فى اللسان : « الحوجاء : الحاجة ، ويقال : ما فى صدرى به حوجاء ولالوجاء ، ولا شك ولامرية بمعنى واحد » .
(٦) صبح الأعشى ونهاية الأرب : « فلم يكن معرضا عن غيرك » .
(٧) صبح الأعشى : « إلى الله عز وجل » .

ما أسخطها . ألم تعلم[1] أنه لم يَدَعْ أحداً من أصحابه وخُلَطائه ، وأقاربه وسُجَرائه[2] ؛ إلا أبانَهُ بفضيلة ، وخصّهُ بمزيّة ، وأفرده بحالة ، لو أصفقت الأمة عليه لأجْلِها لكان عنده إيالُها وكُفالتها .

أتظن أنه عليه السلام ترك الأمة سُدًى[3] بَدَداً ، عِدًا[4] مباهلَ عباهلَ[5] طلاحَى[6] مفتونة بالباطل ، ملويّة[7] عن الحقّ ؛ لا ذائد ولا رائد ، ولا ضابط ولا خابط ولا رابط ، ولا ساقٍ ولا واقٍ ، ولا حادِيَ ولا هادي ، كلاّ والله ما اشتاق إلى ربّه ، ولا سأله المصير إلى رضوانه ، إلّا بعد أن أقام الصُّوى ، وأوضح الهدى ، وأمّن المهالك[8] ، وحَمَى المطارح والمبارك . وإلّا بعد أن شدَخَ يافوخ الشِّرْكِ بإذن الله ، وشرم وجه النفاق لوجه الله ، وجدَع أنف الفتنة في دين الله ، وتَفَل في عين الشيطان بعون الله ؛ وصدع بملء فيه ويده بأمر الله .

وبعد ؛ فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة جامعة ، ودار واحدة ، إن استقادوا لك[9] وأشاروا بك ، فأنا واضع يدي في يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك ؛ وإن تكن الأخرى ، فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون ، وكن العونَ على مصالحهم ، والفاتح لمغالقهم ، والمرشدَ لضالّهم ، والرادع لغويهم ؛ فقد أمر الله بالتعاون على البرّ ، وأهاب إلى التناصر على الحقّ . ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغلّ ، ونلقى الله بقلوب سليمة من الضِّغْن .

---

(١) صبح الأعشى : « أما تعلم » .
(٢) السجراء : جمع سجير ، وهو الصديق
(٣) سدى : مهملون .
(٤) بددا : متفرقون ، وعدا : متباعدون
(٥) عباهل ساهل : مهملون أيضا .
(٦) الطلاحى : الإبل التي تشكو بطوناً من أكل الطلح ؛ أراد بها هنا القوم الذين لا راعي لهم يصدهم عما يضرهم .
(٧) صبح الأعشى : « مصروفة » .
(٨) صبح الأعشى : « وأمن المسالك » .
(٩) صبح الأعشى : « إن استقالوا لك ، وأشاروا عندي بك » .

وإنما الناس[1] ثُمامة[2] فارفق بهم، واحنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تسوّل لك نفسُك فرقتَهم، واختلاف كلمتهم؛ واترك ناجمَ الشرّ حصيدا، وطائرَ الحقد واقعا، وباب الفتنة مغلَقا، لا قال ولا قيل، ولا لومَ ولا تعنيف، ولا عتاب ولا تثريب، والله على ما أقول وكيل؛ وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تهيّأتُ للنهوض، قال لى عمر: كنْ على الباب هنيهةً فلى معك ذَرْوٌ[3] من الكلام. فوقفت وما أدرى ما كان بعدى، إلّا أنه لحقنى بوجه يَنْدَى تهلّلا، وقال لى: قل لعلىّ: الرُّقاد محلمة، والهوى مقحمة، وما منّا أحدٌ إلا له مقام معلوم، وحقٌّ مشاع أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم؛ وإنّ أكيَس الكيّسين مَن منح الشارد تألّفا، وقارب البعيد تلطّفا، ووزن كلّ أمرٍ بميزانه، ولم يجعل خبره كعِيانه، ولا قاس فِتره بشبره؛ دينا كان أو دنيا، وضلالا كان أو هدى، ولا خير فى علم مستعمل[4] فى جهل، ولا فى معرفة مشوبة بنُكر.

ولسنا كجلدة رُفْغِ البعيرِ بين العجان وبين الذنب[5]

وكلّ صالٍ بناره يصلَى؛ وكلّ سيل فإلى قراره يجرى. وما كان سكوتُ هذه العصابة إلى هذه الغاية لعىّ وحصَر، ولا كلامها اليوم لفرَقٍ أو حَذَر، فقد جدع الله بمحمد عليه السلام أنفَ كلّ متكبّرٍ، وقصم به ظهرَ كلّ جبّار، وسلّ لسان كلّ كذوب؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال! ما هذه الخُنزُوانة[6] التى فى فَراش رأسك؟ وما هذا الشَّجا المعترض فى مدارج أنفاسك، وما هذه الوَحَرة[7] التى أكلت شَراسيفَك[8]، والقَذاة التى أعشَتْ ناظرك؟ وما هذا الدَّحْس[9]

(١) صبح الأعشى: «وبعد فإنما الناس».
(٢) الثمامة: واحد الثمام، نبت ضعيف، يضرب به المثل لما هو هين.
(٣) ذرو من الكلام: طرف منه، وفى صبح الأعشى «دور» تحريف.
(٤) صبح الأعشى ونهاية الأرب: «مستعمل».
(٥) الرفغ: أصول الفخذين من باطن.
(٦) الخنزوانة: الكبر.
(٧) الوحرة: العداوة؛ وأصلها دويبة يشبه بها.
(٨) الشراسيف فى الأصل: جمع شرسوف، وهو غضروف معلق بكل ضلع، مثل غضروف الكتف.
(٩) الدحس: التدسيس فى الأمر.

والدّمن اللذان يدلّان على ضيق الباع ، وخور الطباع ! وما هذا الذى لَبِسْتَ بسببه جِلْدَ النَّمِر ، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكر الشدّ ما استسميت لها ، وسريت سُرَى ابن أنقد[1] إليها ؟ إنّ العَوان لا تعلّم[2] الخِمْرة . ما أحوج العرجاء إلى قالية ، وما أفقر الصلعاء إلى حالية ، ولقد قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والأمر مُعَبَّدٌ[3] مُخَيَّسٌ ، ليس لأحدٍ فيه ملمس ، لم يسيَّر فيك قولا ، ولم يستنزل لك قرآنا ، ولم يجزم فى شأنك حكما ؛ لسنا فى كسرويّة كِسْرى ، ولا قيصرية قيصر ؛ [تأمّل إخوان فارس وأبناء الأصفر ، قد جعلهم الله جَزَرًا لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ! بل] [4] . نحن فى نور نبوّة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة وآثر رحمة ؛ وعنوان نعمة ، وظل عصمة ، بين أمة مهديّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرّتق والفتق ؛ لها من الله تعالى قلب أبىّ ، وساعد قوىّ ، ويد ناصرة ؛ وعين ناظرة .

أتظن ظنًّا أن أبابكر وثب على هذا الأمر مُفتاتا على الأمة ؟ خادِعًا لها ، ومتسلّطا عليها ! أتراه امتلخ أحلامها[5] ، وأزاغ أبصارها ، وحلّ عقودها ، وأحال عقولها ، واستلّ من صدورها حميّتها ، وانتكث رشاءها ، وانتضب ماءها ، وأضلّها عن هداها ، وساقها إلى رداها ، وجعل نهارها ليلا ، ووزنها كيلا ، ويقظتها رقادا ، وصلاحها فسادا ! إن كان هكذا ، إنّ سحره لمبين ، وإن كيده لمتين . كلّا والله ، بأىّ خيل ورجل ، وبأىّ سنان ونصل ، وبأىّ مُنّة وقوّة ، وبأىّ مال وعُدّة ، وبأىّ أيدٍ وشدّة وبأى عشيرة وأسرة ، وبأى قدرة ومُكْنة ، وبأى تدرّع وبسطة ! لقد أصبح عاوسمته منيع الرّقبة ، رفيع العتبة . لا والله لكن سَلَا عنها فولهتْ نحوه ، وتطامن لها فالتفّت به ، ومال عنها ، فمالت إليه ، واشمأزّ[6] دونها فاشتملت عليه ؛ حبوةٌ حباه الله بها ، وغايةٌ بلّغه الله إليها ، ونعمة سربله جمالها ، ويدٌ لله أوجب عليه شكرها ، وأمةٌ نظر الله به

(١) ابن أنقد : القنفذ

(٢) إن العوان لا تعلم الخمرة ، مثل ، والعوان ، المرأة التى أسنت و ا تهرم .

(٣) المعبد : المذلل ؛ ومثله المخيس .

(٤) تكملة من صبح الأعشى .

(٥) امتلخ أحلامها : اجتذبها ؛ يريد أمال عقولها نحوه .

(٦) اشمأز : انقبض .

لها [١] . وطالما حلقت فوقه فى أيام النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لِفَتْها ، ولا يرتصد وقتها ؟ والله أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخِيَرة . وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوّة ، ومعدن الرسالة ، وكهف الحكمة ؛ ولا يجحد حقك فيما آتاك ربك من العلم ، ومنحك من الفقه فى الدين ؛ هذا إلى مزايا خُصِصْتَ بها ، وفضائلَ اشتملت عليها ؛ ولكن لك [٢] مَنْ يزاحمك بمنكبٍ أضخمَ من مَنْكبك ، وقُربى أمسّ مِنْ قرباك ، ومَنْ أعلى من سنّك ، وشَيْبة أروع من شيبتك ، [٣] وسيادة معروفة فى الإسلام والجاهلية ، [٣] ومواقف ليس لك فيها جَمَل ولا ناقة ، ولا تذكُر فيها فى مقدّمة ولا ساقة ، ولا تضربُ فيها بذراعٍ ولا إصبع ، ولا تعدُّ [٤] منها ببازل ولا هُبَع [٥] .

إن أبا بكر كان حبّة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلّم وعِلاقة [٦] نفْسه ، وعيبة سرّه ومثوى حزنه ، وراحة باله ، ومرْمَق طرفه [٧] ؛ شهرته مغنية عن الدلالة عليـــه [٨] .

ولعمرى إنك لأقرب منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، ولكنه أقرب منك قُرْبة ، والقرابة لحم ودم ، والقُرْبة روح ونفس ، وهذا فَرْقٌ يعرفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون .

ومهما شكَكْتَ فلا تشكّ فى أنّ يدَ الله مع الجماعة ، ورضوانه لأهل الطاعة ، فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع غدا ، والفِظْ مِن فيك ما هو متعلّق [٩] بلهاتك ، وانفُث

---

(١) صبح الأعشى : « إليها » .
(٢) فى الأصول : « كل » ، وأثبت ما فى صبح الأعشى .
(٣-٣) صبح الأعشى : « وسيادة لها أصل فى الجاهلية وفرع فى الإسلام » .
(٤) صبح الأعشى : « ولا تخرج منها » .
(٥) البازل من الإبل : مادخل فى التاسعة والهبع : البعير ينتج فى الصيف ؛ يريد : ليس لك فيها شىء .
(٦) صبح الأعشى : « علاقة نفسه » .
(٧) بعدها فى صبح الأعشى : « وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار » .
(٨) صبح الأعشى : « الدليل » .
(٩) صبح الأعشى : « يعلق » .

سَخيمة صدرك ، فإن يكن فى الأمد طُول ، وفى الأجل فسحة ، فستأ كله مريئاً أو غير مرىء ، وستشرب به هنيئاً أو غير هنىء ، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيساً منك ، ولا تابع لك إلا مَنْ كان طامعا فيك ، حين يَمُضّ إهابَك ، ويفرِى أديمَك ، ويزرِى على هَدْيك ، هناك تقرَع السنّ من ندم ، وتشرب الماء ممزوجا بدم ، حين [1] تأسى على مامضَى من عمرك ، وانقضى وانقرض من دارج قومك ، وتودّ أن لو سُقِيت بالكأس التى سقيتَها غيرك ، ورُدِدت إلى الحال التى كنت تكرهها فى أمسك ، ولله فينا وفيك أمر هو بالغه ، وعاقبة هو المرجّو لسرّائها وضرّائها ، وهو الولىّ الحميد الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فمشيت إلى علىّ متبطّا متماطئا ، كأنما أخطو على أمّ رأسى فَرَقاً من الفتنة ، وإشفاقا على الأمّة ، وحذرا من الفرقة ؛ حتى وصلت إليه فى خلاء فأبثثته بثّى كله ، وبرئت إليه منه ، ودفعته له . فلما سمعها ووعاها ، وسرَت فى أوصاله حُميّاها قال : حلّت معلوّطة ، وولت مخروّطة [2] ، ثم قال :

إحْـدَى لياليكِ فهِيسِى هيسِى ٭ لَا تَنْعَمِى اللَّيْلَةَ بالتَّعْرِيسِ [3]

ياأبا عبيدة ، أهذا كلّه فى أنفس القوم يستبطنونه [4] ويضطغنون عليه ! فقلت : لاجواب عندى ، إنّما جئتُك قاضيا حقّ الدين ، وراتقاً فتْق الإسلام [5] ، وسادًّا ثُلْمة الأمة ؟ يعلم الله ذلك من جُلجلان [6] قلبى ، وقرارة نفسى .

---

(١) صبح الأعشى : « حينئذ » .
(٢) الملوطة : من الاعلواط ؛ وهو ركوب الرأس ، والتقحم على الأمور من غير روية ، والمخروطة : السريعة .
(٣) فى اللسان ٨ : ١٣٩ : « الهيس : السير ؛ أى ضرب كان ، وهاس يهيس هيسا : سار أى سير كان ؛ حكاه أبو عبيدة » ، وروى البيت
(٤) صبح الأعشى : « ويحسون به » .
(٥) صبح الأعشى : « الـدين » .
(٦) الجلجلان : حبة القلب .

فقال : ما كان قعودي في كِسْر هذا البيت قصداً لخلاف ، ولا إنكاراً لمعروف ، ولا زراية على مُسلم ، بل لما وَقَذَنِي به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده ، فإني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدّد عليّ حزنا ، وذكّرني شَجَنا ؛ وإنّ الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق منه ؛ رجاء ثواب معدّ لمن أخلص لله عمله ، وسلّم لعلمه ومشيئته أمرَه ؛ على أني أعلم أنّ التظاهر عليّ واقع ، ولي عن الحق الذي سيق إليّ دافع ، وإذ قد أُفعِم الوادي بي ، وحُشِد النادي عليّ ؛ فلا مرحبا بما ساء أحداً من المسلمين ؛ وفي النفس كلام لولا سابق قول وسالف عهد ، لشفيتُ غيظي بخنصري وبنصري ، وخُضْتُ لُجّته بأخمصي ومَفْرِقي ، ولكنّي ملجَم إلى أن ألقى الله تعالى ، عنده أحتسب ما نزل بي ، وأنا غادٍ إن شاء الله إلى جماعتكم ، ومبايع لصاحبكم ؛ وصابر على ما ساءني وسرّكم ، ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، وكان الله على كل شيء شهيدا .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبي بكر وعمر ، فقصصتُ القولَ على غَرّه ، ولم أترك شيئا من حلوه ومُرّه ، وذكرت [1] غُدُوّه إلى المسجد ؛ فلما كان صباح يومئذ [2] وافى عليّ يخرق الجماعة إلى أبي بكر وبايعه [2] ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زَمِيتا [3] ، واستأذن للقيام ونهض ، فتبعه عمر إكراما له ، وإجلالا لموضعه ، واستنباطا [4] لما في نفسه ، وقام أبو بكر إليه فأخذ بيده ، وقال : إنّ عِصابة أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة ، وإنّ أمة أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عزيزا علينا ، كريما لدينا ، نخاف الله إن سخطت ، ونرجوه إذا رضيت ، ولولا أني شُدِهت لما أجبت إلى ما دعيت إليه ، ولكني خفت

(١) صبح الأعشى ، : « وبكرت » .
(٢-٢) صبح الأعشى : « وإذا على يخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فبايعه » .
(٣) صبح الأعشى : « زميتا » ، أي حليا وقورا .
(٤) صبح الأعشى : « مستأثرا لما عنده » .

الفرقة ، واستئثار الأنصار بالأمر عَلَى قريش ، وأعجلت عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنتَ حاضراً لبايعتك ولم أعدل بك ، ولقد حطّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهِلِى به ، وما أسعد [1] من ينظر الله إليه بالكفاية ! وإنا إليك لمحتاجون ، وبفضلك عالمون ، وإلى رأيك وهَدْيِك فى جميع الأحوال راغبون ، وعَلَى حمايتك وحفيظتك معوّلون. ثم انصرف وتركه مع عمر .

فالتفت علىّ إلى عمر فقال : يا أبا حفص ، والله ماقعدت عن صاحبك جزعا على ماصار إليه ، ولا أتيته خائفا منه ، ولا أقول ما أقول بعلّة [2] ، وإنى لأعرف مَسْمَى طرْفى ومَخْطَى [3] قدمى ، ومنزع قوسى ، وموقع سهمى ؛ ولكنى تخلّفت إعذاراً إلى الله، وإلى من يعلم الأمر الذى جعله لى رسول الله ؛ وأتيت فبايعت ، حفظا للدّين ، وخوفا من انتشار أمر الله .

فقال له عمر : يا أبا الحسن ، كَفْكِفْ من غَرْبِك ، ونَهْنِه [4] من شِرّتك ، ودع العصا بلحائها ، والدلو برشائها ، فإنا مِنْ خلفها وورائها . إن قدحنا أورينا ، وإن متحنا أروينا ، وإن قَرَحْنا أدمينا ، وقد سمعت أمثالك التى ألغزت بها صادرة عن صدر دَوٍ ، وقلب جَوٍ . زعمت أنك قعدت فى كِسْرِ بيتك لما وَقَذَك به فراق رسول الله . أفراق رسول الله صلى الله عليه ، وَقَذَك وحدك ولم يقذْ سواك ! إنّ مصابه لأعزّ وأعظم من ذاك ، وإنّ من حقّ مصابه ألا تصدع شَمْل الجماعة بكلمة لاعصام لها ، فإنك لَتَرَى الأعراب حولَ المدينة لو تداعَتْ علينا فى صبح يوم لم تلتقِ فى ممساه . وزعمت أنّ الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ، فمن الشّوق إليه نصرة دينه ، وموازرة المسلمين عليه، ومعاونتهم فيه .

---

(١) هكذا فى د ، وفى ب : « أسد » .
(٢) صبح الأعشى : « لعلة » .
(٣) صبح الأعشى : « منتهى طرفى وحط قدمى » .
(٤) صبح الأعشى : « واستوقف من سربك » .

وزعمتَ أنك مكبٌّ على عهد الله تجمع ماتفرّق منه ، فمن العكوف على عهده النّصيحة لعباده ، والرأفة على خلقه ، وأن تبذل من نفسك مايصلُحون به ويجتمعون عليه.

وزعمتَ أنّ التظاهر عليك واقع ؛ أىّ تظاهر وقع عليك ! وأىّ حقٍّ استُؤْثِر به دونك ! لقد علمتَ ما قالت الأنصارُ أمس سرًّا وجهرا ، وما تقلّبتْ عليه ظهرا وبطنا ، فهل ذكرتك أو أشارت بك ، أو طلبت رضاها من عندك ! وهؤلاء المهاجرون ؛ مَن الّذى قال منهم إنّك صاحبُ هذا الأمر ، أو أومأ إليك ، أو همهم بك فى نفسه ! أتظن أنّ الناس ضلّوا من أجلك ، أو عادوا كُفّاراً زهدا فيك ، أو باعوا الله تعالى بهواهم بغضاً لك !

(١ ولقد جاءنى قوم من الأنصار ، فقالوا : إنّ عليًّا ينتظر الإمامة ١) ، ويزعم أنّه أولَى بها من أبى بكر ، فأنكرتُ عليهم ورددتُ القول فى نحورهم ، حتى قالوا : إنّه ينتظر الوحىَ ويتوكّف (٢) مناجاة الملك ! فقلتُ : ذاك أمرٌ طواه الله بعد محمّد عليه السلام.

ومن أعجب شأنك قولك : « لولا سابق قول لشفيت غيظى بخنصرى وبنصرى » ، وهل ترك الدّين لأحدٍ أن يشفىَ غيظه بيده أو لسانه ! تلك جاهليّة استأصل الله شأفتها ، واقتلع جرثومتها ، ونوّر ليلها ، وغوّر سيلها ، وأبدل منها الرّوح والريحان ؛ والهدى والبرهان ؛

وزعمتَ أنّك ملجَم ، فلعمرى إنّ من اتّقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ماعنده ، أمسك لسانه ، وأطبق فاه ، وغلب عقلُه ودينه على هواه .

وأما قولُك : « إنّى لأعرف منزَع قوسى » ، فإذا عرفتَ مَنْزَع قوسِك عرف غيرُك مضرَب سيفه ، ومطعَن رمحه . وأمّا مانزعمه من الأمر الذى جعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم لك ، فتخلّفت إعــذاراً إلى الله ، وإلى العارفة به من المسلمين ، فلو عرفه المسلمون

(١ــ١) صبح الأعشى : « لقد جاءنى عقيل بن زياد الخزرجى فى نفر من أصحابه ، ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجى ، وقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة » . (٢) يتوكف : ينتظر .

لجنحوا إليه ، وأصفقوا عليه ، وما كان الله ليجمعهم على العمى ، ولا ليضربهم بالصبا بعد الهدى ، ولوكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيك رأى ، وعليك عزم ، ثم بعثه الله ؛ فرأى اجتماع أمته على أبى بكر ، لما سفه آراءهم ، ولا ضلل أحلامهم ، ولا آثرك عليهم ، ولا أرضاك بسخطهم ، ولأمرك باتباعهم ، والدخول معهم فيما ارتضوه لدينهم .

فقال علىّ : مهلا أبا حفص أرشدك الله ! حفّض عليك ، مابذلتُ مابذلتُ وأنا أريد عنه حِوَلًا ، وإن أخسرَ الناس صفقة عند الله مَنْ استبطن النفاق، واحتضن الشقاق، وفى الله خَلَف من كلّ فائت ، وعِوَض من كلّ ذاهب ، وسلوة عن كلّ حادث ، وعليه التوكّل فى جميع الحوادث . ارجع أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب ، مبرود الغليل ، فصيح اللسان ، رحب الصدر ، متهلّل الوجه ، فليس وراء ماسمعته منى إلا مايشدّ الأزر ، ويحبط الوزْر ، ويضع الإصْر ، ويجمع الألفة ، ويرفع الكلفة ، إن شاء الله .

فانصرف عمر إلى مجلسه .

قال أبو عبيدة : فلم أسمع ولم أر كلاماً ولا مجلساً كان أصعبَ من ذلك الكلام والمجلس [1] .

* * *

قلت : الذى يغلب على ظنّى أنّ هذه المراسلات والمحاورات والكلام كلّه مصنوع موضوع ، وأنّهُ من كلام أبى حيان التوحيدىّ ، لأنه بكلامه ومذهبه فى الخطابة والبلاغة أشبه ، وقد حفظنا كلامَ عمر ورسائله ، وكلام أبى بكر وخُطبه ، فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب ، ولا يسلكان هذا السبيل فى كلامهما ، وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى ، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين ! ومَنْ تأمّل كلامَ أبى حيّان عرف أنّ

(١) المدر فى صبح الأعشى ١ : ٢٣٧ ـ ٢٤٧ ونهاية الأرب ٧ : ٢١٣ ـ ٢٢٩ ، ومحاضرة الأبرار ٢ : ١٠٢ ـ ١١٥ ، ونشره إبراهيم الكيلانى مع رسالتين لأبى حيان فى دمشق ١٩٥١ .

هذا الكلام من ذلك المعدِن خرج ؛ ويدلّ عليه أنه أسنده إلى القاضى أبى حامد المرورّوذى[1]؛ وهذه عادته فى كتاب "البصائر" يسند إلى القاضى أبى حامد كلّ ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه ، إذا كان كارهاً لأن ينسب إليه ، وإنما ذكرناه نحن فى هذا الكتاب ، لأنّه وإن كان عندنا موضوعا منحولا ، فإنّه صورة ماجرت عليه حال القوم ، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال ، فقد نطقوا به بلسان الحال .

وممّا يوضّح لك أنّه مصنوع ، أنّ المتكلّمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث ، وكلّ مَنْ صنّف فى علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية ، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقِطُ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام اللفظة الشاذّة ، والكلمة المفردة الصادرة عنه عليه السلام ، فى معرض التألّم والتظلّم ، فيحتجّ بها ، ويعتمد عليها ، نحو قوله : « مازلت مظلوما مذ قبض رسول الله حتّى يوم الناس هذا » .

وقوله : « لقد ظُلِمْت عَدَد الحجر والمَدَر » .

وقوله : « إنّ لنا حقّاً إن نعطَه نأخذه ، وإن نُمنعه نركبْ أعجازَ الإبل ، وإن طال السُّرى » .

وقوله : « فصبرتُ وفى الحلْق شجاً ، وفى العين قذًى » .

وقوله : « اللّهمّ إنى أستعديك على قريش فإنّهم ظلمونى حقّى ، وغصبونى إرْثى » .

وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه ، فكأنّما ظفر بِمُلْك الدنيا ويودِعها كتبَه وتصانيفه ، فأين كان المرتضى عن هذا الحديث ، وهلاّ ذكره فى كتاب "الشافى فى الإمامة "

(١) هو أحمد بن عامر بن بشر بن حامد أبو حامد المروروذى ؛ أحد فقهاء الشافعية ؛ ترجم له ابن خلكان ١ : ١٨ ، ١٩ توفى سنة ٣٦٢ .

كلام أمير المؤمنين عليه السلام هـذا ، وكذلك من قبله من الإمامية كابن النعمان ، وبنى نُوبخت ، وبنى بابويه وغيرهم ، وكذلك مَنْ جاء بعده متأخرى متكلّمى الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا ! وأين كانَ أصحابُنا عن كلام أبى بكر وعمر له عليه السلام ! وهلّا ذكره قاضى القضاة فى " المغنى " مع احتوائه على كلّ ماجـرى بينهم ، حتى إنّه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد فى أخبار السقيفة ! وهلاّ ذكره مَنْ كان قبل قاضى القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومَنْ جاء بعده من متكلّمينا ورجالنا ! وكذلك القول فى متكلّمى الأشعريّة وأصحاب الحديث كابن الباقلانىّ وغيره ، وكان ابنُ الباقلانىّ شديداً على الشّيعة ، عظيم العصبيّة عَلى أمير المؤمنين عليـه السـلام ، فلو ظفرَ بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هـذا الحديث لملأ الـكتب والتصانيف بهـا ، وجعلهـا هِجّيراه ودَأْبه .

والأمر فيما ذكرناه من وضع هـذه القصّة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ، ومعرفة كلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السِّيَر ، وأقلّ أنس بالتواريخ .

* * *

قوله عليـه السلام : « مودّع لا قالٍ ولا سئم » ، أى لا ملول ، سئمت من الشيء أسأم سأَما وسآما وسآمة ، سئمته إذا مللته ، ورجل سؤوم .

ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى ، فقال : « إن انصرفتُ فلا عن ملالة ، وإن أقمت فلا عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين » ، أى ليست إقامتى عَلى قبرك وجزعى عليكِ إنكاراً منى لفضيلة الصبر والتجلّد والتعزّى والتأسّى ، وما وعد الله به الصـابرين من الثواب ، بل أنا عالم بذلك ، ولـكن يغلبنى الطّبع البشرىّ .

وروى أن فاطمة بنت الحسين عليهما السلام ضربت فسطاطاً على قبر بعلها الحسن

ابن الحسن عليه السلام سنة ، فلما انقضت السنة قوّضت الفسطاس راجعةً إلى بيتها ، فسمعت هاتفا يقول : هل بلغوا ماطلبوا ! فأجابه هاتف آخر ، بل يئسوا فانصرفوا .

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتابه " الكامل " أنّ عليه السلام تمثّل عند قبر فاطمة :

ذكرت أبا أرْوَى فبتّ كأننى ردّ الهموم الماضيات وكيلُ[1]
لكلّ اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ وكلّ الذى دُون الفراق قليلُ
وإن افتقادى واحداً بعد واحدٍ دليلٌ عَلَى ألاّ يدوم خليلُ

والناس يرونه :

* وإن افتقادى فاطما بعد أحمدٍ *

تم الجزء العاشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد
ويليه الجزء الحادى عشر

(١) الكامل ٤ : ٣٠ (طبعة نهضة مصر) ، ولم يذكر هناك البيت الأول .

فهرس الخطب *

* وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات الواردة أثناء الشرح .





(١٧٠)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة :

إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ ؛ وَأَمْرٍ قَائِمٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاَّ هَالِكٌ. وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ ؛ إِلاَّ مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا . وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ ؛ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا .

وَاللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ[1] الإِسْلَامِ ؛ ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً ؛ حَتَّى يَأْرِزَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ .

إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَئُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِي ؛ وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ ، انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ ، فَأَرَادُوا رَدَّ الأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ .

* * *

الشرح :

وأمر قائم ، أى مستقيم ليس بذى عوج. لا يهلك عنه إلا هالك ، تقديره : لايهلك عادلاً عنه إلا هالك ؛ وهذا كما تقول : لا يعلم هذا الفن إلا عالم ، أى من قد بلغ الغاية

---

(١) ساقطة من ب .

فى العلم واستحقّ أن يوصف بذلك ويشار إليه فيه ، كذلك لا يهلك بعدوله عنه إلّا من هو أعظم الهالكين ، ومن يشارُ إليه بالهلاك ، وقد بلغ الغاية فى الهلاك .

ثم قال : « إنّ المبتدعات المشبّهات هنّ المهلكات » ، المبتدَعات : ما أُحدِث ولم يكن على عهد الرسول . والمشبَّهات : التى تشبه السنن وليست منها ، أى المشبَّهات بالسنن . وروى : « المشبِّهات » بالكسر ، أى المشبِّهات على الناس ، يقال : قد شُبِّه عليه الأمر ؛ أى أُلبِس عليه ، وروى : « المشتّبهات » أى الملتبِسات ، لا يُعرف حقُّها من باطلها .

قال : « إلّا مَنْ حفظ الله » ، أى مَنْ عصمه الله بألطاف يمتنع لأجلها عن الخطأ . ثم أمرَهم بلزوم الطّاعة ، واتباع السلطان ، وقال: إنّ فيه عصمة لأمركم ؛ فأعطوه طاعتكم غير مُلَوَّمة ، أى مخلصين ذوى طاعة محضة لا يلامُ باذلها ، أى لا ينسَب إلى النفاق . ولا مستكره بها ، أى ليستْ عن استكراه ، بل يبذلونها اختياراً ومحبة ، وروى : « غير ملويّة » أى معوجة ، من لَوَيْتُ العود .

ثم أقسم أنّهم إن لم يفعلوا وإلا نقل الله عنهم سلطان الإسلام — يعنى الخلافة — ثم لا يعيده إليهم أبداً ، حتى يأرز الأمر إلى غيرهم ؛ أى حتى ينقبض وينضمّ ويجتمع ؛ وفى الحديث : « إنّ الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جُحْرها »[1]

فإن قلت : كيف قال : إنّه لا يعيده إليهم أبداً ، وقد عاد إليهم بالخلافة العباسية ؟

قلت : لأنّ الشّرط لم يقع؛ وهو عدم الطاعة ، فإنّ أكثرهم أطاعوه طاعة غير ملوّمة ولا مستكرَه بها ، وإذا لم يتحقّق الشرط لم يتحقّق المشروط .

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤ .

وقد أجاب قوم عن هذا ، فقالوا : خاطب الشيعة الطالبيّة ، فقال : إنْ لم تُطوِعوا الطاعة المحضة نقل الله الخلافة عن هذا البيت حتى يأرِز وينضمّ إلى بيت آخر ؛ وهكذا وقع ؛ فإنها انضمّت إلى بيت آخر من بني هاشم .

وأجاب قوم آخرون ، فقالوا : أراد بقوله : « أبداً » المبالغة ؛ كما تقول : احبِسْ هذا الغريم أبداً ، والمراد بالقوم الذين يأرز الأمر إليهم بنو أمية ؛ كأنه قال : إن لم تفعلوا نقل الله الخلافة عنكم حتى يجعلها في قوم آخرين ؛ وهم أعداؤكم من أهل الشّام وبني أمية ، ولا يعيده إليكم إلى مدّة طويلة ، وهكذا وقع .

وقد تمالئوا : قد اجتمعوا . وتساعدوا على سَخْطة إمارتي : على كراهيتها وبغضها . ثم وعد بالصبر عليهم مالم يُخَفْ من فرقة الجماعة ، وانتشار حبل الإسلام .

وفَيَالة الرأي : ضعفه ، وكذلك فُيولة ؛ ورَجل فَيلُ الرأي : أي ضعيفه ، قال :

بنى ربِّ الجـــواد فلا تَفِيلوا ... فما أنتم فنعذرَكم لفيــل [(١)]

أي اسمٌ على رجل ضعيف الرأي والجمع أفيال ، ويقال أيضاً : رجل فال ، قال :

رأيتُـك يا أُخَيْطِلُ إذ جَرَيْنـا ... وجُرِّبتَ الفَراسةَ كُنتَ فالاَ [(٢)]

قال : إن تمّوا على هذا الرأي الضعيف قطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم .

ثم ذكر أن الحسد دعاهم إلى ذلك ، وأفاءها عليه : ردّها عليه ، فاء يفيء : رجع . وفلان سريع الفيء من غَضَبه ، أي سريع الرجوع . وإنه لحسن الفِيئة بالكسر ؛ مثال « الفيعة » أي حسن الرجوع ؛ وهذا الكلام لا يشعر بأنّه عليه السلام كان يعتقد أنّ الأمر له ، وأنه غُلِب عليه ثم رجع إليه ، ولكنه محمول على أنّه من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة الجزء من الكلّ ، وأنهما من جوهر واحد ، فما كان الوالي قديماً وهو رسول الله صلى الله

(١) اللسان ١٤ : ٥٠ ونسبه إلى الكميت .
(٢) اللسان ١٤ : ٥٠ ونسبه إلى جرير .

عليه وآله ، ثم تخلّل بين ولايته صلى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولايات غريبة ، سمّى ولايته فيئاً ورجوعا ، لأنها رجعت إلى الدَّوْحة الهاشميّة ؛ وبهذا يجب أن يتأوّل قوله : « فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها » أى أرادوا انتزاع الخلافة من بنى هاشم ، كما انتزعت أولا ، وإقرارها فى بيوت بعيدة عن هـذا البيت ، أسوة بمـا وقع من قبل .

والنَّعش : مصدر نعش ، أى رفع ، ولا يجوز : « أنعش » .

(١٧١)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام كلم به بعض العرب ، وقد أرسله قومٌ من أهل البصرة ؛ لما قرب عليه السلام منها،ليعلمَ لهم منه حقيقة حالِهِ مع أصحاب الجمل لتزُولَ الشبهة من نفوسهم ؛ فبيّن له عليه السلام من أمره معهم ماعلم به أنّه عَلَى الحقّ ، ثمّ قال له : بايع ، فقالَ : إني رسول قوم ، ولا أُحدث حدثاً حتى أرْجع إليهم . فقال عليه السلام :

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً ، تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَإِ وَالْمَاءِ ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ ما كُنْتَ صَانِعاً ؟

قَالَ : كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلَى الْكَلَإِ وَالْمَاءِ .

فقال عليه السَّلَامُ : فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ .

فقالَ الرَّجل : فَوَاللهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عند قيام الْحُجَّةِ عليّ فبايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَام .

والرَّجل يُعْرَفُ بِكُلَيْبٍ الْجَرْمِيّ .

* * *

الشّرح :

الجرمىّ : منسوب إلى بنى جَرْم بن رَبَّان بن حُلْوان بن عمران بن الحاف ابن قُضاعة ، من حِمْير . وكان هذا الرجل بعثه قومٌ من أهل البصرة إليه عليه السلام ،

يستعلم حاله : أهو على حجة[1] أم على شبهة ؟ فإذا رآه عليه السلام ، وسمع لفظه ، علم صدقه وبرهانه ؛ فكان بينهما ما قد شرحه عليه السلام .

ولا شيء ألطفُ ولا أوقعُ ولا أوضحُ من المثال الذى ضربه عليه السلام ، وهو حجة لازمة لا مدفع لها .

قوله : « ولا أحدث حدثا » أى لا أعمل مالم يأمرونى به ، إنما أمرت باستعلام حالك فقط ؛ فأمّا البايعة لك فإن أحدثتها كنت فاعلا مالم أندَب له .

ومساقط الغيث : المواضع التى يسقط الغيث فيها . والكلأ : النبت إذا طال وأمكن أن يُرْعَى ؛ وأول مايظهر يسمى الرُّطْب ، فإذا طال قليلا فهو الخلا ، فإذا طال شيئا آخر فهو الكلأ ، فإذا يبس فهو الحشيش .

والمعاطش والمجادب : مواضع العطش والجدْب ، وهو المحْل .

---

(١) ط : « حجتهم »

(١٧٢)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين :

اللّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ .

وَرَبَّ هَـٰذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى .

وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً ، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً ، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا ، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ ، وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ .

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ !
الْعَارُ وَرَاءَكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ !

* * *

الشّـَرْحُ :

السقف المرفوع : السماء . والجوّ المكفوف : السماء أيضا ؛ كفّه ، أي جمعه وضمّ بعضه إلى بعض ، ويمرّ في كلامه نحو هذا ، وأنّ السماء هواء جامد أو ماء جامد .

وجعلته مغيضاً لليل والنهار ، أي غَيْضة لهما ؛ وهي في الأصل الأجمة يجتمع إليها الماء

فتسمّى غَيْصة ومغيضا ؛ وينبت فيها الشعر ، كأنّه جعل الفلك كالغَيضة ، والليل والنهار كالشجر النابت فيها .

ووجه المشاركة أنّ المغيض أو الغيْضة يتولّد منهما الشجر ؛ وكذلك الليل والنهار يتولّدان من حَرَكان الفلك .

ثم عاد فقال : « ومجرًى للشمس والقمر » ، أي موضعاً لجريانهما .

ومختلَفاً للنجوم السيّارة ، أي موضعا لاختلافها ، واللام مفتوحة .

ثم قال : « جعلت سكانه سِبْطا من ملائكتك » أي قبيلة ، قال تعالى : ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾(١).

لا يسأمون : لا يملّون . وقرارا للأنام ، أي موضع استقرارهم وسكونهم . ومَدْرَجاً للهوامّ ، أي موضع دُروجهم وسَيْرهم وحَرَكاتهم ، والهوامّ : الحشرات والمخوف من الأحناش .

ومالا يحصى ، أي لا ينضبط بالإحصاء والعدّ ؛ مما تراه وتعرفه ومالا تراه ولا تعرفه

وقال بعض العلماء : إن أردت أن تعرف حقيقة قوله : « مما يُرى ومالا يُرى » فأوقد نارا صغيرة في فلاةٍ في ليلة صيفيّة ، وانظر ما يجتمع عليها من الأنواع الغريبة العجيبة الخلق ؛ التي لم تشاهدها أنت ولا غيرك قطّ .

قوله : « وللخلق اعتمادا » لأنهم يجعلونها كالساكن لهم ، فينتفعون بها ويبنون منازل إلى جانبها ، فيقوم مقام جدار قد استغنوا عن بنائه ، ولأنها أمّهات العيون ومنابع المياه باعتماد الخلق على مرافقهم ومنافعهم ومصالحهم عليها .

---

(١) سورة الأعراف ١٦٠

قوله : « وسدَّدنا للحق » أى صوبنا إليه ، من قولك : « سهم سديد » ، أى مصيب ، وسدد السنان إلى القِرْن ، أى صوّبه نحوه .

والذِّمار : ما يحامى عنه . والماثر : ذو الغيْرة . ونزول الحقائق : نزول الأمور الشديدة كالحرب ونحوها .

ثم قال . « النار وراءكم » ، أى إن رجعتم القهقرى هاربين .

والجنة أمامكم ، أى إن أقدمتم على العدو مجاهدين . وهذا الكلام شريف جداً .

(١٧٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَا تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً .

* * *

الشرح :

هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضُها فوق بعض ، كما أن السموات كذلك ، ولم يأت في الكتاب العزيز ما يدلّ على هذا إلا قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [1] ، وهو قول كثير من المسلمين .

وقد تأوّل ذلك أربابُ المذهب الآخر القائلون بأنها أرض واحدة ، فقالوا : إنها سبعة أقاليم ، فالمثلية هي من هذا الوجه ، لا من تعدد الأرضين في ذاتها .

ويمكن أن يتأول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، فيقال : إنها وإن كانت أرضاً واحدة ، لكنها أقاليم وأقطار مختلفة ، وهي كُريّة الشكل ، فمن على حَدَبة الكرة لا يرى مَنْ تحته ، ومن تحته لا يراه ، ومَنْ على أحد جانبيها لا يرى مَنْ على الجانب الآخر ، والله تعالى يدركُ ذلك كله أجمع ، ولا يحجب عنه شيء منها بشيء منها .

فأما قوله عليه السلام : « لا توارى عنه سماء سماء » ، فلقائل أن يقولَ : ولا يتوارَى شيء من السموات عن المدركين منا ، لأنها شفافة ، فأي خصيصة للبارى تعالى في ذلك ؟ فينبغي أن يقال هذا الكلام على قاعدة غير القاعدة الفلسفية ، بل هو على قاعدة

(١) سورة الطلاق ١٢ .

الشريعة[1] الإسلاميّة التي تقتضي أنّ السّمٰوات تحجب ماوراءها عن المدركين بالحاسّة؛ وأنها ليست طباقاً متراصّة، بل بينها خلق من خلق الله تعالى لايعلمهم غيره. واتّباعُ هذا القول واعتقاده أولى.

***

الأصلُ:

منها:

وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الأَمْرِ يابْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ؛ فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلإِ الْحَاضِرِينَ، هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي، ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

الشّرحُ:

هذا من خطبة يذكر فيها عليه السلام ماجرى يوم الشورى بعد مقتل عمر، والذي قال له: «إنك على هذا الأمر لحريص» سَعْد بن أبي وقاص، مع روايته فيه: «أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى»، وهذا عجب! فقال لهم: بل أنتم والله أحرصُ وأبعد... الكلام المذكور. وقد رواه الناس كافة.

وقالت الإماميّة: هذا الكلام يوم السقيفة، والذي قال له: إنّك على هذا الأمر لحريص، أبو عبيدة بن الجراح؛ والرواية الأولى أظهر وأشهر.

(١) ب: «على قاعدته الشريعة الإسلامية».

وروى : « فلما قرّعته » بالتخفيف ، أى صدمته بها .

وروى : « هبّ لا يدرى مايجيبنى » ، كما تقول: استيقظ وانتبه ، كأنّه كان غافلاذاهلا عن الحجة فهبّ لمّا ذكرتُها .

أستعديك : أطلب أن تُعْدِيَنى عليهم وأنْ تنتصف لى منهم .

قطعوا رحمى : لم يرعَوْا قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله .

وصغّروا عظيم منزلتى : لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه .

وأجمعوا على منازعتى أمراً هولى ، أى بالأفضلية أنا أحقّ به منهم ؛ هكذا ينبغى أن يُتأوّل كلامه .

وكذلك قوله : « إنما أطلب حقّاً لى وأنتم تحولون بينى وبينه ، وتضربون وجهى دونه » .

قال : « ثم قالوا : ألا إنّ فى الحقّ أن تأخذه ، وفى الحقّ أن تتركه » ،قال: لم يقتصروا على أخذ حقّى ساكتين عن الدّعوى ؛ ولكنّهم أخذوه وادّعوا أنّ الحقّ لهم ،وأنه يجبُ علىّ أن أترك المنازعة فيه ؛ فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقّى ،فكانت المصيبة به أخفّ وأهون .

واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحو من هذا القول ، نحو قوله :« مازلتُ مظلوماً منذ قبضَ الله رسولَه حتى يوم النّاس هذا » .

وقوله : « اللهمّ أخزِ قريشاً فإنها منعتْنى حقّى وغصبتْنى أمرى » .

وقوله : « فجزى قريشاً عنّى الجوازى ، فإنهم ظلمونى حقّى ، واغتصبونى سلطان ابن أمّى » .

وقوله ، وقد سمع صارخاً ينادى : أنا مظلوم ، فقال : « هلمّ فلنصرُخْ معاً ، فإنى مازلتُ مظلوماً » .

وقوله : « وإنه ليعلم أنّ محلّى منها محلّ القطب من الرحى » .

وقوله : « أرى تراثى نهباً » .

وقوله : « أصغيا بإنائنا ، وحَمَلا الناس على رقابنا » .

وقوله : « إنّ لنا حقاً إن نُعْطَه نأخذه ، وإن نُمنعه نركب أعجاز الإبل ؛ وإن طال السُّرَى » .

وقوله : « مازلت مستأثَراً علىّ ، مدفوعاً عمّا أستحقه وأستوجبه » .

وأصحابنا يحملون ذلك كلّه على ادّعائه الأمر بالأفضليّة والأحقيّة ؛ وهو الحقّ والصواب؛ فإنّ حمله على الاستحقاق بالنصّ تكفيرٌ أو تفسيقٌ لوجوه المهاجرين والأنصار ؛ ولكنّ الإماميّة والزيديّة حملوا هذه الأقوال على ظواهرها ، وارتكبوا بها مركباً صعباً. ولعمرى إنّ هذه الألفاظ مُوهِمةٌ مغلّبة على الظن مايقوله القوم ؛ ولكن تصفّح الأحوال يبطل ذلك الظنّ ؛ ويدرأ ذلك الوهم ، فوجب أن يجرى مجرى الآيات المتشابهات الموهمة مالا يجوز على البارئ ، فإنه لانعمل بها ، ولا نعوّل على ظواهرها ، لأنّا لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظاهر اللفظ ، وأن تحمل على التأويلات المذكورة في الكتب .

وحدّثنى يحيى بن سعيد بن على الحنبلى المعروف بابن عالية ، من ساكنى قَطُفْتا [1] بالجانب الغربى من بغداد، وأحد الشهود المعدّلين بها ، قال: كنت حاضراً مجلس الفخر إسماعيل ابن علىّ الحنبلىّ الفقيه المعروف بغلام ابن المنى ، وكان الفخر إسماعيل بن على هذا، مقدّم

(١) قطفتا ، بالفتح ثم الضم و فاء ساكنة وتاء مثناة ، والقصر : محلة بالجانب الغربى من بغداد ، بينها وبين دجلة أقل من ميل (مراصد الاطلاع) .

الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف ، ويشتغل بشيء في علم المنطق ، وكان حُلْوَ العبارة ، وقد رأيته أنا وحضرت عنده ، وسمعت كلامه ، وتوفي سنة عشر وستمائة .

قال ابن عالية : ونحن عنده نتحدّث ؛ إذ دخل شخص من الحنابلة ، قد كان له دَيْن على بعض أهل الكوفة ، فانحدر إليه يطالبه به ، واتفق أن حضرت زيارة يوم الغدير ، والحنبليّ المذكور بالكوفة ؛ وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جُمُوعٌ عظيمة ؛ تتجاوز حدّ الإحصاء .

قال ابن عالية : فجعل الشيخ الفخر يسائل ذلك الشخص : مافعلت ؟ ما رأيت ؟ هل وصل مالُكَ إليك ؟ هل بقيَ لك منه بقية عند غريمك ؟ وذلك يجاوبه ؛ حتى قال له : ياسيدي لو شاهدتَ يوم الزيارة يوم الغدير ، وما يجري عند قبر علي بن أبي طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة ! فقال إسماعيل : أيّ ذنب لهم ! والله ما جرّأهم على ذلك ، ولا فتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر. فقال ذلك الشخص : ومَنْ صاحب القبر ؟ قال : عليّ بن أبي طالب ! قال : ياسيدي ، هو الذي سنّ لهم ذلك ، وعلّمهم إياه وطرّقهم إليه ! قال : نعم والله . قال : ياسيّدي فإن كان محقا فمالنا أن نتولّى فلانا وفلانا ! وإن كان مبطلا فمالنا نتولاه ! ينبغي أن نبرأ إمّا منه أو منهما.

قال ابن عالية : فقام إسماعيل مسرعا ، فلبس نعليه ، وقال : لعن الله إسماعيل الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة ، ودخل دار حرمه ، وقمنا نحن وانصرفنا .

• • •

الأمثال

منها في ذكر أصحاب الجمل :

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تُجَرُّ الأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا

مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ . فَعَمَدُوا إِلَى نِسَاءِهِمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزُوا حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا ؛ فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ ؛ طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ ؛ فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا ، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا ، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً ، وَطَائِفَةً غَدْراً .

فَوَاللهِ إِنْ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ ؛ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا ، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ ، دَعْ مَا إِنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ !

• • •

الشَّرْحُ :

حُرْمة رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عن الزَّوجة ، وأصله الأهل والحرَم ؛ وكذلك حَبيس رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عنها .

وقتلوهم صبرا ، أي بعد الأسر . وقوله : « فوالله إنْ لولم يصيبوا » إن هاهنا زائدة، ويجوز أن تكون مخفّفة من الثقيلة .

ويُسأل عن قوله عليه السلام: « لولم يصيبوا إلا رجلا واحدا لحلّ لى قتل ذلك الجيش بأسره ، لأنهم حضروه فلم ينكروا » ،فيقال : أيجوز قتلُ من لم ينكر المنكر مع تمكّنه من إنكاره ؟

والجواب،أنّه يجوز قتلُهم؛لأنّهم اعتقدوا ذلك القتل مباحا،فإنهم إذا اعتقدوا إباحته، فقداعتقدوا إباحة ماحرّم الله ، فيكون حالُهم حالَ من اعتقد أنّ الزنا مباح،أو أن شربَ الخمر مباح .

وقال القطب الراوندى : يريد أنهم داخلون فى عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ [١] .

ولقائل أن يقول : الإشكال إنما وقع فى قوله : « لو لم يصيبوا من المسلمين إلّا رجلا واحدا حلّ لى قتل ذلك الجيش بأسره » ، لأنهم حضروا المنكر ولم يدفعوه بلسان ولا يد ، فهو علّل استحلاله قتلهم بأنهم لم ينكروا المنكر ، ولم يعلل ذلك بعموم الآية .

وأما معنى قوله : « دع ما إنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدّة التى دخلوا بها عليهم » ، فهو أنه لو كان المقتول واحدا لحل لى قتلهم كلهم ، فكيف وقد قتلوا من المسلمين عدّة مثل عدّتهم التى دخلوا بها البصرة ! وما ها هنا زائدة .

وصدق عليه السلام ، فإنهم قتلوا من أوليائه وخزّان بيت المال النّصرة خلقاً كثيرا ؛ بعضهم غدراً وبعضهم صبراً ، كما خطب به عليه السلام .

* * *

[ذكر يوم الجمل ومسير عائشة إلى القتال] [٢]

وروى أبو مخنف ، قال : حدثنا إسماعيل بن خالد ، عن قيس بن أبى حازم . وروى الكلبىّ عن أبى صالح ، عن ابن عباس . وروى جرير بن يزيد ، عن عامر الشعبى ، وروى محمد ابن إسحاق ، عن حبيب بن عمير ، قالوا جميعا : لما خرجت عائشة وطلحةُ والزبير من مكة إلى البصرة ، طرقت ماء الحوأب — وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة — فنبحتهم الكلاب ، فنفرت صعاب إبلهم ، فقال قائل منهم : لعن الله الحوأب فما أكثر كلابها ! فلما سمعت عائشة ذِكْر الحوأب ، قالت : أهذا ماء الحوأب؟ قالوا : نعم ، فقالت : ردّونى ردّونى ، فسألوها ما شأنها؟ ما بدا لها؟ فقالت : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « كأنى بكلاب

(١) سورة المائدة ٣٣ .

(٢) انظر ص ١١٦ وما بعدها من هذا الجزء .

ماء يدعَى الحوأب ، قد نبحتْ بعضَ نسائى » ، ثم قال لى : « إياكِ ياحميراء أن تكونيها » فقال لها الزبير : مهلًا يرحمك الله، فإنا قد جُزْنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة،فقالت:أعندك مَنْ يشهد بأنّ هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب ؟ فلفّق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابيًّا جعلًا لهم جُعلًا، فحلفوا لها ، وشهدوا أنّ هذا الماء ليس بماء الحوأب ، فكانت هذه أوّل شهادة زُور فى الإسلام .

فسارت عائشة لوجهها .

* * *

قال أبو مخنف : وحدثنا عصام بن قدامة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوما لنسائه ، وهُنّ عنده جميعا : « ليت شعرى أيتكُنّ صاحبة الجمل الأدْبب[1] ، تنبحها كلابُ الحوأب ، يُقْتَلُ عن يمينها وشمالها قتلَى كثيرة ، كلّهم فى النار وتنجُو بعد ما كادت ! » .

قلت : وأصحابنا المعتزلة رحمهم الله ، يحملون قوله عليه السلام : « وتنجو » على نجاتها من النار ، والإمامية يحملون ذلك على نجاتها من القتل ، ومحملنا أرجح ،لأن لفظة «فى النار» أقرب إليه من لفظة « القتل » ، والقرب معتبر فى هذا الباب ؛ ألا ترى أنّ نحاة البصريين أعملوا أقربَ العاملين ، نظرا إلى القرب !

* * *

قال أبو مخنف : وحدّثنى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ،أن الزبير وطلحة أغذّا[2] السير بعائشة،حتى انتهوْا إلى حَفَر أبى موسى الأشعرىّ ، وهو قريب من البصرة، وكتبا إلى عثمان بن حنيف الأنصارىّ ، وهو عامل علىّ عليه السلام على البصرة :أنْ أخلِ لنا دارَ الإمارة ، فلما وصل كتابهما إليه بعث الأحنف بن قيس ، فقال له : إنّ هؤلاء القوم قدموا علينا ومعهم زوجة رسول الله ، والناس إليها سراع كما ترى ؛ فقال الأحنف:

(١) الأدبب : الكثير الشعر .
(٢) الإغذاذ : الإسراع .

إنهم جاءوك بها للطلب بدم عثمان ؛ وهم الذين ألبوا على عثمان الناس ، وسفكوا دمه ؟ وأراهم والله لا يزايلون حتى يُلقوا العداوة بيننا ، ويسفكوا دماءنا ، وأظنهم والله سيركبون منك خاصة مالا قبل لك به ، إنْ لم تتأهب لهم بالنهوض إليهم فيمن معك من أهل البصرة ، فإنك اليوم الوالي عليهم ، وأنت فيهم مطاع ، فسر إليهم بالناس ، وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة ، فيكون الناس لهم أطوعَ منهم لك ؟

فقال عثمان بن حنيف : الرأى ما رأيتَ ، لكنني أكره الشرّ ، وأن أبدأهم به ، وأرجو العافية والسلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به . ثم أتاه بعد الأحنف حكيم بن جبلة العبدىّ من بنى عمرو بن وديعة ، فأقرأه كتاب طلحة والزبير ، فقال له مثل قول الأحنف ، وأجابه عثمان بمثل جوابه للأحنف ، فقال له حكيم : فأذنْ لى حتى أسير إليهم بالناس ، فإن دخلوا فى طاعة أمير المؤمنين ، وإلا نابذتهم على سواء .

فقال عثمان : لو كان ذلك رأيى لسرتُ إليهم بنفسى ، قال حكيم : أما والله إن دخلوا عليك هذا المصر لينتقلنّ قلوب كثير من الناس إليهم ، وليزيلنّك عن مجلسك هذا ، وأنت أعلم . فأبى عليه عثمان .

* * *

قال : وكتبَ علىّ إلى عثمان لمّا بلغه مشارفةُ القوم البصرة .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف ، أما بعد :

فإنّ البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا ، وتوجّهوا إلى مصرك ، وساقهم الشيطان لطلب مالا يرضى الله به . والله أشدّ بأساً ، وأشدّ تنكيلا ، فإذا قدموا عليك فادعُهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذى فارقونا عليه ، فإنْ أجابوا فأحسِن جوارَهم ماداموا

عندك ، وإن أبوا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف ، فنابزهم القتال حتى يحكم الله بينك ، وبينهم وهو خير الحاكمين ؛ وكتبت كتابي هذا إليك من الرّبَذة ، وأنا معجّل للسير إليك إن شاء الله .

وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة ست وثلاثين .

قال : فلما وصل كتابُ عليّ عليه السلام إلى عثمان ، أرسل إلى أبي الأسود الدؤليّ وعمران بن الحصين الخزاعيّ ، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم ، وما الذي أقدمهم ! فانطلقا حتى إذا أتيا حَفَر أبي موسى ، وبه معسكر القوم ، فدخلا على عائشة ، فنالاها ووعظاها ، وأذكراها وناشداها الله ، فقالت لهما : القيا طلحة والزّبير . فقاما من عندها ، ولقيا الزبير فكلماه ، فقال لهما : إنا جئنا للطلب بدم عثمان ، وندعو الناس إلى أن يردّوا أمرَ الخلافة شورى ، ليختار الناس لأنفسهم . فقالا له : إن عثمان لم يُقتل بالبصرة ليطلبَ دمه فيها ، وأنت تعلم قتلة عثمان مَنْ هم ، وأين هم ؛ وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشدّ الناس عليه ، وأعظمهم إغراء بدمه ، فأقيدوا من أنفسكم . وأما إعادة أمر الخلافة شورى ، فكيف وقد بايعتم عليًّا طائعين غير مكرَهين ! وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنت آخذ قائمَ سيفك ، تقول : ما أحدٌ أحقّ بالخلافة منه ولا أولى بها منه ! وامتنعت من بيعة أبي بكر . فأين ذلك الفعل من هذا القول !

فقال لهما : اذهبا فالقيا طلحة ، فقاما إلى طلحة فوجداه أخشنَ الملمس ، شديد العريكة ، قوي العزم في إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب ، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف ، فأخبراه وقال له أبو الأسود :

يا بنَ حنيف قد أتيت فانفرْ وطاعِنِ القوم وجالِدْ واصْبِرْ(١)

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٣١٧٤ .

* وابرز لها مستلئما وشمِّرْ *

فقال ابن حُنيف : إى والحرمين لأفعلنّ . وأمر منادِيَه فنادى فى الناس : السلاح السلاح ! فاجتمعوا إليه ، وقال أبو الأسود :

أتينا الزبير فدانى الكلام ... وطلحة كالنّجم أو أبعدُ
وأحسنُ قوليهما فادحٌ ... يضيق به الخطب مستنكدُ
وقد أوعدونا بجهدِ الوعيد ... فأهونْ علينا بما أوعدُوا
فقلنا ركضتم ولم تُرملُوا ... وأصدرتُمُ قبل أن تورِدُوا
فإن تلقحوا الحرب بين الرجال ... فملقحها حده الأنكدُ
وإن عليًّا لكم مصحِرٌ ... ألَا إنه الأسد الأسودُ
أما إنه ثالث العابدين ... بمكة والله لا يعبَدُ
فرخُّوا الخناق ولا تعجلوا[1] ... فإن غدا لكمُ موعدُ

قال : وأقبل القوم ، فلما انتهوا إلى المربد ، قام رجل من بنى جُشَم فقال : أيها الناس ، أنا فلان الجُشَمى ، وقد أتاكم هؤلاء القوم ، فإن كانوا أتوكم خائفين ؛ لقد أتوكم من المكان الذى فيه الطير والوحش والسباع ، وإن كانوا إنما أتوكم بطلب دم عثمان ؛ فغيرُنا ولِىَ قتله . فأطيعونى أيها الناس وردُّوهم من حيث أقبلوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا لم تسلَموا من الحرب الضَّرُوس والفتنة الصماء التى لا تُبْقى ولا تَذَر .

قال : فحصَبه ناس من أهل البصرة ، فأمسك .

قال : واجتمع أهلُ البصرة إلى المربد حتى ملئوه مشاة وركبانا ، فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكون ليخطُب ، فسكتوا بعد جهد . فقال : أمّا بعد ، فإن عثمان بن عفّان كان من أهل السابقة والفضيلة ، ومن المهاجرين الأولين الذين رضى الله عنهم ورضُوا عنه

(١) رخى : مثل أرخى .

ونزل القرآن ناطقا بفضلهم ، وأحد أئمة المسلمين الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان أحدث أحداثا نقمنا عليه ، فأتيناه فاستعتبناه فأعتبنا ، فعدا عليه امرؤ ابتزّ هذه الأمة أمرَها غصبا بغير رضاً منها ولا مشورة ، فقتله ، وساعده على ذلك قومٌ غير أتقياء ولا أبرار ، فقتل محرما بريئا تائبا . وقد جئنا كم أيها الناس نطلب بدم عثمان ، وندعوكم إلى الطلب بدمه ؛ فإن نحن أمكننا الله من قتلته قتلناهم به ، وجعلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين ، وكانت خلافة رحمة للأمة جميعا ؛ فإنّ كلّ مَنْ أخذ الأمر من غير رضاً من العامة ولا مشورة منها ابتزازاً ، كان ملكه ملكا عَضُوضاً ، وحدثا كثيرا .

ثم قام الزّبير ، فتكلّم بمثل كلام طلحة .

فقام إليهما ناس من أهل البصرة ، فقالوا لهما : ألم تبايعا عليا فيمن بايعه ؟ ففيم بايعتما ثم نكثتما ؟ فقالا : ما بايعناه ، وما لأحد في أعناقنا بيعة ؛ وإنما استكرهنا على بيعة . فقال ناس : قد صدقا وأحسنا القول ، وقطعا بالصّواب . وقال ناس : ما صدّقا ولا أصابا في القول ؛ حتى ارتفعت الأصوات .

قال : ثم أقبلت عائشة على جملها ، فنادت بصوت مرتفع : أيها الناس ، أقلّوا الكلام واسكتوا ، فأسكت الناس[1] لها ، فقالت :

إنّ أمير المؤمنين عثمان قد كان غيّر وبدّل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة ؛ حتى قتل مظلوما تائبا ، وإنما نقموا عليه ضربه بالسوط ، وتأميره الشّبّان ، وحمايته موضع الغمامة ، فقتلوه محرما في حرمة الشهر وحرمة البلد ، ذبحا كما يذبح الجمل . ألا وإنّ قريشا رمتْ غرضَها بنبالها ، وأدمتْ أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئا ، ولا سلكتْ به سبيلا

(١) أسكت الناس : انقطعوا عن الكلام .

قاصدا ، أما والله ليَرَوُنّها بلايا عقيمة تَنبه النائم ، وتقيم الجالس ، ولَيُسَلّطَنّ عليهم قوم لا يرحمونهم ؛ ويسومونهم سوء العذاب .

أيها الناس ! إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحلّ به دمه ، مُصْتُموه[1] كما يماص الثوب الرحيض[2] ، ثم عدوتُم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم ابنَ أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ، ابتزازاً وغصباً . ترانى أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ! ألا إنّ عثمان قتل مظلوما فاطلبوا قَتَلَته ، فإذا ظفرتُمْ بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورَى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ ولا يدخل فيهم مَنْ شَرَكَ في دم عثمان .

قال : فماج الناس واختلطوا ، فمن قائل : القول ما قالت ، ومن قائل يقول : وما هي وهذا الأمر ، إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها ! وارتفعت الأصوات ، وكثُر اللغط حتى تضاربُوا بالنعال ، وتراموْا بالحصى .

ثم إنّ الناس تمايزوا فصاروا فريقين : فريق مع عثمان بن حَنيف ، وفريق مع عائشة وأصحابها .

•••

قال : وحدّثنا الأشعث بن سوّار ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي الخليل ، قال : لما نزل طلحة والزّبير المِربِد أتيتهما فوجدتُهما مجتمعَيْن ، فقلت لهما : ناشدتكما الله وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما الذى أقدمكما أرضنا هذه ؟ فلم يتكلّما ، فأعدت عليهما ، فقالا : بلغنا أنّ بأرضكم هذه دنيا ، فجئنا نطلبها .

• • •

---

(١) الموص : الغسل بالأصابع ؛ وفي النهاية لابن الأثير ٤ : ١١٤ « يقال : مصته أموصه موصاً . أرادت أنهم استتابوه عما نقموا منه ، فلما أعطاهم ما طلبوا قتلوه » .

(٢) الرحيض : المغسول .

قال : وقد روى محمد بن سيرين ، عن الأحنف بن قيس أنّه لقيهما ، فقالا له مثل مقالتهما الأولى : إنما جئنا لطلب الدنيا .

وقد روى المدائنيّ أيضاً نحواً مما روى أبو مخنف ، قال : بعث عليٌّ عليه السلام ابنَ عباس يوم الجمل إلى الزبير قبل الحرب ، فقال له : إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام، ويقول لك : ألم تبايعني طائعاً غير مكرَه ، فما الذي رابك منّي ، فاستحللت به قتالي ؟ قال : فلم يكن له جواب إلا أنه قال لى : إنّا مع الخوف الشديد لنطمع ؛ لم يقل غير ذلك .

قال أبو إسحاق : فسألت محمد بن عليّ بن الحسين عليه السلام : ماتراه يعني بقوله هذا؟ فقال : أما والله ماتركت ابن عباس حتى سألته عن هذا ، فقال : يقول : إنّا مع الخوف الشديد ممّا نحن عليه ، نطمع أن نلي مثل الذي وليتم .

* * *

وقال محمد بن إسحاق : حدثني جعفر بن محمد عليه السلام ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : بعثني عليّ عليه السلام يوم الجمل إلى طلحة والزبير ، وبعث معي بمصحف منشور ، وإن الريح لتصفق ورقه ، فقال لى : قل لهما : هذا كتاب الله بيننا وبينكم ، فما تريدان ؟ فلم يكن لهما جواب إلا أن قالا : نريد ما أراد ! كأنهما يقولان : المُلْكَ .

فرجعتُ إلى عليّ فأخبرته

* * *

وقد روى قاضى القضاة رحمه الله فى كتاب « المغنى » عن وهب بن جرير ، قال : قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير : إنّ لكما فضلًا وصحبة ؛ فأخبرانى عن مسيركما

هذا وقتالكما؛ أشيء أمركما به رسول الله صلى الله عليه وآله، أم رأيٌ رأيتماه؟ فأمّا طلحة فسكت وجعل ينكت في الأرض، وأما الزّبير، فقال: ويحك! حُدِّثْنا أنّ هاهنا دراهم كثيرة، فجئنا لنأخذ منها.

وجعل قاضي القضاة هذا الخبر حجّة في أنّ طلحة تاب، وأنّ الزبير لم يكن مصرًّا على الحرب. والاحتجاج بهذا الخبر على هذا المعنى ضعيف، وإنْ صحّ هو وماقبله؛ إنّه لدليل على حُمْقٍ شديد، وضعف عظيم، ونقص ظاهر. وليت شعري ماالذي أحوجهما إلى هذا القول! وإذا كان هذا في أنفسهما، فهلّا كتَماه!

* * *

ثم نعود إلى خبرها: قال أبو مخنف: فلما أقبل طلحة والزبير من المربد، يريدان عثمان بن حنيف، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السّكك، فمضوا حتى انتهوا إلى موضع الدّباغين، فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف فشجَرهم[1] طلحة والزبير وأصحابهما بالرّماح، فحمل عليهم حكيم بن جبلة، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك، ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة، فأخذوا إلى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها مليًّا حتى ثابت إليهم خيلهم، ثم أخذوا على مُسَنّاة البصرة، حتى انتهوا إلى الزابوقة، ثم أتوا سَبَخة دار الرزق، فنزلوها.

قال: وأتاهما عبد الله بن حكيم التميميّ لما نزلا السَّبَخة بكتب كانا كتباها إليه، فقال لطلحة: ياأبا محمد، أما هذه كتبك إلينا؟ قال: بلى، قال: فكتبتَ أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله؛ حتى إذا قتلتَه، أتيتنا ثائرًا بدمه! فلعمري ماهذا رأيك؛ لا تريد إلّا هذه الدنيا. مهلا! إذا كان هذا رأيك؛ فلمَ قبلتَ من عليّ ماعرض عليك من البيعة،

---

(١) شجره بالرمح: طعنه.

فبايعته طائعاً راضياً ، ثم نكثتَ بيعتك ، ثم جئت لتدخلنا فى فتنتك ! فقال : إنّ عليا دعانى إلى بيعته بعد ما بايع الناس ، فعلمتُ أنى لو لم أقبلْ ما عرضه علىّ لم يتمّ لى ، ثم يغرى بى مَنْ معه .

قال : ثم أصبحنا من غد، فصفّنا للحرب ، وخرج عثمان بن حنيف إليهما فى أصحابه ، فناشدَهما اللهَ والإسلام ، وأذكرهما بيعتهما علياً عليه السلام ، فقالا : نطلب بدم عثمان ، فقال لهما : وما أنتما وذاك ! أين بنوه ؟ أين بنو عمّه الذين هم أحق به منكم ! كلّا واللهِ ؛ ولكنّكما حسدتماه؛ حيث اجتمع الناس عليه ، وكنتما ترجُوان هذا الأمر ، وتعملان له ! وهل كان أحدٌ أشدّ على عثمان قولا منكما ! فشتَماه شتماً قبيحاً ، وذكرا أمّه ، فقال للزبير : أما واللهِ لولا صفية ومكانُها من رسول الله فإنها أدنتك إلى الظل، وأنّ الأمر بينى وبينك ـ يابن الصعبة ـ يعنى طلحة ـ أعظم من القولِ ؛ لأعلمتكما من أمركما ما يسوءكما . اللهم إنى قد أعذرت إلى هذين الرجلين !

ثم حمل عليهم ، واقتتل النّاس قتالًا شديداً ، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتبَ بينهم كتاب صلح فكتب :

هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حُنَيف الأنصارىّ ومَنْ معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب وطلحة والزُّبير ومَنْ معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما ؛ أنّ لعثمان بن حنيف دار الإمارة والرّحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأن لطلحة والزُّبير ومَنْ معهما أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة ، ولا يضارّ بعضُهم بعضاً فى طريق ولا فُرْضة ولا سوق ولا شِرْعة ولا مِرْفق ، حتى يقدَم أميرُ المؤمنين علىّ بن أبى طالب ؛ فإنْ أحبُّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة ، وإن أحبوا ألحق كلُّ قوم بهواهم وما أحبوا من

قتال أو سلم أو خروج أو إقامة ، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه ، وأشدّ ما أخذه على نبيّ من أنبيائه ؛ من عهد وذمة .

وختم الكتاب ، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه : الحقوا رحمكم الله بأهليكم ، وضعوا سلاحكم ، وداووا جَرْحاكم . فمكثوا كذلك أياما

ثم إنّ طلحة والزبير قالا : إن قدم عليّ ونحن على هذه الحال من القلة والضعف ؛ ليأخذن بأعناقنا ، فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب ، فأرسلا إلى وجوه الناس وأهل الرياسة والشرف ، يدعُوانهم إلى الطلب بدم عثمان ، وخلع عليّ ، وإخراج ابن حنيف من البصرة . فبايعهم على ذلك الأزدُ وضَبّة وقَيْس بن عَيْلان كلّها إلا الرجُل والرجلين من القبيلة ، كرهوا أمرهم فتواروا عنهم ، وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمي فلم يأتهم ؛ فجاءه طلحة والزبير إلى داره ، فتوارى عنهما ، فقالت له أمه : ما رأيت مثلك! أتاك شيخا قريش فتواريت عنهما ! فلم تزلْ به حتى ظهر لهما ، وبايعهما ومعه بنو عمرو ابن تميم كلّهم وبنو حَنْظَلَة إلا بني يربُوع ؛ فإن عامّتهم كانوا شيعة لعليّ عليه السلام ، وبايعهم بنو دارم كلّهم إلا نفراً من بني مُجاشع ذوي دين وفضل .

فلما استوسق لطلحة والزبير أمرُهما ، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ، ومعهما أصحابهما ، قد ألبسوهم الدروع ، وظاهروا فوقها بالثياب ، فانتهوا إلى المسجد وقتَ صلاة الفجر ، وقد سبَقهم عثمان بن حَنيف إليه ، وأقيمت الصلاة ، فتقدّم عثمان ليصلّيَ بهم ، فأخّره أصحابُ طلحة والزبير ، وقدموا الزبير فجاءت السبابجة — وهم الشُّرَط حرس بيت المال — فأخرجوا الزبير ، وقدّموا عثمان ، فغلبهم أصحاب الزبير ، فقدّموا الزبير وأخّروا عثمان ، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلعُ ، وصاح بهم أهلُ المسجد : ألا تتقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس ! فغلب الزّبير فصلى بالنّاس ، فلما انصرف من

صلاته ، صاح بأصحابه المستبلحين : أنْ خُذوا عثمان بن حُنَيف ، فأخذوه بعدأن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفيهما ؛ فلما أسر ضُرِب ضربَ الموت ، ونتِف حاجباه وأشفار عينيه ، وكلّ شعرة في رأسه ووجهه ، وأخذوا السبابجة وهم سبعون رجلاً ؛ فانطلقوا بهم وبعثمان ابن حُنيف إلى عائشة ، فقالت لأبان بن عثمان : اخرج إليه فاضرب عنقه ، فإنّ الأنصار قتلتْ أباك ، وأعانت على قتله . فنادى عثمان : ياعائشة ، ويا طلحة ، ويازُبير ؛ إن أخي سهل ابن حُنيف خليفةُ عليّ بن أبي طالب على المدينة ، وأقسم بالله إنْ قتلتُموني ليضعَنّ السيفَ في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم ؛ فلا يُبْقِي أحداً منكم . فكفّوا عنه ، وخافوا أن يقع سهل بن حُنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة ، فتركوه .

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتلُ السَّبابجة ، فإنه قد بلغني الذي صنعوا بك . قال : فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم ، وَلِيَ ذلك منهم عبدُ الله ابنه ، وهم سبعون رجلاً ، وبقيتْ منهم طائفة مستمسكين ببيتِ المال . قالوا : لاندفعه إليكم حتى يقدَم أمير المؤمنين ؛ فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً ، فأوقع بهم ؛ وأخذ منهم خمسين أسيراً ، فقتلهم صَبْراً .

* * *

قال أبو مخنف : حدّثنا الصقعب بن زهير ، قال : كانت السبابجة القتلى يومئذ أربعمائة رجل ، قال : فكان غَدْرُ طلحة والزبير بعثمانَ بن حُنيف أوّلَ غدرٍ كان في الإسلام ، وكان السبابجة أوّلَ قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صَبْراً . قال : وخيّروا عثمانَ ابن حُنَيف بَيْنَ أن يقيم أو يلحق بعليّ ، فاختار الرحيل ؛ فخلّوا سبيلَه ، فلحق بعليّ عليه السلام ، فلما رآه بكى ، وقال له : فارقتك شيخاً ، وجئتك أمرد ، فقال عليّ : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! قالها ثلاثاً .

قلت : السيابجة لفظة معرّبة ، قد ذكرها الجوهريّ في كتاب « الصّحاح »[1] قال : هم قوم من السِّند ، كانوا بالبصرة جَلاوِزة[2] وحرّاس السجن ، والهاء للعُجْمة والنسب ، قال يزيدُ بن مفرّغ الحِمْيَرِيّ :

وَطَماطِيمَ من سَبابيجَ خُزْرٍ ... يُلبِسُونِي مع الصَّباحِ القُيودَا

قال : فلما بلغ حَكِيم بن جبلة ما صنع القوم بعثمان بن حُنيف ، خرج في ثلاثمائة من عبد القيس مخالفاً لهم ومنابذاً ؛ فخرجوا إليه ، وحملوا عائشة على جَمَل ؛ فسمّى ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر ، ويوم عليّ يوم الجمل الأكبر .

وتجالَدَ الفريقان بالسُّيوف فشدّ رجل من الأزْد من عسكر عائشة عَلَى حَكِيم بن جبلة ، فضرب رجله فقطعها ، ووقع الأزديّ عن فرسه ، فجثا حَكِيم ، فأخذ رجله فرمى بها الأزديّ ، فصرعه ، ثم دبّ إليه فقتله متكئاً عليه ، خانقاً له حتى زهقت نفسه ، فمر بحَكِيم إنسانٌ وهو يجود بنفسه ، فقال : مَنْ فعل بك ؟ قال : وسادي ، فنظر فإذا الأزديّ تحته ، وكان حَكِيم شجاعاً مذكوراً .

قال : وقتل مع حَكِيم إخوة له ثلاثة ، وقتل أصحابه كلّهم ، وهم ثلاثمائة من عبد القيس ، والقليل منهم من بكر بن وائل ، فلما صفت البَصْرة لطلحة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه وطرد ابن حُنَيف عنهما اختلفا في الصلاة ، وأراد كلٌّ منهما أن يؤمّ بالناس ، وخاف أن تكون صلاته خَلْفَ صاحبه تسليماً له ورضا بتقدّمه ؛ فأصلحت بينهما عائشة ، بأن جعلت عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة يصلّيان بالناس ، هذا يوما وهذا يوما .

قال أبو مِخْنَف : ثم دخلا بيت المال بالبصرة ، فلما رأوا ما فيه من الأموال ، قال الزُّبير : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾[3] ، فنحن أحقّ

(١) الصحاح ١ : ٣٢١ .
(٢) الجلواز : الشرطي .
(٣) سورة الفتح ٢٠ .

بها من أهل البصرة ، فأخذا ذلك المال كلّه ، فما غلب عليّ عليه السلام ردّ تلك الأموال إلى بيت المال ، وقسّمها في المسلمين

وقد ذكرنا فيما تقدّم كيفيّة الوقعة ، ومقتل الزبير فارًّا عن الحرب خوفًا أو توبة — ونحن نقول : إنها توبة — وذكرنا مقتل طلحة والاستيلاء على أمّ المؤمنين وإحسان عليّ عليه السلام إليها وإلى مَنْ أسِر في الحرب ، أو ظفر به بعدها .

* * *

[منافرة بين ولَدَى على وطلحة]

كان القاسم بن محمد بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمى — يلقّب أبا بعرة ، ولىَ شُرْطة الكوفة لعيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس — كلّم إسماعيل ابن جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام بكلام خرجا فيه إلى المنافرة[1] ، فقال القاسم بن محمد : لم يزلْ فضلُنا وإحساننا سابغًا عليكم يا بنى هاشم وعلى بنى عبد مناف كافّة ، فقال إسماعيل : أىّ فضل وإحسان أسْدَيْتُموه إلى بنى عبد مناف ؟ أغْضَب أبوك جدّى بقوله : ليموتنّ محمد ولنجولنّ بين خلاخيل نسائه كما جال بين خلاخيل نسائنا[2] . فأنزل الله تعالى مُراغمة لأبيك : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾[3] ومنع ابنُ عمّك أمّى حقها من فَدَك وغيرها من ميراث أبيها ؛ وأجلبَ أبوك على عثمان وحصره حتى قُتِل ، ونكث بيعة عليّ وشام[4] السيف

---

(١) المنافرة : المفاخرة بالحسب والنسب .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣ : ٥٠٦ .
(٣) سورة الأحزاب ٥٣ .
(٤) شام السيف : شهره .

في وجهه ، وأفسد قلوب المسلمين عليه ، فإنْ كان لبني عبد مناف قوم غير هؤلاء أسديتم إليهم إحساناً ؛ فعرِّفني مَنْ هم جعلتُ فداك !

* * *

[منافرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس]

وتزوج عبد الله بن الزبير أمّ عمرو ابنة منظور بن زبّان الفزارية ، فلمّا دخل بها قال لها تلك الليلة : أتدرين مَنْ معك في حَجَلتك⁽¹⁾ ؟ قالت : نعم ؛ عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى .

قال : ليس غير هذا ! قالت : فما الذي تريد ؟ قال : معكِ مَنْ أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أنّ بعض بني عبد مناف حضَرك لقال لك خلافَ قولك ، فغضب ، وقال : الطعام والشراب عليّ حرام حتى أحضرك الهاشميّين وغيرهم من بني عبد مناف ؛ فلا يستطيعون لذلك إنكارا . قالت : إن أطعتني لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك .

فخرج إلى المسجد فرأى حَلْقَةً فيها قوم من قريش ، منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابنُ الزُّبير : أحِبُّ أن تنطلقوا معي إلى منزلي ؛ فقام القوم بأجمعهم حتى وَقَفُوا على باب بيته ؛ فقال ابنُ الزبير : يا هذه اطْرَحي عليك ستْرَكِ ، فلما أخذوا مجالسَهم دعا بالمائدة ، فتغدّى القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتُكم لحديث ردّتْه عليّ صاحبةُ السِّتر ، وزعمتْ أنّه لو كان بعض بني عبد مناف حضرني لما أقرّ لي بما قلت ، وقد حضرتم جميعاً . وأنت يا بنَ عباس ، ما تقول ؟ إني أخبرتُها أنّ معها في خِدْرها مَنْ أصبح في قريش بمنزلة

(١) الحجلة ، بالتحريك : بيت للعروس يزين بالثياب والأسرة والستور .

الرأس من الجسد ، بل بمنزلة العينين من الرأس ! فردّت علىّ مقالتى ، فقال ابن عباس : أراك قصدتَ قصدى ؟ فإن شئت أن أقولَ قلت ، وإن شئتَ أن أكفّ كففت ، قال: بل قل ، وما عسى أن تقول ! ألستَ تعلم أنّ ابنُ الزبير حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنّ أمّى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النِّطاقين ، وأنّ عمتى خديجة سيدة نساء العالمين ، وأن صفيّة عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتى ، وأنّ عائشة أمّ المؤمنين خالتى ! فهل تستطيع لهذا إنكارا !

قال ابن عباس : لقد ذكرت شَرَفًا شريفًا ، وفخرا فاخرا ، غير أنك تُفاخر مَنْ بفخره فخرتُ ، وبفضله سموتُ . قال : وكيف ذاك؟ قال : لأنك لم تذكُرْ فخرا إلا برسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأنا أولى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتَ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوّة ، قال ابن عباس :

• قد أنصفَ القارةَ من راماها[1] •

نشدتكم الله أيها الحاضرون ! أعبد المطّلب أشرف أم خويلد فى قريش ؟ قالوا : عبدالمطّلب ، قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم ، قال : أعبدمناف أشرف أم عبد العزّى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تنافرنى يابنَ الزُّبير وقد قضَى عليك رسولُ الله لا قول هازلِ

ولو غيرُنا يابنَ الزبير تنافرته ولكنّما ساميتَ شمسَ الأصائل

(١) القارة : قوم من رماة العرب ؛ وهم عضل والديش ابنا الهون بن خزيمة ، من كنانة ؛ سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد ابن الشداخ أن يفرقهم فى كنانة . وأصل المثل كما ذكره صاحب اللسان : أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى والآخر أسدى ؛ فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى ، وأنشد :

قد أنصفَ القارةَ مَنْ راماها إنّا إذا ما فِئةٌ نلقاها

• نردُّ أولاها على أخراها •

ثم انتزع له سهماً فشك فؤاده .

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفصل فى قوله : «ما افترقت فرقتان إلا كنتُ فى خيرهما» ، فقد فارقناك من بعد قصىّ بن كلاب ، أفنحن فى فرقة الخير أم لا ؟ إن قلت : نعم خُصِمْتَ⁽¹⁾ ، وإن قلت : لا كفرت !

فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لولا تحرّمك بطعامنا يا بنَ عباس لأعرقت جبينك قبل أن تقومَ من مجلسك ، قال ابن عباس : ولمَ ؟ أبباطل فالباطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحقّ لا يخشى من الباطل !

فقالت المرأة من وراء السِّتر : إنى والله لقد نهيتُه عن هذا المجلس ، فأبى إلّا ماترون .

فقال ابن عباس : مَهْ أيتها المرأة ! اقنعى ببعلك ، فما أعظم الخطر ، وما أكرم الخبر ! فأخذ القوم بيد ابن عباس — وكان قد عَمِىَ — فقالوا . انهض أيها الرجل فقد أفحمتَه غير مرّة ، فنهض وقال :

ألَا يا قَوْمَنَا ارتحلوا وسيروا فلو تُرِك القَطَــا لَغَفَا ونَامَا

فقال ابن الزبير : ياصاحبَ القطا ، أقبِلْ علىّ ، فما كنتَ لتدَعَنى حتى أقول ، وايمُ الله لقد عرف الأقوام أنى سابقٌ غير مسبوق ، وابن حوارىّ وصدّيق ، متبجّح فى الشرف الأنيق ، خيرٌ من طليق .

فقال ابن عباس : دَسَعْتَ بجِرَّتك⁽²⁾ فلم تبق شيئاً ؟ هذا الكلام مردود ، من امرئ حسود ، فإن كنتَ سابقاً فإلى مَنْ سَبقْتَ ؟ وإن كنت فاخراً فبِمَنْ فخرت ؟ فإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا ، وإن كنتَ إنما أدركتَه بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، والكَثْكَثُ⁽³⁾ فى فمك ويديك . وأمّا ما ذكرت

(١) خصمت : أى غلبت .
(٢) يقال : دسع البعير بجرته ؛ أى دفعها حتى أخرجها ؛ والكلام على التمثيل .
(٣) الكثكث : التراب .

من الطّابق ، فوالله لقد ابتُلِيَ فصبر ، وأنعم عليه فشكر ؛ وإن كان والله لوفيًّا كريمًا غير ناقض بيعةً بعد توكيدها ، ولا مسلمٍ كتيبةً بعد التأمّر عليها .

فقال ابن الزبير : أتعيّر الزبير بالجبن ؛ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك ؛

قال ابن عباس : والله إنى لا أعلم إلّا أنّه فرّ وما كرّ ، وحارب فما صبر ، وبايع فما تمّ ، وقطع الرحم ، وأنكر الفضل ، ورام ماليس له بأهل .

وَأَدْرَكَ مِنْهَا بعضَ ما كان يرتجى ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ وقصّر عن جَرْيِ الكرام وبلّدا

وما كان إلا كالهجين أمامه ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ عَنَاقٌ فجاراه العَنَاقُ فأجهدا

فقال ابن الزبير : لم يبق يابنى هاشم غير المشاتمة [1] والمضاربة .

فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث : أقمناه عنك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ! والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسغب الظمآن ، يفتح فاه يستزيد من الريح ، فلا يشبع من سغب ، ولا يروى من عطش ؛ فقل إن شئت ، أو فدع .

وانصرف القوم .

(١) ب : « المشاتمة » .

(١٧٤)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمِينُ وَحْيِهِ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ،وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ؛ فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اُسْتُعْتِبَ ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ .

وَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ ؛ مَا إِلَى سَبِيلٍ ؛ وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا ؛ ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ .

أَلَا وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ : رَجُلًا ادَّعَى مَالَيْسَ لَهُ ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

صَدَّر الكلام فى ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويتلوه فُصول :

أولها : أنّ أحقّ الناس بالإمامة أقوام عليها ، وأعلمهم بحكم الله فيها ؛ وهذا لا ينافى مذهبَ أصحابنا البغداديين فى صحّة إمامة المفضول ، لأنه ماقال : إن إمامة غير الأقوى فاسدة ، ولكنه قال : إنّ الأقوى أحقّ ؛وأصحابنا لاينكرون أنه عليه السلام أحقُّ ممن تقدّمه بالإمامة مع قولهم بصحّة إمامةالمتقدمين ؛ لأنه لامنافاة بين كونه أحقّ ، وبين صحة إمامة غيره .

فإن قلت : أيّ فرق بين أقوام عليه وأعلمهم بأمر الله فيه ؟ قلت : أقوام أحسنُهم سياسة ، وأعلمهم بأمر الله أ كثرُهم علما وإجراء التدبير بمقتضى العلم ؛ وبين الأمرين فرق واضح،فقد يكون سائسا حاذقا،ولا يكون عالما بالفقه ، وقد يكون سائسا فقيها،ولا يجرى التدبير على مقتضى علمه وفقهه .

وثانيها : أنّ الإمامة لايشترط فى صحة انعقادها أن يحضرُها الناسُ كافّة،لأنه لو كان ذلك مشترطا لأدّى إلى ألّا تنعقد إمامة أبداً لتعذّر اجتماع المسلمين من أطراف الأرض، ولكنّها تنعقد بعقد العلماء، وأهل الحلّ والعقد الحاضرين،ثم لايجوز بعد عقدها لحاضريها أن يرجعُوا من غير سبب يقتضِى رجوعَهم،ولايجوز لمن غاب عنها أن يختار غير مَنْ عقده،بل يكون محجوجا بعقد الحاضرين ، مكلّفا طاعة الإمام المعقود له ؛ وعلى هذا جرت الحال فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، وانعقد إجماع المسلمين عليه ؛ وهذا الكلام تصريح بصحّة مذهب أصحابنا فى أنّ الاختيار طريق إلى الإمامة ، ومبطلٌ لما تقوله الإماميّة من دعوى النصّ عليه ؛ ومن قولهم : لاطريق إلى الإمامة سوى النصّ أو المعجز .

وثالثها : أنّ الخارج على الإمام يستعتَب أولا بالكلام والمراسلة،فإن أبى قُوتل؛وهذا هو نصّ الكتاب العزيز : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (١) .

ورابعها : أنه يقاتل أحدَ رجلين:إمّا رجلاً ادّعى ماليس له نحو أن يخرُج على الإمام مَن يدّعى الخلافة لنفسه،وإمّا رجلاً منع ماعليه،نحو أن يخرج على الإمام رجلٌ لايدّعى الخلافة ولكنه يمتنع من الطاعة فقط .

فإن قلت : الخارج عَلَى الإمام مدّعٍ الخلافة لنفسه ، مانع ماعليه أيضا لأنه قد امتنع من الطاعة ، فقد دخل أحدُ القسمين فى الآخر !

---

(١) سورة الحجرات ٩ .

قلت : لمّا كان مدّعى الخلافة قد اجتمع له أمران: إيجابيّ وسلبيّ ، فالإيجابي دعواه الخلافة ، والسلبيّ امتناعُه من الطاعة ، كان متميّزاً ممن لم يحصل له إلّا القسم السلبيّ فقط، وهو مانع الطاعة لاغير ، فكان الأحسن فى فنّ علم البيان أن يشتمل اللفظ على التقسيم الحاصر للإيجاب والسلب ، فلذلك قال : « إمّا مدعيا ماليس له ، أو مانعا ماهو عليه » .

* * *

الأصْلُ :

أُوصِيكُمْ ـ عِبَادَ ٱللهِ ـ بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَاتَوَاصَى ٱلْعِبَادُ بِهِ ؛ وَخَيْرُ عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ عِنْدَ ٱللهِ ؛ وَقَدْ فُتِحَ بَابُ ٱلْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ ، وَلَا يَحْمِلُ هَذَا ٱلْعِلْمَ إِلَّا أَهْلُ ٱلْبَصَرِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ ٱلْحَقِّ ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ ، وَقِفُوا عِنْدَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَعْجَلُوا فِى أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا ؛ فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً .

أَلَا وَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِى أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا ، وَتَرْغَبُونَ فِيهَا ، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ ؛ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلَا مَنْزِلِكُمُ ٱلَّذِى خُلِقْتُمْ لَهُ ؛ وَلَا ٱلَّذِى دُعِيتُمْ إِلَيْهِ .

أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ ، وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا ؛ وَهِىَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا ، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا ، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا ؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى ٱلدَّارِ ٱلَّتِى دُعِيتُمْ إِلَيْهَا ، وَٱنْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا ؛ وَلَا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ ٱلْأَمَةِ عَلَى مَازُوِىَ عَنْهُ مِنْهَا ، وَٱسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ ٱللهِ ، وَٱلْمُحَافَظَةِ عَلَى مَاٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَىْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ .
أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ !

• • •

الشَّرْح :

لم يكن المسلمون قبلَ حربِ الجمل يعرفون كيفيّة قتالِ أهل القبلة ؛ وإنما تعلّموا فقه ذلك من أمير المؤمنين عليه السلام .

وقال الشافعيّ : لولا علىّ لما عرِف شيء من أحكام أهل البغى .

قوله عليه السلام : « ولا يحمل هذا العلمَ إلا أهلُ البصر والصبر » ، وذلك لأنّ المسلمين عظُم عندهم حربُ أهل القبلة ، وأكبروه ؛ ومَن أقدم منهم عليه أقدم على خوف وحذر ، فقال عليه السلام : إن هذا العلم ليس يدركه كلّ أحدٍ ، وإنما له قوم مخصوصون .

ثم أمرهم بالمضىّ عندما يأمرهم به ، وبالانتهاء عمّا ينهاهم عنه ، ونهاهم عن أن يعجّلوا بالحكم على أمر ملتبس حتى يتبيّن ويتّضح .

ثم قال : إنّ عندنا تغييراً لكلّ ماتنكرونه من الأمور التى يثبت أنه يجب إنكارها وتغييرها ، أى لستُ كمثمان أصرّ على ارتكاب ما أنهى عنه ، بل أغيّر كلّ ماينكره المسلمون ، ويقتضى الحال والشرع تغييرَه .

ثم ذكر أنّ الدنيا التى تغضب الناس وترضيهم ؛ وهى منتهى أمانيهم ورغبتهم ، ليست دراهم ، وإنما هى طريقٌ إلى الدار الآخرة ، ومدّة اللبث فى ذلك الطريق يسيرة جداً .

وقال : إنها وإنْ كانت غرّارة فإنها منذرة ومحذّرة لأبنائها بما رووْه من آثارها فى

سلفهم وإخوتهم وأحبائهم ، ومناداتها على نفسها بأنها فاعلة بهم ما فعلت بأولئك من الفناء ، وفراق المألوف .

قال : فدعوا غرورها لتحذيرها ؛ وذلك لأنّ جانب تحذيرها أولى بأن يعمل عليه من جانب غرورها ؛ لأن غرورها إنما هو بأمر سريع مع التصرّم والانقضاء ، وتحذيرها إنما هو لأمر جليل عظيم ؛ فإن الفناء المعجّل محسوس ؛ وقد دلّ العقل والشرائع كافة على أنّ بعد ذلك الفناء سعادة وشقاوة ، فينبغي للعاقل أن يحذَر من تلك الشقاوة ، ويرغب في تلك السعادة ، ولاسبيلَ إلى ذلك إلا برفض غُرور الدنيا ، على أنه لو لم يكن ذلك لكان الواجب ـ على أهل اللبّ والبصيرة رفضُها ، لأن الموجود منها خيال ، فإنه أشبه شيء بأحلام المنام ؛ فالتمسك به والإخلاد إليه حُمْق .

والخنين : صوتٌ يخرجُ من الأنف عند البكاء ، وأضافه إلى الأمَة ؛ لأنّ الإماء كثيرا ما يُضرَبْن فيبكين ، ويسمَع الخنين منهنّ ؛ ولأنّ الحرّة تأنف من البكاء والخنين .

وزوى : قبض .

ثم ذكر أنّه لا يضرّ المكلّف فوات قسط من الدنيا إذا حفظ قائمة دينه ، يعني القيام بالواجبات والانتهاء عن المحظورات ، ولا ينفعه حصولُ الدنيا كلّها بعد تضييعه دينه ؛ لأن ابتياع لذّة متناهية بلذة غير متناهية يُخرج اللذة المتناهية من باب كونها نفعاً ، ويدخلها في باب المضارّ ؛ فكيف إذا انضاف إلى عدم اللذة غير المتناهية حصول مضارّ وعقوبات غير متناهية ، أعاذنا الله منها !

(تم الجزء التاسع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء العاشر)

(تنبيه) : ضبطت كلمة « حُنيف » ، في بعض المواطن من صفحات هذا الجزء بفتح الحاء المهملة ، والصواب بالضم .

فهرس الخطب *

(*) وهى الخطب التى وردت فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات